الدكتور فيليب حتّي

العرب

تاريخ موجز

دار العلم للملايين

العرب
تـاريخ موجز

العرب

تاريخ موجز

تأليف

الدكتور فيليب حتي

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون ٢-٢٢٤٥-٢٩١٠٢٧

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً: ملايين - تلكس ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان

إعادة طبع ٦
تموز/يوليو ١٩٩١

مقدمة الطبعة الرابعة

لعلّ أبناء العربية يطيب لهم ان يعرفوا ان هذه الطبعة الرابعة لكتاب « العرب » يقابلها بالانكليزية ستّ عشرة طبعة تولّى أمر نشرها شركة مكملان في لندن ، وسانت مارتن في نيويورك، ورجنري في شيكاغو، ومطبعة جامعة برنستون. هذا فضلاً عن طبعات يصعب حصرها في لغات اخرى من البرتغالية والاسبانية غرباً الى الاندونيسية شرقاً . ويمكننا على سبيل التخمين ان نقول ان عدد النسخ في مجموع هذه اللغات لا يقل عن اربعمئة الف . ومن هنا فلسنا نغالي اذا زعمنا أن ما أتيح لهذا الكتاب من النجاح لم يُتَح لكتاب آخر من نوعه .

ولقد ساهم في اعداد هذه الطبعة — كما ساهم في

اعداد الطبعة السابقة — الدكتور جبرائيل جبور ، استاذ الادب العربي في الجامعة الاميركية في بيروت ، فاستحق شكري وشكر القراء .

برنستون ، اول آذار سنة ١٩٦٨

فيليب حتّي

فاتحة الطبعة الأولى

إن ما لاقاه كتابي المطوّل الموسوم بـ « هستوري أوف ذي أربز History of the Arabs » (مكملان ، لندن ١٩٣٧ و ١٩٤٠ و ١٩٤٣) حدا مطبعة جامعة برنستون إلى أن تقترح عليّ وضع موجز في تاريخ العرب بالانكليزية . وما ان اظهر هذا الموجز بعنوان « ذي أربز : اي شورت هستوري » The Arabs : A Short History (برنستون ١٩٤٣ و ١٩٤٤) حتى أقبل عليه القرّاء إقبالاً اقتضى إعادة طبعه ست مرّات منها طبعة خاصة بالقوات الاميركيـة المسلحة . فانتشرت منه عشرات الآلاف من النُّسَخ . ولقد تمت ترجمته الى الاسبانية في الارجنتين . والمخابرة جارية بشأن نقله إلى البرتغالية وغيرها من اللغات .

وقد استعنتُ بثلاثـة من رفاقي الذين ساهموا معي في

منهاج التدريس الخاص بالجيش الاميركي في جامعة برنستون وهم السادة شكري خوري وفرحات زيادة وابراهيم فريجي على ترجمة هذا المختصر الى العربية . وهم بدورهم استعانوا بترجمة كتابي المطوّل التي كان قد ساهم في وضعها زميلي الدكتور ادورد جرجي ولم تُطبع بعد . فكان من نتيجة جهودهم هذا الكتاب « العرب : تاريخ موجز » . وأخيراً كلفتُ زميلي الدكتور نبيه أمين فارس أن يتعهد مخطوطة هذا الموجز بعنايته ويشرف على طبعها ويصلح مسوداتها ويضع خرائطها وفهرسها . فاستحقوا جميعاً خالص شكري .

عن جامعة برنستون في ١٥ آب سنة ١٩٤٥

فيليب حتّي

مكانة العرب في التاريخ

لم تمضِ على وفاة النبي محمد مئة سنة حتى أصبح العرب أسياد دولة أعظم من دولة الرومان في أوج عزّها، دولة امتدت أرجاؤها من بحر الظلمات غرباً الى حدود الصين شرقاً، ومن جبال أورال شمالاً الى حدود السودان جنوباً. وردّد المؤمنون في كلمتَي الشهادة اسمَ الجلالة والرسول من رؤوس المآذن في جنوبي اوروبا وشمالي أفريقيا وأواسط آسيا، فرجّعت جبال الاندلس وسهول الهند والصين ومجاهل الصحراء الكبرى أصداءَها. ودخل في دين العرب وفي لسانهم ودمهم من الشعوب والاجناس ما لم يعهده التاريخ من قبل، حتى في أخبار اليونان والرومان.

ولقد دوّن لنا التاريخ أخبار البابليين والاشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ممن ترعرع آباؤهم في مهد

الجزيرة العربية ثم نزحوا عنها الى البلدان المجاورة حيث شادوا دولاً عظيمة ما لبث ان أتى الدهر عليها فعفت واندرست . أما العرب فكانوا ولا يزالون منتشرين في مركز من أهم المراكز الجغرافية تخترقه طرق هي بمثابة حبل الوريد من جسم التجارة العالمية .

ومنذ وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها أخذ انتباه العرب الى ما في ثقافتهم من ثروة يتزايد، وأخذ شعورهم الوطني ينمو ويستعر . فأخذت مصر تنشد استقلالها ونودي بفيصل بن الحسين ملكاً على العراق وبسط ابن سعود عاهل الجزيرة سلطانه على أواسط الجزيرة وشماليها . وفي اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها استطاع لبنان أن يحرز استقلاله ويتحرر من الانتداب ويؤسس أول جمهورية عربية ، وتلته سورية ثم نال الأردن استقلاله وأصبح مملكة تعرف بالمملكة الاردنية الهاشمية ، واطاحت ثورة ١٩٥٢ بالملكية في مصر وأصبحت جمهورية . وكذلك فعل العراق ، ونالت الجزائر والمغرب وتونس استقلالها وأسست الجامعة العربية التي تضم الآن ثلاث عشرة دولة عربية مستقلة لكل منها مندوب في هيئة الأمم المتحدة ولأكثرها ممثلون دبلوماسيون في لندن وباريس وواشنطن وموسكو وكثير غيرها من العواصم في العالم .

فمن وسط الرماد الهامد انبعثت اليوم العنقاءُ حيةً — والعنقاء من طيور الجزيرة — قوية الجناحين . فالاسلام دين

الجزيرة ، منتشر اليوم في انحاء العالم بأسره . وعدد المؤمنين يبلغ اربعمئة وثلاثين مليوناً . وأصوات المؤذّنين ترتفع من على رؤوس المآذن في جميع انحاء العالم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار فتملأ الفلك المحيط بالكرة الارضية ، وتتصاعد الى السماء .

ولم يقتصر ما شاده العرب في تاريخ العصور على انشاء دولة بل تعدّى ذلك الى الثقافة والعمران . فلقد ورث العربُ المدنياتِ القديمةَ التي ارتفعت معالمها على شواطىء الرافدَين وعلى سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية وفي وادي النيل . واقتبسوا عن الاغريق والرومان القيم من مآثرهم ، ثم أضافوا اليه كثيراً مما ابتدعوه ، ومن ثم نقلوه الى اوروبا في عصورها المظلمة ونشروه فيها . فكان من جراء ذلك ان بزغ في أوروبا فجر تلك اليقظة العلمية التي لم يزل العالم الغربي ، ومنه اميركا ، يتمتع حتى اليوم بحسناتها .

وليس من شعب آخر قام في القرون الوسطى بما قام به العرب في سبيل تقدّم البشرية . (ونحن هنا لا نطلق كلمة عرب على أبناء الجزيرة فحسب بل على سائر الشعوب التي اتخذت العربية لساناً .) فبينما كان فلاسفة العرب مكبّين على دراسة تآليف ارسطو كان شرلمان ورجال بطانته يحاولون إتقان كتابة أسمائهم . وبينما كان علماء العرب في قرطبة يترددون على خزائن كتبها السبع عشرة

(ومنها خزانة حوت ٤٠٠،٠٠٠ مجلد) ويعودون الى بيوتهم فينعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافة والاناقة كان الاساتذة والتلامذة في جامعة اكسفورد يستنكرون الاستحمام ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التي يجب الترفع عنها .

ولتاريخ العرب أهمية أخرى عندنا لانه يدور على محور ثالث الاديان الموحدة وآخرها من حيث الزمن . ذلك هو الدين الحنيف الذي يمت بنسب الى اليهودية والنصرانية. فقد نشأت هذه الأديان الثلاثة في بيئة روحية واحدة — في أحضان الروح السامية . فالمسلم يعترف بأكثر العقائد اليهودية والنصرانية ، والعكس بالعكس .

ولقد عرف العرب في تاريخهم معنى النصر والهزيمة ، غير ان الفكرة التي دعا اليها النبي محمد ، فكرة التوحيد ، هي التي لازمها النصر فتغلبت على مختلف الشعوب على الرغم من تغلب بعض هذه على العرب في ميادين القتال كالاتراك والمغول مثلاً . ومن أهم حقائق التاريخ الراهنة في عصرنا هذا ان الاسلام لا يزال قوة فعالة في حياة الملايين من البشر من مراكش غرباً حتى الهند الصينية شرقاً ، بل لا يزال ديناً حياً يدين به سبع البشرية جمعاء .

اما اللغة العربية فهي اليوم وسيلة للتعارف والتفاهم بين ثمانين مليوناً من الناس . ولقد كانت في أثناء بعض القرون الوسطى لغة العلم والثقافة والتقدم والعمران في العالم

قاطبة . فكان عدد المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كُتبت بها في خلال المدة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد أعظم مما كُتب بأيّ لغة أخرى . ولا يزال أثر اللغة العربية ظاهراً في لغات الغرب التي استعارت منها مفردات علمية وفنية جمّة . ولا تزال حروفها أوسع الحروف انتشاراً بعد اللاتينية .

وعربُ اليوم أبعدُ عراقة في السلالة الساميّة وأكثر تمسكاً بتقاليدها من غيرهم من ابنائها . فقد حافظ العرب أكثر من سواهم على مميزات الأرومة السامية من جسدية وذهنية واجتماعية . وعلى الرغم من ان اللغة العربية هي أحدث اللغات السامية من حيث الأدب المدوّن فقد حافظت اكثر من العبرانية وشقيقاتها من اللغات السامية جميعاً على خصائص اللغة السامية الأم .

والأسلام هو غاية الكمال ديناً في مطابقة العقلية الساميّة. على ان لفظة «ساميّ» اتخذت في اوروبا واميركا معنى غير معناها الصحيح ، واقتصر استعمالها للدلالة على اليهودي دون سواه من الشعوب السامية . ولا مبرر لهذا الخطأ سوى الجهل . فما يحسبه الأوروبيون والاميركيون من « الملامح السامية » — كالأنف اليهودي مثلاً — ليس هو بالسامي على الاطلاق . بل هو مـــا يميز اليهودي من غيره من الساميين . وقد ورثه اليهود عن الحثيين والحُوريين لما

اختلطوا بهم قديماً عن طريق التزواج .

وتنحصر الأسباب التي تجعل العربي — وعلى الأخص البدوي — أفضل ممثل للأرومة السامية بيولوجياً ونفسيـاً واجتماعياً ولغوياً في عزلته الجغرافية في الصحراء ، وعدم تبدّل وسائل الحياة فيها وبقاء طرق العيش على ما كانت عليه منذ البدء . وما أصالة النسب وتجرّد السلالـة عن الهجانة والاختلاط إلا نتيجـة العزلة والانقطاع في وسط بيئة منزوية وعيش ضيّق كما هي الحال في اواسط الجزيرة. ولدينا في جزيرة العرب ، مثال فريد للبداوة ولطريقـة تكيّف الانسان بحسب مقتضيات الاقليم الذي يعيش فيه والتربة التي يدرج عليها . واذا كانت هناك شعوب هاجرت الى جزيرة العرب واستوطنت انجادها وواحاتها واختلطت بسكانها الاصليين كما هاجرت شعوبٌ مختلفة إلى بلاد الهند مثلاً واليونان وايطالية وبلاد الانكليز والولايات المتحدة وأقامت بين ظهراني السكان الاصليين واختلطت بهم فالتاريخ لم يترك لنا اثراً منهـا ، ولا هو ترك لنا اي خبر عن فاتحين استطاعوا أن ينفذوا وراء الحواجز الرملية ويثبتوا أقدامهم في تلك الأرض . فسكان الجزيرة وعلى الاخص البدو — بقوا على ما كانوا عليه منذ بدء التاريـخ . وفي جزيرة العرب نشأ اولاً أجداد الشعوب السامية من بابليين واشوريين وكلدانيين وعموريين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب وأحباش . وفيها قطنوا برهة من الزمن قبل ان

نزحوا عنها وصاروا الى ما صاروا اليه .

وإذا كانت الجزيرة موطن الساميين الأصليين فالهلال الخصيب الممتد من الخليج العربي الى سيناء وفيه العراق وسورية ولبنان وفلسطين كان مربع مدنيتهم الاولى . ففي وادي الفرات الذي نزح اليه الساميون حوالي ٣٥٠٠ ق. م. ازدهرت الثقافة البابلية التي تركت لنا إرثاً من النظم القياسية منها ما هو للاوزان والمكاييل ومنها نظام ستيني للوقت.

وتحدّر الى شمالي سورية حوالي ٢٥٠٠ ق. م. الاموريون ومنهم الكنعانيون (الذين سماهم اليونان فينيقيين) فاحتلوا شواطىء لبنان وأصبحوا أسبق المستعمرين والتجار العالميين . وان مأثرتهم في نشر الاحرف الهجائية وحدها تكفي في ان يعدوا بين عظماء المحسنين الى الانسانية .

إن العرب المسلمين قد أصبحوا بعد فتحهم للهلال الخصيب ورثة هؤلاء الساميين الاوائل . وقد ورثوا كذلك ثقافة بلاد العرب الجنوبية التي ازدهرت قبل الاسلام بألف سنة . وقد كان أصل ملكة سبأ التي تذكرها التوراة من جنوبي الجزيرة العربية .

العرب الأصليّون : البدو

يتناول موضوع هذا الكتاب جميع الشعوب الناطقة بالضاد في الجزيرة وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق وفي ايران (أثناء وقوعها في أحضان العروبة)وفي مصر وبرقة وتونس والمغرب الاقصى وفي صقلية والاندلس في إبان ازدهار الحضارة العربية فيها . ولا بد لنا أولاً من الوقوف هنيهة لدرس أحوال العرب الاصليين ،وهم البدو .

ليس البدوي زُطيّاً أو نوَرياً يهيم على وجهه لا غاية له ولا قصد . بل البدوي أفضل من كيّف الحياة البشرية طبقاً لأحوال الصحراء الطبيعية . فحيث تيَسّر المرعى نزل ، وحيث نَدَر قوّض خيامه وارتحل . وللبداوة في الصحراء قوانين علمية لا تقل شأناً، في وضعها وتنظيمها، عن قوانين الحياة الصناعية في حواضر المدن . وهي ضرب من المعيشة ضيّق

زاهدٌ بجاري بيئةً عسيرة مُقِلة . فعظم بلاد العرب صحراء قاحلة ، والسكنى لا تصلح الا في بقع من أطرافها تجاور البحار المحيطة بها ، وفي عدد من الواحات المنتشرة في أنحائها . وقد أطلق العرب على بلادهم اسم « الجزيرة » . وهي كالجزيرة حقاً ، اذ تحيط بها البحار من جهات ثلاث وتكتنفها الرمال من الجهة الرابعة .

وعلى الرغم من سعة البلاد اذ هي أكبر شبه جزيرة في العالم فلا يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين . ويقول علماء طبقات الأرض ان الجزيرة كانت فيما مضى من العصور متصلة بالصحراء الكبرى الافريقية وبالمنطقة الرملية الممتدّة في عرض آسيا من أواسط ايران حتى صحراء غربي الصين . ثم انفصلت عنها بفعل خسوف أرضيّ لا تزال آثاره ظاهرةً في وادي النيل والبحر الاحمر وخليج فارس . وبلاد العرب أشدّ أقاليم العالم حرارةً وأقلها مطراً على الرغم من وقوعها بين بحرين هما البحر الاحمر وخليج فارس ، وذلك لأن هذين البحرين ضيّقان ولا أثر لهما في تعديل الإقليم والأحوال الجوية الغالبة على الأراضي العديمة المطر في القارتين الافريقية والآسيوية .

وقد تعود مياه المحيط الهندي الى الجنوب ببعض الغيث على الجزيرة . الا ان ريح السّموم التي تلفح البلادَ كلّ عام لا تترك وراءها الا القليل من الرطوبة في داخل الجزيرة . فلا عجب اذاً اذا تغنى شعراء العرب بالنسيم العليل وهبّاته الشرقية المنعشة ، وهي المعروفة عندهم بريح الصَّبا .

ولا يزال البدوي يقطن بيوت الشعر كما قطنها أجداده من قبل ، وينتجع بمواشيه المراعي التي انتجعها أسلافه منذ بدء عهدهم . وهو يتخذ تربية الحيوان من الغنم والابل والخيل مهنة ، ويتعاطى القنص والغزو ولا يحترف ما سوى ذلك لأن هذه وحدها هي التي تليق به . ولأن الزراعة والتجارة والصناعة على اختلاف أنوعها هي في عرفه دون مقامه شرفاً . والحقيقة الراهنة ان ما يصلح للفلاحة من أرض الجزيرة قليل ، وان الحنطة تكاد لا تزرع فيها . ومن هنا عد البدوي الخبز من كماليات الحياة .

وقد ينبت في الجزيرة بعض الشجر كالنخيل والكرم والبن الذي جلبه اليمنيون من بلاد الحبشة في القرن الرابع عشر للميلاد وغيرها . وينمو في الواحات اللوز وقصب السكر والبطيخ . ولا يزال المر واللبان (البخور) ، اللذان كان لتجارتهما شأن في تاريخ عرب الجنوب ، معروفين هنالك .

ومناخ الجزيرة قاسٍ ، وهواؤها جافّ ، وفي تربتها ملوحة ، وليس في طول البلاد وعرضها نهر تصبّ مياهه في البحر طيلة السنة . وليس من نهر صالح للملاحة . فكل ما هنالك أودية مشتبكة تتدفّق فيها السيول عندما تطغى . ولهذه الاودية منفعة أخرى اذ تسير فيها القوافل ويسلك الحجاج شعابها ، ولا يزال الحج منذ فجر الاسلام حلقة الاتصال بين الجزيرة وسائر البلدان .

وقد زهت في الهلال الخصيب الذي يكتنف الجزيرة من

الشمال دولٌ ثم زالت . أما البدوي فلم يتغير وبقي على ما كان عليه منذ البدء ، واستمر مع شريكته الناقة والنخلة في الحياة الصحراوية حاكم الصحراء المطلق وواحداً من ثالوثها القديم ، ولا يشارك هذا الثالوث في أمر الجزيرة سوى الرمال . وبفضل ما للبدوي من شدّة المراس والصبر على الشدائد استطاع أن يثبُت حيث يكاد لا يقوى شيء على البقاء . وقد حالت نزعته الفردية بينه وبين صيرورته رجلاً ذا وعي قومي . واسمى ما وصل اليه في اخلاصه للمصلحة العامة لم يتجاوز ما يتعلق بقبيلته من الأمور . أما النظام واحترام الشرائع وطاعتها والخضوع للسلطة فليست من سجاياه .

وكانت بداية الديانة السامية في الواحات لا في المَهامه . ولقد قامت على انصاب وينابيع سبقت ما جاء بعدئذ من نوعها مثل الحجر الاسود وبئر زمزم في الاسلام وبيت إيل في العهد القديم من التوراة . أما الشعور الديني في قلب البدوي فسطحيّ . ولم يفت القرآن التصريح بذلك فقد جاء فيه قوله : « الاعرابُ أشدّ كُفراً ونِفاقاً » (سورة التوبة) . ولا يزال الامر كذلك حتى يومنا هذا فليس يتعدى ايمان البدوي بالنبي الاعتراف اللفظي .

وتظهر في عقلية البدوي وبيئته معالم صحرائه القاحلة وحياة الضجر المملّة التي تخيم عليها . فجسمه عظم وعضل وعصب ، وطعامه مقتصرٌ على التمر ولحم الابل. في حين ان شرابه الرئيسي لبن النوق . وهو يصطنع خمره من عصير التمر ويُطعم ابله

نوى التمر مجروشاً. أما غاية آماله فأن يحصل على « الاسودَين » أي التمر والماء .

الاسودان أبرءا عظامي الماءُ والتمرُ دوا أسقامي

أما لباس البدوي فبسيط مثل قوته . وهو لا يتعدّى قيصاً طويلاً ونطاقاً يشدهُ على حَقْوَيه وعباءة يلتف بها وكوفية وعقالاً على رأسه . أما السراويل فيكاد البدوي لا يعرفها ، واما الأحذية فنادرة الوجود قليلة الاستعمال .

وأهم حيوانات الجزيرة الابل والخيل . وقد يصعب على العقل أن يتصوّر الصحراء صالحة للعيش بدون الابل. فهي قوام أهل البداوة ، ومطيّة تنقلهم ، ووسيلة معاملاتهم . فَمَهرُ المرأة ، ودِيَةُ القتيل ، وربح الميسر ، وثروة الشيخ كل اولئك تُحسَب بعَدَد الابل . والابل هي رفيقة البدوي التي لا تفارقه وخِدْنُهُ ومُعيله . يشرب لبنها بدلاً من الماء الذي يحرمه نفسه ويوفره لماشيته ، ويتلذّذ بأطايب لحمها ، ويلبس جلودها ، ويصطنع أحياناً بعض اروقة خيامه من وبرها ، ويستوقد بَعْرَها ويتطيّب بِبَوْلها ويتطبّب به فيدهن به رأسه وقايةً من الحشرات . وليس الجمل للبدوي سفينة الصحراء فحسب بل هو عطية من الله ، وهِبَةٌ من لدُنْهُ .

وفي يومنا هذا يتباهى البدو ويعتزّون بدعوة أنفسهم « أهل الوبر » . ومما جاء في الحديث « أحبّ اليّ من أهل الوبر والمَدَر » . وذكر ألوا مُوزِل Musil الرحالة التشيكوسلوفاكي المشهور في كتابه عن قبيلة الرولا انه لايكاد يوجد فرد من أفرادها

لم يشرب مرةً ماء من كرش الجمل . فعند الحاجة يُؤتى بالجمل وتُدْفَع عصا في حلقه حتى يتقيأ الماء ، أو يُنحر ويُستخلص الماء منه . وقد يصلح هذا الماء شراباً اذا لم ينقضِ على تناول الجمل له يوم أو يومان .

ولما كانت بلاد العرب مركز تربية الابل الرئيسي في العالم فتجارة الابل اهمّ مواردها . ويدلك على مكانة الابل في حياة البدو ومعاملاتهم ان في اللغة العربية ، على ما يقال ، ما يقارب الف اسم للابل بأنواعها المختلفة وأنسابها وحالاتها وأطوار نموّها ، وهو عدد لا يضاهيه سوى عدد أسماء السيف . ويقول علماء الجيولوجيا ان موطن الجمل الأصلي انما هو البلاد الاميركية ومنها تسرب في العصور السابقة للتاريخ الى آسيا الشرقية ، فالوسطى ، فبلاد العرب . وأول ذكر للجمل في التاريخ يرقى الى القرن الحادي عشر قبل المسيح عندما غزا المديانيّون فلسطين وأدخلوه اليها ، على ما ورد في سفر القضاة (٦ : ٥) .

أما الخيل ، وأصلها أيضاً اميركي ، فليست من ضَروريات الحياة في الصحراء ، ومن هنا لم يكن يملكها منهم غير ذوي اليسار . وعلى الرغم من شهرة الخيل في كتب العرب فان ظهورها في الجزيرة جاء متأخراً . فلقد جاءتها قبيل الميلاد عن طريق سورية التي كان ملوك الرعاة قد أدخلوا اليها الخيل في القرن الثامن عشر قبل المسيح . وتوفرت للخيل في الجزيرة الاسبابُ للاحتفاظ بدمها أصيلاً بعيداً عن الاختلاط . وقد اشتهرت

الخيل العربية بجمالها وقوّتها على تحمل الشدائد ونباهتها وتعلقها بصاحبها واخلاصها له . فالخيل العربية الاصيلة هي مثال لما يحسبه الغربيون أفضلَ صفات الخيل . وقد ادخل العربُ الخيلَ الاصيلة الى الاندلس في القرن الثامن للميلاد ، ولا تزال خصائصها ظاهرة في الخيول الأندلسية والمغربية حتّى يومنا هذا . حتى اذا كانت الحروب الصليبية امتزج دم الخيول الانكليزية بدم الخيول العربية الاصيلة .

وأهم ما يُعجب العربي من الخيل سرعتُها اذ بدونها لا يصلح غزو . وهي تُستَخْدَمُ أيضاً في السباق والقنص . واذا عزّ الماء في مخيم احدى القبائل وضجّ الاطفال وعلا عويلهم من العطش لم يكترث رب البيت بهم بل أصرّ على تقديم الماء للخيل أولاً ، فاذا بقي منه شيء دفعه الى الصِّبْية .

وليس الغزو ضرباً من ضروب اللصوصية ، وان شابهها . ولكنه بحكم عوامل حياة البداوة الاقتصادية والاجتماعية وضعٌ من أوضاعها وركن من اركانها . ففي الصحراء ، حيث القتال غريزة ملازمة لطبيعة الفرد ، يُحسب الغزو خليقاً بالرجال وسجية من سجايا الرجولة . ولم يقتصر ذلك على فريق دون آخر بل شمل العرب جميعاً من نصارى وغيرهم .

والغزو عند العرب ناحية من نواحي اللهو القومي . والعُرف الشائع يقضي بأن لا تُسفك الدماء فيه الا عند الضرورة الماسة . وقد يعمل الغزو على انقاص عدد من النفوس التي يجب أن تُعال ، غير انه لا يزيد في مجموع ما في البلاد من الاقوات . وكثيراً ما

تلجأ بعض القبائل الضعيفة أو الاقوام النازلة في الحدود الى ابتياع حماية القبائل القوية بدفع اتاوة معيّنة ، فتعيش في ظلها آمنة .

على ان الضيافة تلطّف من مساوىء الغزو . فمها تمادى البدوي في السلب والنهب والعدوان فانه يظل كريماً جواداً أميناً على الجوار مضيافاً . ولطالما تغنى شعراء الجاهلية بمحاسن الضيافة والقِرى وحسبوا هذه الظاهرة البدوية أفضل سجايا الانسان ، لا يشاركها في ذلك سوى الحماسة والمروءة . فحاجة البدوي الماسة الى الماء والمرعى (وهما أهم دواعي الشقاق بين سكان البادية) تستفزه الى القتال في سبيل الاستيلاء عليها ، فتضطرم نار الوغى بين القبائل . غير ان عجز الانسان تجاه قوى الطبيعة القاسية التي تستولي على الصحراء يولد في نفسه الشعور بضرورة الضيافة فيحسبها واجباً مقدساً . واذا أبى البدوي أن يحسن ضيافة الغريب أو ردّه خائباً أو ألحق به أذى بعد ان اضافه فانه بذلك لا يسيء الى العرف الشائع والى الشرف فحسب ، بل يسيء الى الله نفسه .

ويقوم نظام المجتمع البدوي على العشيرة . والعشيرة هي مجموعة أفراد مخيم واحد قوامه بيوتٌ من الشعر تقطن كل عائلة واحداً منها . وتكوّن العشائر المتقاربة النسب قبيلة واحدة . ويعتبر أفراد العشيرة أنفسهم من دم واحد ، ويخضعون لسلطة الشيخ وحده — وهو أكبر رجال العشيرة سناً . وقرابة الدم هذه أكثرها حقيقي وبعضهـــا اصطناعي قوامه ان يمتص

الدخيل على القبيلة شيئاً من دم أحد افرادها . ولا شك في ان هذه العصبية هي العامل الاكبر في توحيد شعور الافراد في العشيرة .

ولا يملك الفرد الا بيت الشعر ومحتوياته . غير ان الماء والمرعى والارض التي تصلح للفلاحة هي ملك مشاع للقبيلة بأجمعها .

واذا قتل البدوي آخرَ من عشيرته لا ينبري للدفاع عنه أحد. فإذا هرب أصبح طريداً خارجاً عن نطاق العشيرة . أما اذا قتل أحداً من عشيرة ثانية تحكّم الثأر بين العشيرتين حتى تستوفي الواحدة ثأرها من الأخرى بقتل أحد أفرادها .

فالدم في عُرف الصحراء لا يعوّض عنه الا بالدم، ولا جزاء لمهرقه غير القتل . والتبعة الأولى تقع على عاتق الاقربين . وقد يتطاول الثأر حتى يستغرق اربعين سنة . وجديرٌ بالذكر هنا ان الثأر كان سبباً هاماً في الحروب القَبَلية في الجاهليـــة المعروفة بأيام العرب ، وهو يضاف الى العوامل الاقتصادية في ذلك . وأكبر مصيبة يمكن أن تلمّ بالبدوي انما هي خسرانه عضويته القبلية وخروجه عن حظيرتها . اذ يصبح شريداً طريداً لا حامي له ولا مجير .

فالعصبية القبلية تتطلب ولاءً مطلقــاً لأفراد القبيلة كلها . وهذا الولاء هو روح الفردية في البدوي مكبّرةً بحيث تشمل سائر أفراد العشيرة . فيشعر الفرد ان قبيلته حرة مطلقة وانها وحدة لا تتجزأ . ولا يرى مانعاً يردّها عن الاغارة على غيرها

من القبائل وسلبها وقتل افرادها . وقد استغلّ الاسلامُ هذا النظام القبلي في الفتوحات المتعددة . فقسم الجيش الى وحدات على أساس قَبَلي . واستوطنت بعض القبائل البلدان المغلوبة على أمرها على هذا الأساس نفسه ، وأطلق المسلمون على حروبهم اسم « غزوات » . اما الداخلون في الدّين من الشعوب المقهورة فسُمّوا « الموالي » . والمولى في الاصل هو من يلتحق باحدى القبائل عن رغبة في نفسه فيصبح أحد أفرادها . وظلت هذه المميزات غير المستحبة — أي مميزات الفرديـــة المتناهية والعصبية القبلية — ترافق الخُلق العربي حتّى بعد الاسلام . فكانت من أهم عوامل الضعف والانحلال التي طرأت على الدول الاسلامية المختلفة .

ويمثل الشيخ قبيلتَه في جميع شؤونها ، ويثبت زعامته باصالة رأيه في المجلس القبلي ، وبكرمه وشجاعته . أما في الشؤون القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة فليس له سلطة مطلقة ، بل عليه ان ينظر فيها مع زعماء القبيلة الآخرين في المجلس القبلي ، ويبقى الشيخ شيخاً مـا دام حائزاً على رضى القبيلة ، وإلا فقد مركزه .

إنّ العربي إجمالاً والبدوي خاصةً ديموقراطي بالطبع والنزعة . فهو يحسب نفسه مساوياً لشيخ القبيلة ، وهو ينظر إلى الامور بعين المساواة . وكان حتّى قيام ابن سعود قلما يستعمل كلمة « ملك » إلا إذا أشار الى الملوك الاجانب . غير انه من ناحية ثانية ارستقراطي يعدّ نفسه مثالاً أعلى

للخليقة ويعدّ الامة العربية أشرفَ خلق الله . وعنده ان الرجل المتمدّن دونه قيمةً وسعادة . وهو يفاخر بصفاء دمه وبشعره وفصاحته وسيفه وحصانه . وغاية فخره أجداده . ولطالما تعشّق إرجاع نَسبه الى آدم .

أما المرأة البدوية ، سواء أكانت اسلامية أم جاهلية ، فقد كان لها نصيب وافر من الحرية تحسدها عليه اختها المتحضرة . وإذا كانت قد عاشت أحياناً في بيت تعددت فيه الزوجات وكان الرجل فيه سيداً فانها حرة في اختيار زوجها وفي فراقه إن أساءَ اليها . وإن لها فوق ذلك حق التملك الشخصي .

ومن مزايا البدو مقدرتهم على اقتباس ثقافة الآخرين وتمثيلها فتلك القوى العقلية التي كانت كامنةً طيلةَ أجيال تنبّهت وأصبحت قوى متحركة فعالة عندما لاقت جواً ملائماً. وقد تسنى لها ذلك باحتكاكها بابناء الهلال الخصيب . فظهر حورابي في بابل ، وموسى في سيناء ، وزنوبيا في تدمر ، وفيلبس العربي في رومة ، وهرون الرشيد في بغداد . ونشأت المعالم ، كتدمر والبتراء ، التي لا تزال تدهش العالم بأجمعه . ومما لا شك فيه ان ازدهار الدولة الاسلامية في أوائل عهدها يرجع ببعض أسبابه الى تلك القوى الكامنة في البدو الذين هم ، كما قال عمر بن الخطاب ، « أصل العرب ومادة الاسلام » .

قبل فجر الاسلام

مع ان البحار تكتنف جزيرة العرب من جهاتها الثلاث في حين تكتنفها الرمال من الرابعة فانها لم تكن قطّ منقطعة عن العالم الخارجي أو بعيدة عن اهتمامه . وأول اشارة محقّقة عن العرب وردت في رقيم لشلمناسر الاشوري الذي قاد سنة ٨٥٤ ق. م. حملة على ملك دمشق وحلفائه . وكان بين هؤلاء الحلفاء شيخ عربيّ . ومما يدل على روح ذلك العصر وحوادثه قول شلمناسر « قرقر مدينة ملكه دمرتها وهدمتها وأحرقتها بالنار ١٢٠٠ عربة ١٢٠٠ فارس ٢٠,٠٠٠ جندي من هَدَدَ عَزَرَ أرام (دمشق) ١٠٠٠ ـــ ٠٠٠٠ جمل لجُنْدُب العربي » . وجدير بالاعتبار هنا ان اول ذكر عربي في التاريخ المدوّن جاء مصحوباً بذكر الجمل . وكان موقع قرقر بجوار حماة في شمالي سوريا .

لقد اطلقنا لفظة «عربي» فيما سبق على جميع سكان الجزيرة

أما الآن فيجب أن نميز بين عرب الشمال بما فيهم عرب نجد ، وبين عرب الجنوب . فكما ان الجزيرة منقسمة الى قسمين جغرافيين تتوسط الصحراء بينهما ، كذلك سكانها ينقسمون الى شماليين وجنوبيين . وينتسب عرب الشمال لجنس البحر المتوسط . أما عرب الجنوب فينتسبون للجنس «الالبي» المسمى أيضاً الأرمني أو الحثي أو العبري . ومن مميزاتــه الفك العريض ، والأنف الأقنى ، والخد المنبسط ، والشعر الكثيف. وقــد سبق عربُ الجنوب عربَ الشمال في إنشاء حضارة خاصة ، إذ لم يظهر عرب الشمال على المسرح العالمي حتى بزوغ الاسلام في العصور الوسطى . ولا بدّ من هذا التمييز بين عرب الشمال وعرب الجنوب . فالاختلاف بينهما لم يزَل على الرغم من محاولة الاسلام توحيدَ الأمة العربية . وقد كان لهذا الاختلاف شأن كبير في إضعاف معنويات الدولة العربية.

وقد تأثرت الجزيرة بمصر وبابل مَهْدَي الحضارة الاولين لاعتراضها بينهما ، فلاصقت افريقيا عند شبه جزيرة سينا — موقع الطور المشهور — في الشمال . وانحدرت طريق من هنالك الى الجزيرة . أما الطريق الرئيسية فحاذت النيلَ ، ومن ثمّ انقطعت عند طيبة وانتهت الى البحر الاحمر . وفي أيام السلالة الفرعونية الثانية عشرة (حوالى ٢٠٠٠ ق. م.) وصلت قناةٌ اصطناعية فرعَ النيـــل الشرقي برأس البحر الأحمر . ومن ثم عفّى عليها الزمن حتى أعاد البطالسةُ بناءها ، واندثرت بعد زمن فجدّدها الخلفاء العرب . ودام

استعمالها حتى اكتشاف الطريق البحرية للهند حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ . أما في الجنوب فيفصل الجزيرة عن افريقيا مضيق باب المندب ، وعرضه خمسة عشر ميلاً .

ولم يكن العرب قبل الاسلام أهلَ حرب وشدّة بل أهلَ تجارة وعمران . فحضارتهم البحرية في الجنوب كانت حلقة الوصل بين الهند وافريقيا . وفي الشمال ازدهرت لهم مدينتان عظيمتان كانتا تقومان على طريق القوافل وهما سَلْع (البتراء) وتَدْمر اللتان دُمّرتا فيما بعد ، ولا تزال أنقاضهما الفخمة تجتذب السياح من أقطار الأرض . وكانت سلع (البتراء) التي بلغت أوج عزها وثروتها تحت رعاية الرومان مدينةً منحوتة في الصخر الملوّن الأصم . أما تدمر وموقعها في الصحراء السورية بين امبراطوريّي الرومان والبارثيين الفرس المتنافستين فقد خلّفت وراءها قصةً مدهشة عن اميرتها زنوبيا ذات الجمال والطموح التي اتخذت لنفسها لقب ملكة الشرق ، ووسعت ملكها على حساب الامبراطورية الرومانية ، فضم مصر وقسماً كبيراً من آسيا الصغرى . ولما تغلب الامبرطور اورليان على قوادها في معركة قرب حمص سنة ٢٧٣ م . غادرت تدمر وأمّت الصحراء على هجين هاربةً . غير انها أُسرت وسيقت أمام عربةِ قاهرها عند دخوله رومة ظافراً ، مُثقلةً بسلاسلَ ذهبيةٍ حسب عادات ذلك الزمن .

ومن الحوادث الأخرى ذات الشأن في تاريخ الجزيرة الباكر نزولُ القبائل العبرانية طوالَ أربعين سنة في سيناء والنفود في

طريقهم من مصر الى فلسطين ، حوالى سنة ١٢٢٥ ق. م. ففي مديان — وهي القسم الجنوبي من سيناء والاراضي الواقعة شرقية — عاهد الله بني اسرائيل . وهناك تزوج زعيم القبائل موسى من امرأه عربية كانت ابنة كاهن مدياني (خروج ٢ : ١ و ١٨ : ١٠ — ١٢) . وقد كان هذا الزواج من أهم حوادث التاريخ إذ كانت زوجُ موسى تعبد إلهاً يدعى ياهُوَ ، وهو الذي صار يعرف بيَهْوَه فيما بعد . وكان ياهو إلهاً للصحراء ساذجاً وصارماً في الوقت نفسه . فمسكنه خيْمةٌ ، وفرائضه بسيطة لا تتعدى التَقْدِمات الصحراوية والذبائح المحرقة . ولقّنت امرأه موسى زوجها هذا الطقس الديني . فعقب ذلك ما عقبه من النتائج الدينية العالمية الهامة .

وتكثر الأدلة في العهد القديم على ان اصل العبرانيين من الصحراء . فيُظنّ ان « الملوك » المذكورين في إرمياء النبي كانوا شيوخاً في شمال الجزيرة أو الصحراء السورية . وشوليث التي خلّد جمالها نشيد الاناشيد المنسوب لسليمان كانت على الارجح عربية من قبيلة قيدار . وأيوب الذي ابتدع أرقى شعرٍ في العالم السامي القديم لم يكن عبرانياً بل عربياً . ومن الممكن ان « المجوس من المشرق » الذين تبعوا النجم لاورشليم لم يكونوا مجوساً من فارس على ما هو متعارف بل بدواً من صحراء شمالي الجزيرة . ويمكننا متابعة هذه الصلات في العهد القديم إلى حدّ بعيد ، إذْ كان العبرانيون جيران العرب ومن أقرب الأقوام اليهم جنساً .

بيد ان ما يهمنا الآن فوق كل شيء هو ظهور الاسلام ، دين الاستسلام لمشيئة الله وارادته ، ففي أوائل القرن السابع للمسيح اضمحلت الحياة القومية التي كان قد قام بها عرب الجنوب وسادت الفوضى الوطنية . وعبَد البدو القمر قبل الشمس كما يُنتظر من قوم رعاة يقطنون بلاداً حارة يستأنسون ببرودة الليل لرعاية قطعانهم ، في حين يستنكرون حرارة الشمس . والشمس لا تدخل في صفوف آلهتهم إلا بعد دخولهم في طور الزراعة وادراكهم فاعلية الشمس فيها . وأخيراً بلغت عبادة الاصنام في طول الجزيرة وعرضها درجةً أمست معها لا تفي بحاجات القوم الروحية وكانت قد ظهرت آراء دينية توحيدية غامضة وتصلبت في شكل طقوس دينية . وأخذت بعض المؤثرات المسيحية تفعل فعلها . ولكن الفكرة المسيحية لم تستهوِ خيال العرب قط . فتهيأت الأسباب ودنت الساعة لظهور زعيم ديني وقومي عظيم .

ويسمّي المسلمون العهد السابق لظهور النبي بالجاهلية . غير ان هذه التسمية لا تنطبق تماماً على الواقع إذا أخذنا بعين الاعتبار حضارة جنوب الجزيرة . على ان عرب الشمال لم يستنبطوا طريقة للكتابة حتى قبيل أيام النبي . فالجاهلية إذاً هي العصر الذي لم يكن فيه نبي أو كتاب منزل .

والعرب يفوقون شعوب الأرض بأجمعهم باستحسانهم التعبيرَ اللفظي والكتابي واعجابهم به وباثارة الكَلِم لنفوسهم . وقد لا تكون هناك لغةٌ تضاهي العربية في تأثيرها في نفوس متكلميها .

ففي مجالس بغداد ودمشق والقاهرة اليوم يحسّ السامعون بانفعالات داخلية شديدة عندما يصغون إلى قصيدة او خطبة بالعربية الفصحى وان لم يعقلوا الكثير منها. فالوزن والقافية والموسيقى تولّد في النفس شعوراً وتسحرها بما يسمونه « السحر الحلال » .

والعرب كسائر الساميين لم يستنبطوا فناً جميلاً خاصاً بهم ، بل أطلقوا لطبيعتهم الفنية العنان في مجرى واحد ، هو فن الكلام . فاذا مجّد اليوناني تماثيله وبنيانه مجّد العربي قصيدته والعبراني مزموره ، ووجدا فيهما طريقة أسمى للتعبير النفسي . وفي أمثال العرب « جمال المرء في فصاحة لسانه » . وأثر عنهم أنهم قالوا : « اشتهر اليونانيون بالحكمة ، وأهل الصين بالصناعة والاعراب ببلاغة المنطق » . وقد عدّ عرب الجاهلية الفصاحةَ والرماية والفروسية مزايا الرجل الكامل الثلاث . والعربية بفضل تركيبها يَحسُن فيها الايجاز ويكثر الاقتصاد على ذهن السامع . فاستغل الاسلام هذه الميزة اللغوية كما استغلّ ميول اهله النفسية فجاء القرآن معجزة في اسلوبه وتركيبه . ويعتقد المسلمون ان « الاعجاز » هو اسطع برهان على صحة دينهم . وإذاً فقد كان فوز الاسلام فوزَ لغة الى حد ما ، بل قل هو فوز كتاب .

ولم يتفوّق عرب الشمال في الجاهلية إلا في الشعر . وميلهم اليه كان ميزتهم الثقافية الوحيدة . وقد لعب شاعرهم أدواراً عديدة هامة في حياتهم الاجتماعية ، فإذا اشتبك قومه في معركة كان لسانه فعّالاً كشجاعتهم . أما في السلم فقد تدعو خطبه النارية

الى الاضطراب والانشقاق . وقد تثير قصيدته القبيلة كما يثير خطابُ المهيِّج الناسَ في الحملات السياسية والانتخابية في عالمنا اليوم . ولما كان الشاعر صحافيّ يومه فقد أغدق عليه الامراء هداياهم الثمينة كسباً لعطفه . فشعره الذي حفظه الناس وتناقلته الألسن كان اداة فعّالة للدعاوة ، وخير مكوّن للرأي العام ، وأفضل ممثل له . وكان اغداق العطايا على الشاعر تحاشياً لهجوه يعرف عندهم بـ « قطع اللسان » .

ولم يكن الشاعر عرّافاً وهادياً وخطيباً وممثلاً للقبيلة فحسب ، بل كان عالمها ومؤرخها أيضاً . وكان الشعر مقياس الذكاء عند البدو على حدّ قول أحدهم : « مَنْ يفاخرُني مَنْ ينافرُني ببني عامر بن صَعْصَعَة فرساناً وشعراء وعَدَداً وفَعالاً » . والقبيلة كانت تتفوّق على اختها بقوّتها الحربية وذكاء أفرادها وعددهم . وللشعر العربي فوق طرافته ورشاقته في الجاهلية أهمية تاريخية أيضاً اذ يحتوي على كثير من المعلومات لدرس العصر الذي نظم فيه . ويكاد يكون المرجع الوحيد لتعرّف الحياة الجاهلية في جميع الوانها وأطوارها . حقاً ان « الشعر ديوان العرب » .

ولم يكن للدين في نفس البدوي قبل فجر الاسلام ، كما يظهر من شعره ، غير أثر ضئيل . واذا كان قد مارس بعض الطقوس الدينية فقد فعل ذلك لا عن رغبة نفسية بل احتراماً للعرف والعادة . فأنت لا تكاد تجد مثالاً واحداً لتعبّد صادق أو خشوع أمام إلـه وثني . واعتقد البدو ان الصحراء ملأى بالجن .

ولم تختلف الجن عن الآلهة في طبيعتها بل اختلفت عنهم في علاقتها بالانسان. فكانت علاقة الآلهة في الجملة ودية ، أما علاقة الجن فعادية. وما الجن عند التحقيق الا تشخيص لعوادي الصحراء القاسية وحيواناتها الضارية. وقد بقيت الجن حتى بعد الاسلام ، وازدادت عدداً اذ انزلت الآلهة الوثنية منزلة الجن.

وفي مدينة مكة من أعمال الحجاز الذي يقف حاجزاً بين هضاب نجد وبين الساحل المنخفض كان واحدٌ من الآلهة المتعددة يدعى « الله ». وهو إلـه قديم اعتبره أهل مكة الخالق الرزاق والتجأوا اليه في أحرج مآزقهم. حتى اذا هتف رجل منهم باسمه في كلام أصبح بعدُ أمجد قول في العربية « لا إله الا الله » دوّى صدى هُتافه في أنحاء المعمور. ودفع بأهل الصحراء الى أطراف العالم الأوسع فاتحين غالبين.

محمد رسول الله

يرجّح المؤرخون ان محمداً وُلد عام ٥٧١ م. وهو المعروف بعام الفيل . وكان قد توفي والده وهو جنين ، ليفقد بعدُ والدته قبل أن يتجاوز السادسة من عمره . ولقد دعته أمه باسم قد يظل مجهولاً . أما الاسم الذي عُرف به في القرآن فهو محمد . وأشير اليه مرة واحدة فقط باسم أحمد . وقد أطلق عليه قومه لقب « الامين » فلزمه . وكثر تداول هذا الاسم « محمد » الى أن أصبح عدد الذكور الذين يعرفون به اليوم يفوق عدد كل من تسمّى باسم آخر . وينتسب محمد الى قبيلة قريش ، وكانت من أسمى قبائل الجزيرة مركزاً ، تتولى سدانة الكعبة [1] في مكة . وكانت الكعبة تضمّ بين جدرانها أصناماً كثيرة ، وحولها مناصب

---

١ سدانة الكعبة : خدمتها .

عديدة ، وهي مُتَّجَهُ أنظار عرب الحجاز في عباداتهم ، يأتيها الحجاج ليؤدوا فيها فرائضهم الدينية .

وعلى الرغم من ان محمداً كان من اولئك الانبياء الذين ظهروا في العصور المؤرخة فاننا لا نعرف الا اليسير عن حداثته. وليس لدينا كثير من المعلومات الموثوق بها عن كده بسبيل كسب عيشه وجهوده لتحسين شؤونه ، والآلام التي عاناها في اعداد نفسه للمهمة التي كانت تنتظره .

ولم يبدأ الفصل الواضح عن حياة محمد حتى بلغ الخامسة والعشرين ، حين تزوج من خديجة وهي في الاربعين . وكانت خديجة ارملةً قرشيةً تاجرةً ذات شرف ومال تدير تجارتها مستقلةً وتستأجر الرجال . وكان ممن استأجرتهم الشابُ محمدٌ لما توسمته فيه من النجابة . أما محمد فكان يحترمها ويثق بها ولم يفكر في الزواج من امرأة ثانية ما دامت خديجة ذاتُ الشخصية البارزة والصفات الممتازة في قيد الحياة .

وكفى الله محمداً في زواج خديجة الحاجةَ الى متاع الدنيا فاتسع له المجال لتغذية ميوله ، فأخذ يخلو بنفسه في غار صغير خارج مكة ، يمعن في التأمل والعبادة ويتلمّس أثناء ذلك الحقّ . وفيما هو نائم يوماً في الغار سمع صوتاً يأمره قائلاً : « إقرأ باسْمِ رَبّكَ الذي خَلَقَ » الخ . (سورة العَلَق) فكان هذا أولَ عهده بالوحي . ومكث برهة اصابته فيها رِعدة الخوف ، فأسرع الى بيته وهو في اشدّ حالات الاضطراب النفسي ، وسأل خديجة أن تزملّه . فزملته وهو يرتعش . فجاءه الوحي ثانية

« يَـأيُّهَا المُدَّثِّرْ . قُمْ فَأَنْذِرْ » الخ (سورة المدثر) . واختلفت عليه الاصوات ، واشكلت بعد ذلك ، وجاءت أحياناً وكأنها صلصلة الاجراس ، غير انها توحدت أخيراً ووضحت ، واذا به يتحقق ان هذا الصوت هو صوت الملاك جبريل .

وتُشبه رسالة النبي العربي محمد رسالات الانبياء العبرانيين في العهد القديم . وتتلخّص دعوته في ان الله واحد ، لا إلـه الا هو ، وانه مبدع الكون وخالق الوجود ، وانه على كل شيء قدير . وان هنالك يوم دين ، وان الناس يُجزَون بأعمالهم فمن عمل صالحاً فله جنات النعيم ، ومن عمل طالحاً فله نار الجحيم .

أيقن محمد باختيار الله اياه رسولاً ليؤدي رسالة الحق ، فوثق من نفسه ، وأخذ يجول بين قومه مبشراً هادياً يدعو الى الحق وينهى عن الباطل . وأخذ القوم يستخفّون به ويستهزئون برسالته . غير ان ذلك لم يكن ليفتّ في عضده ، بل استمر يعظ الناس محذراً منذراً ، ويجدّ في تحقيق المهمة التي اختاره الله لها . فكان يصف ويشرح للناس ملاذّ الجنة ونعيمها وأهوال الجحيم ونارها بلغة صريحة لا غموض فيها . وكثيراً ما هدد سامعيه بيوم الدين المخيف ، وبرغم هذا فلم يؤمن برسالته الا نفر قليل . وكان أول من اسلم زوجته خديجة ثم تلاها ابن عمه عليّ ، ونسيبه ابو بكر . أما الفئة الارستقراطية ذات النفوذ في قبيلة قريش فظلّت منكرة تقاومه بصلابة شديدة وتضيّق عليه بلا هوادة . ولما أخذ عدد المؤمنين يزداد تدريجياً ، وجلّهم من العبيد والمستضعفين ، خاف القرشيون من اتساع نفوذه ومن خطر

رسالته على مصالحهم التجارية والاجتماعية. وثبت لهم ان السخرية التي حاربوه بها لم تكن فعّالة كما أمّلوا فلجأوا الى اضطهاده والتنكيل به وبأتباعه. فكان من جراء ذلك أن نزحت احدى عشرة اسرة مكيّة مؤمنة الى بلاد الحبشة. وتبعتها في عام ٦١٥ ثمان وثلاثون اسرة أخرى. ووجد هؤلاء المسلمون في جوار النجاشي النصراني أمناً وهناءً. وأبى هذا تسليمهم الى ظالميهم. وما كانت خسارة محمد لهؤلاء الاتباع في تلك الايام المظلمة وخلال هذه الفترة من الاضطهاد الشديد لتُضعف من عزيمته. فاستمر يبثّ دعوته ويدعو الناس الى عبادة إلـه واحد هو إلـه الحق. وظلّ الوحي بجيئه والآيات تنزل عليه. وودّ لو ان لقومه كتاباً كالذي في أيدي اليهود والنصارى، ذلك الكتاب الذي أثار في نفسه الاعجاب.

ولم يمضِ زمن حتى اهتدى عمر بن الخطاب، فوجد الاسلامُ فيه منَعَةَ. ولقد قُيّض لعمر ان يلعب دوراً هاماً في تأسيس الدولة الاسلامية الفتيّة كما سنرى بعدُ. وفي هذه الحقبة كان الاسراء والمعراج. وتفصيل ذلك انه أُسري بمحمد ليلاً من مكة الى بيت المقدس، وهو البلد الذي يقدّسه اليهود والنصارى. ومن هناك استأنف محمد رحلته الى السماء السابعة على دابته العجيبة «البُراق». بذلك أصبح بيت المقدس الحرمَ الثالث بعد مكة والمدينة في نظر العالم الاسلامي. وقد اتخذت قصة الاسراء ألواناً زاهية رائعة على مرور الأجيال. ولا تزال حلَقات التصوّف في ايران وتركيا تقيم لحديث الاسراء وزناً كبيراً. ويعتقد عالم

اسباني ان الاسراء والمعراج مصدر «الكوميدية الالهية» التي وضعها الشاعر الايطالي الخالد دانتي . ومما يدل على تأثر المسلمين اليوم بذكرى الاسراء ما حدث في آب من عام ١٩٢٩ في فلسطين من فتن بشأن حائط المبكى ، عند اليهود ، في بيت المقدس ، وهو الذي يعدّه المسلمون الموضع الذي ربط عنده محمدٌ البراقَ في طريقه الى السماء . وبعد عامين من الاسراء جاءَ محمداً من يَثْرِبَ ، مسقط رأس أمه ، وفدٌ مؤلف من خمسةٍ وسبعين رجلاً ، فبايعوهُ ودعَوْهُ الى اتخاذ يثربَ مسكناً . واذ كان عرب يثرب على اتصال بمواطنيهم اليهود الذين كانوا يترقبون ظهور المسيح فقد انتَهَوْا الى ان يكونوا اكثر استعداداً لاستماع صاحب الرسالة من أهل مكة . فزاد هذا في خوف قريش وامعانهم في اضطهاد المسلمين . فأوعز محمد الى مئتين من اتباعه ان ينسلّوا متفرقين الى المدينة بعيداً عن رقابة قريش . ولحقهم هو بنفسه فوصلها في ٢٤ ايلول عام ٦٢٢. وهكذا كانت الهجرة التي لم تكن فراراً فجائياً بل خطة مدبرة من قبل عامين . وأصبحت السنة التي هاجر فيها الرسول الى يثرب (ابتداء من ١٦ تموز) بدءَ التقويم الاسلامي القمري كما أقرّه الخليفة عمر بعد سبعةَ عشرَ عاماً من الهجرة . وعُرفت يثربُ من بعد ذلك بالمدينة ، أي مدينة النبي .

هدأت العاصفة الآن بعض الشيء . واطمأن محمد بتآخي المسلمين في المدينة . وبدأ دور جديد من ادوار حياته ، هو الدور السياسي الذي أخذ يُعنى فيه بمصالح المؤمنين من مهاجرين

وأنصار . ولما وثق من استقرار الامور انتهز فرصة الاشهر الحُرُم وخرج على رأس فئة من أتباعه يعترض قافلة قُرَشيّة قادمة من الشام الى مكة . وأحسّ زعيم القافلة بما بُيِّت له ، فطلب نجدةً من مكة . ولكن هذه المعركة التي عُرفت بوقعة بدر أسفرت عن انتصار ثلاثمائة من المسلمين على اكثر من الف من المكيين . وعلى الرغم من ان هذه الموقعة كانت وقعة حربية بسيطة فقد جاءت حجر الزاوية في تأسيس سلطة محمد الزمنية . وفسّر الناس هذا النصر العظيم بأنه معجزة تدل على تأييد الله للايمان الجديد .

وتجلى في المسلمين في معركتهم الأولى روح النظام والشجاعة والازدراء بالموت، وهي صفات لازمتهم في معاركهم الكبرى إبان عصر الفتوحات . ومع ان المكّيين أخذوا بثأرهم في العام الثاني وجرحوا النبي ، فان انتصارهم لم يطل أمره ، اذ استردّ المسلمون حيويتهم وانتقلوا من دور الدفاع الى دور الهجوم . وبدأ دينهم ينتشر ويمتدّ بسرعة ، وقد كان حتى ذلك الوقت عبارة عن دين ضعيف الجانب خاضع للسياسة المحلية . أما الآن فقد أصبح لا دين دولة فحسب بل الدولة بنفسها . ومنذ ذلك الحين صار الاسلام ولا يزال قوة حربية سياسية .

وشهر محمد حرباً على اليهود لما لاتهم اعداءه وتآمرهم عليه . فقتل منهم ستمائة رجل ينتسبون الى أهم القبائل اليهودية ، وأجلى الباقين منهم ، وأسكن المهاجرين في مزارعهم . ولم تكن هذه القبائل هي الوحيدة التي خاصمت الاسلام ، كما لم تكن آخر

القبائل التي خيرها النبي بين الاستسلام والموت .

وفي هذه الحقبة من حياة النبي في المدينة صار تنظيم الاسلام وحدة عربية قومية . فانقطعت صلة الاسلام بالديانتين اليهودية والنصرانية . وخص يوم الجمعة بالصلاة الاسبوعية . وأقيم الأذان مقامَ النواقيس والابواق ، واصطُنع رمضان شهراً للصوم ، وتحوّلت القبلة من بيت المقدس الى مكة . وأجيز الحجّ الى مكة وتقبيلُ الحجر الاسود ، وهما من فروض الدين المرعية في الجاهلية .

وفي عام ٦٢٨ حجّ محمد على رأس الف واربعمائة مؤمن الى مكة ، مسقط رأسه ، وأرغم قريشاً على توقيع معاهدة تستوي فيها حقوق المكيين والمسلمين . فانقطع بذلك النزاع الذي استفحل بينه وبين أهله القرشيين ، ولو الى حين . وفي خلال هذه الفترة من الزمن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وقد كانا في الجاهلية رجلين من قريش مشهورين ، ثم قيض لهما بعدُ ان يرفعا لواء الاسلام عالياً ويصبحا سيفيه الحادّين . وتم احتلال مكة احتلالاً كاملاً في آخر كانون الثاني من عام ٦٣٠ (٨ هـ .) . فدخل محمد الكعبة فحطّم أصنامها التي قيل ان عددها كان يربو على ثلاثمائة وستين ، ونادى قائلاً « جاء الحق وَزَهَقَ البَاطِلُ انّ البَاطِلَ كان زَهُوقاً » . الا ان محمداً حاسَنَ الاهلين وعاملهم معاملة ليّنة ، وعفا عن مقاوميه فأقام الدليل بذلك على سمو نفسه . وقلما تجد في التاريخ مثالاً للعفو عند المقدرة يعادل هذا المثال .

وأقرّ محمد في هذه الحقبة الكعبة وما يحيط بها مسجداً حراماً لا يجوز للمشركين الاقتراب منه . ونزلت الآية التي ذهب المفسرون الى ان الله قد حرّم فيها على غير المسلم الاقتراب من الكعبة . وربما كان القصد من هذه الآية منع المشركين من المجيء الى الكعبة في موسم الحج . على ان قول المفسرين لا يزال مرعياً . ولا يزيد عدد النصارى الاوروبيين الذين وُفّقوا الى زيارة الحرمين الشريفين ونجوا بأرواحهم على الخمسة عشر رجلاً . أولهم لودفيكو ده فارتيا من أهالي بولونية في عام ١٥٠٣ وآخرهم ألدون روتر الانكليزي . أما الذي كتب أمتع وصف لزيارته فكان بلا ريب السر رتشرد برتون ١٨٥٣ .

وعقد محمد في العام التاسع من الهجرة معاهدة حسن جوار مع صاحب العقبة النصراني في الشمال ، ومع قبائل اليهود المقيمة في واحات مَقْنا وأذْرُح والجَرْبى الى الجنوب . ودخلت جماعات اليهود والنصارى في حمى الاسلام ورعيته تدفع الجزية والخراج وصارت هذه الجزية سابقة لها أثرها في تطورات السياسة الاسلامية فيما بعد .

وعُرف هذا العام التاسع من الهجرة (٦٣٠ — ٣١) بعام الوفود اذ فيه جاءت جماعات من كل حدب وصوب تعلن الطاعة والولاء للنبي الأمير من عُمان البعيدة ومن حضرموت واليمن . أما العشائر الكبيرة فاكتفت بارسال الوفود . ولقد اعتنق كثير من هذه القبائل الاسلام عن مصلحة شخصية أكثر مما اعتنقته عن اقتناع روحي . فاكتفى الاسلام منها بالشهادة

السانية مع تأدية الزكاة . وهكذا أخذت الجزيرة العربية التي لم تحن عنقها قط في سابق الايام لزعامة رجل واحد ترضخ لسلطة محمد وتعلن الطاعة له . وشرعت عشائرها تُقبل على الانخراط في نظامه الجديد وتُقرّ شيئاً فشيئاً مُعتَقَداً اسمى وأدباً أرفع .

وفي العام العاشر من الهجرة دخل محمد عاصمته الدينيةَ مكة على رأس قافلة من الحجاج ظافراً . فكانت هذه آخر زيارات النبي لمكة فسميّتِ حجة الوداع . ذلك بأنه بعد ثلاثة أشهر من رجوع النبي الى المدينة مرض وشكا صداعاً في الرأس شديداً تُوفي على أثره في الثامن من حزيران عام ٦٣٢ .

وفي العهد المدني نزلت سور القرآن الطويلة ، وكان فيها فضلاً عن الشرائع الدينية وفروض الصوم والصلاة قوانينُ اجتماعية سياسية تبحث مشاكل الزواج والطلاق ومعاملة العبيد واسرى الحرب، والاعداء . ولقد أوصى القرآن خيراً بالعبد واليتيم والمسكين والبائس والمظلوم . أو لم يجدِ اللهُ الرسولَ يتيماً مُعْدِماً فـآواه ؟

وعاش محمد حتى في أيام عزّه ومجده حياة بسيطة عادية لا تكلّف فيها ولا تظاهر . كان طوالَ حياته شديد الزهد في المادة ، فسكن بيتاً من الطوب حقيراً لا يختلف عن البيوت القديمة التي تشاهدها اليوم في الجزيرة وسورية ، قِوامه بضع غرف وليس له الا مدخل واحد من الصحن الذي تحيط به الغرف . وكثيراً ما شاهده الناس يرفو ثيابه البالية ويرقعها بنفسه . وكان

يشاطر الناس حياتهم العامة ولا يردّ أحداً عن مجلسه صغيراً كان أو كبيراً . ويقول أحد المستشرقين الانكليز ان اعمال محمد اليومية صغيرة كانت أو كبيرة تركت أبعد الاثر في النفوس حتى أصبحت قدوة يقتدي بها الملايين الى يومنا الحاضر ، ولم يقم في الجنس البشري فردٌ عدّهُ قومه نموذج الانسان الكامل فقلدوا أعماله بالدقة التي قلّد بها أتباع محمد محمداً .

ولم يترك محمد الا ثروة زهيدة عادت الى بيت المال . ولقد تزوّج من نحو اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوجها بدافع الحبّ ومنهن من كان زواجه منها لغرض سياسي أو اجتماعي . وكان ميلهُ الى عائشة بنت ابي بكر أقوى من ميله الى باقي أزواجه . وقد ولدت له خديجة عدة بنين وبنات فات البنون ولم يبقَ من البنات الا فاطمة زوج عليّ . أما موتُ طفلهِ ابراهيمَ من مارية القبطية فقد ترك قرحةً اليمة في نفسه .

ونشأت من الجماعة الدينية في المدينة من مهاجرين وأنصار أمة الاسلام وبقي الدين أسّ وحدتها . وكانت هذه الجماعة حجر الزاوية في بناء دولة الاسلام الواسعة . وفي الواقع كانت هذه أولَ محاولة في تاريخ الجزيرة لتكوين أمّة قائمة على رابطة الدين والنظم الاجتماعية لا على أساس العصبية الدموية ، كما كانت الحال في الماضي . وتوطّدت العقيدة بأن الله منبع سلطة الدولة وان محمداً خليفتهُ على هذه الارض وحاكمها الأسمى . وما دام الرسول في قيد الحياة فهو المنفّذ لأوامر الله والمرجع الأخير في شؤون الامة المدنية . وعلى أساس هذه

العقيدة تولى محمد زمام السلطة الزمنية بالاضافة الى سلطته الروحية ، وشرع يمارس الحكم كما يمارسه رؤساء الدول في العالم . وعلى هذا المبدأ أصبح المسلمون اخواناً في الدين والعقيدة بقطع النظر عن نزعتهم القبليّة ، وكان اخلاصهم قبل هذا لزعماء قبائلهم . وقد أكدت ذلك كله كلماتُ النبي في خطبته الممتازة في حجة الوداع : « ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمُنّ أنّ كل مسلم أخٌ للمسلم ، وان المسلمين اخوةٌ فلا يحلّ لامرىء من أخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه . فلا تظلمُنّ أنفسكم » .

وهكذا قضى الاسلام دفعةً واحدة على رابطة العصبية القوية في الجزيرة واستعاض عنها برابطة جديدة هي رابطة الايمان . فقامت الجماعة الاسلامية ولا كهنوتَ فيها أو زعامة دينية ذات رُتَب وابرشيات أو أديرة . وأصبح المسجد فضلاً عن كونه بيت العبادة ملتقى المؤمنين ودار الندوة تُلقى فيه الخطب وتجري البحوث والمناقشات وساحة للتدريب العسكري . وصار الامام يقود المؤمنين في ساحات القتال كما يؤمهم في الصلاة . وفُرض على المسلمين التآزر والاتحاد تجاه العالم بأسره . أما العرب الذين لم يقبلوا الايمان الجديد فظلوا خارج الجامعة الروحية . ونسخ الاسلام ما قَبْلَهُ . وفي آية واحدة حرّم القرآن الخمر والميسر وكانا ، بعد النساء ، أعزّ شيئين على قلب العربي . وكذلك شَجَب الاسلام الغناء الذي كانت ترنو اليه نفوس أبناء الجزيرة العربية .

ومن المدينة امتدّ الحكم الاسلامي الى كافة أطراف الجزيرة ليشمل فيما بعد معظم أقطار آسيا الغربية وافريقيا الشمالية. فغدت جماعة المسلمين في المدينة مثالاً مصغراً لما وصلت اليه الجماعة الاسلامية بعدُ. ولقد تسنى لمحمد في سحابة عمر غير طويل أن يهيء الوسائل الفعالة في تكوين أمة متراصّة من قبائل مختلفة متناحرة في بلاد لم تكن لذلك العهد الا تعبيراً جغرافياً، وأن يقيم دولة فاقت بانتشارها السريع الى أبعد أقطار العالم كلتا الديانتين اليهودية والنصرانية. وفضلاً عن ذلك فقد وضع محمدٌ حجرَ الأساس لامبراطورية ضمّت بين أطرافها فُضلى مقاطعات العالم المتمدّن يومئذٍ. واليوم يدين جزء كبير من العالم بالاسلام وينادي بتعاليم هذا الرجل الأميّ الذي كان الواسطة في اخراج كتاب لا يزال سُبْعُ سكان المعمورة يعتبره القولَ الفصل في العلم والحكمة والدين.

القرآن والإيمان

ليس غريباً ان ترى في أيامنا هذه مسلماً يلتقط ورقة من الأرض فيودعها بتحفظ مكاناً في جدار خشيةَ ان يكون في سطورها ذكرٌ لله أو آية من القرآن فتدوسها السابلة . والمسلم يعتبر القرآن كتاب الله فيوليه احتراماً عميقاً ويقدّسه . انه كلمة الله التي أملاها جبريل على محمد « لا يَمَسّهُ الا المُطَهَّرُونَ » (سورة الواقعة) .

ومع ان في العالم اليوم من النصارى ما يقرب من ضعفَي عدد المسلمين فيمكن القول ان القرآن هو الكتاب الذي يقرأه الناس أكثر ما يقرأون ، لأنه ليس كتاب دين فقط بل هو كتاب درس واطلاع يعتمد عليه كل مسلم ومسلمة في تعلّم اللغة العربية . وليس للقرآن ترجمةٌ رسمية الى لغة أجنبية الا الترجمة التركية . ولكنه نُقل الى نحو اربعين لغة بدون تفويض . وأول ترجمة

للقرآن الى لغة اجنبية كانت في اللغة اللاتينية ، قام بها في القرن الثاني عشر بطرس كلوني الملقب بالفرابل Venerable . وقد رمى بهذه الترجمة الى دحض العقائد الاسلامية وتكذيب الرسول. أما أول ترجمة انكليزية فقد ظهرت عام ١٦٤٩ ، قام بها اسكندر روس Ross معتمداً على نسخة افرنسية ووسمها بهذا الاسم « قرآن محمد — وهي ترجمة انكليزية وضعت ارضاءً لرغائب من يريد الاطلاع على أباطيل الترك » .

ولستَ تجد في القرآن آيات كثيرة قابلةً للالتباس في القراءة كما هي الحال في لغات التوراة الأصلية . ولقد كان المؤمنون في البداية يحفظون سُوَرَهُ وآياته عن ظهر قلب . حتى اذا خُشي انقراضُ الحفّاظ بسبب الحروب أشير بجمعها . ولقد تمّ جمع المصحف من قطع العُسُب (جمع عسيب وهو جريدة النخل) وألواح اللخاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) ومن صدور الناس. فجيء بهذه القطع وقوبلت بعضها ببعض ثم أثبت النص القرآني الرسمي كاملاً . وكان ذلك في أيام عثمان بعد موت النبي بتسعة عشر عاماً . وما زالت هذه النسخة تعتبر النسخة القانونية فلا يجوز الحذف منها ولا الزيادة فيها . وقد راجت قبلها نسخ أخرى لم تعتبر رسمية فأتلفت .

وقد أحصيت آيات القرآن فكانت ٦٢٣٦ آية وأحصيت كلماته فكانت ٧٧,٩٣٤ ، وأحصيت كذلك حروفه فكانت ٣٢٣,٦٢١ حرفاً . والقرآن قلب الدين الاسلامي والهادي الى الجنة ، وهو فضلاً عن ذلك موجز علمي وصكّ سياسي يضم

بين طياته مجموعة قوانين وشرائع لتدبير شؤون مملكة على هذه الارض .

ومما يلفت النظر أن لمعظم ما يحتويه القرآن من حوادث تاريخية أمثلة توازيها في التوراة . ومن رجال العهد القديم الذين ورد ذكرهم في القرآن : آدم ونوح وابراهيم (ورد ذكرهم سبعين مرة) واسماعيل ولوط ويوسف وموسى (ورد ذكرهم في ٣٤ سورة) وطالوت (شاؤل) وداود سليمان وايليا وايوب ويونس (يونان) . ولقد ورد ذكر قصة الخليقة وسقوط آدم خمس مرات . وورد ذكر قصة الطوفان ثماني مرات ، ومثلها قصة سدوم . والقرآن لايذكر بتأكيد من رجال العهد الجديد سوى زكريا ويحيى (يوحنا المعمدان) وعيسى ومريم . أما الآيات التي وردت فيها عبارات كهذه « والعينُ بالعين » والجمل في « سمِّ الخياط » و « أفمن أسّسَ بُنيانَه على جُرُفٍ هارٍ » و « كل نَفْس ذائقةُ الموت » فالظاهر انها من الامثال السامية القديمة والاقوال المشتركة بين العبرانيين والعرب فهي واردة أيضاً في العهدين القديم والجديد . أما العجائب التي ينسبها القرآن الى عيسى كالقول إنه « يُكلّمُ الناسَ في المهدِ » (آل عمران) وأنه خلقَ « من الطين كهيئة الطير » (آل عمران) فهي من الخوارق التي جاء ذكرها فقط في الاناجيل الابوغرافية (غير المعترف بها) كانجيل الطفولية .

والدين الاسلامي أقرب الى اليهودية القائمة على العهد

القديم منه الى النصرانية والعهد الجديد . ومع ذلك فقربه من النصرانية كان شديداً بحيث حسبه الناس في أول عهده بدعة نصرانية جديدة لا ديناً مستقلاً . ومن هؤلاء دانتي في روايته « الكوميدية الالـهية » .

ومن ينظر في القرآن نجد ان ترتيب سوره جرى على أساس الطول والقِصَر . فالسور المكّية وهي نحو تسعين ترجع الى الجهاد في حياة النبي . وهي تمتاز بأنها قصيرة موجزه جامعة ذات اسلوب ناري ، طافحـــة باحساسات النبوّة. ومحورها الدلالة على وحدانية الله وصفاته وواجبات الانسان الادبية والحساب الاخير . أمـــا السور المدنية التي نزلت على محمد في عهد الظفر فهي أربع وعشرون، وتبلغ نحو ثلث محتويات القرآن . وهي طويلة مفصّلة غنية بمادتها التشريعية. وفيها وردت العقائد الدينية وأحكام الصلاة والصوم والحج والاشهر الحُرُم. وفيها ايضاً شرائع تحريم الخمر ولحم الخنزير والميسر واحكام تنظيم المال والحرب وفروض الزكاة والجهاد وقوانينُ مدنيةٌ وجزائيةتتعلق بالقتل والثأر والسرقةوالربا والزواج والطلاق والزنا والميراث واعتاق العبيد . اما احكام الزواج التي يكثر الاستشهاد بها في الغرب فهي في الواقع تُحدد عدد الزوجات وتقلله عما كان عليه . والنَقَدة الغربيون يحسبون أحكام الطلاق أشدّ الاحكام استنكاراً ، والشرائع الـتي تُعنى بمعاملة العبد واليتيم والغريب أكثرها رفقاً وبراً.ولقد علّم القرآن ان إعتاق العبد نافلةٌ يرضاها الله من الانسان

كفّارةً عن ذنوبه .

والقرآن كتاب حيّ فعال له تأثير بليـــغ في النفوس وخصوصاً اذا تُلي مُرتلاً بلغته الأصلية . وبعض تأثيره في النفس راجع الى ما هو عليه من حسن السبك وعذوبة السجع والبلاغة وموسيقى الالفاظ والاناقة . ومن العسير أو المستحيل أن يستطيع مترجم نقل هــذه المميزات في سلوب انشائي رائع الى لغة اجنبية . وليس القرآن كتاباً ضخماً فطوله لا يزيد في الواقع على اربعة اخماس العهد الجديد باللغة العربية . أما تأثير القرآن الديني في الاسلام وسلطته الجازمة في الشؤون الروحية والادبية فناحية اخرى من نواحي عظمته . والمسلمون الذين يحسبون علم الدين والفقه والعلوم الأخرى وجوهاً متفرقة لموضوع واحد يجدون القرآن وافياً بحاجاتهم من كافة النواحي ، ومن هنا كان عندهم كتاباً مدرسياً يأخذ من مناهله كل طالب للعلم الحر . وما يزال القرآن في الأزهر ، وهو اعظم جامعة اسلامية في العالم ، اساساً لمنهاج الدراسة والتهذيب . وللقرآن فضل كبير على الأدب في صيانة اللغة العربيـــة ، إذ لولاه لأصبحت لهجاتها المتعددة لغات مستقلة كما جرى للغات الرومانسية التي كانت في اول عهدها لهجات من اللغة اللاتينية ، فبينما يلقى العراقي اليوم صعوبة في فهم لغة المراكشي العامية فانه لا يعاني جهداً في ادراك لغة مراكش المكتوبة لأن اللغة العربية المكتوبة سواء أكانت في العراق أم في مراكش وسوريـــة

والجزيرة ومصر أم في غيرها من الأقطار العربية الاخرى هي اللغة نفسها التي لها في القرآن انموذج ينسج عليه الكتاب. ولم يكن في اللغة العربية قبل محمد كتاب نثري على الاطلاق. ومن هنا كان القرآن في السابق، ولا يزال الى يومنا هذا، المثل الأعلى للاسلوب النثري الرشيق. وليس من شك في ان لغته موسيقية وبليغة ، ولكنها غير شعرية . والكتّاب المحافظون يحذون حذوه ويحاولون تقليده ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

ويميز العلماء في اصول الدين الاسلامي بين الايمان والعبادات. أما الايمان فهو الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأول عقائد الايمان واهمها أنه لا إلـه إلا الله، وانه هو المهيمن على كل شيء . والواقع ان نحو تسعين في المئة من اصول الدين الاسلامي تدور حول فكرة «الله» . فهو الالـه الحق والحقيقة السامية، الكائن منذ الأزل والخالق العليم القدير ، الحي القيوم . ولله من الأسماء الحسنى تسعة وتسعون، وله مثل هذا العدد من الصفات. ولعل هذا هو السبب في ان سبحة المسلم تتألف من تسع وتسعين خرزة . وتتغلب صفات القوة والجلال في الله على صفات المحبة . وما الاسلام الا دين الطاعة والاستسلام لارادة الله . وربما كانت كلمة «أسلم» (سورة الصافّات) التي جاءت في قصة ابراهيم لما حاول ان يقدم ابنه قرباناً هي الأصل في تسمية هذا الدين بالاسلام. وأقوى ما في الاسلام ، على ما فيه من بساطة وايمان راسخ بسلطة الله العليا ، هو فكرة التوحيد الجازمة . ولهذا ترى

اتباعه يتمتعون بقناعة واستسلام لا مثيـــل لها بين اتباع الأديان الأخرى . وبسبب هذا يندر الانتحار بينهم .

والعقيدة الثانية في الايمان هي ان محمـــداً رسولُ الله ونبيّهُ ، ونذير قومه ، وخاتمة سلسلة طويلة من الانبياء، ولهذا فهو أعظمهم . وليس محمـــد إلا بشراً ، في علم الالهيات القرآني . والعجيبة الوحيدة التي جاءت على يده كانت إعجاز القرآن . إلا ان التقاليد والاساطير التي راجت بين العامة قلّدت الرسول هالة من النور الالـهي . والدين الاسلامي دين عملي ليس فيه ما يصعب ادراكه ، ويكاد يكون خلواً من التعقيد والالتباس . وليس فيه شيء ممـا يقابل الاسرار الرمزية المقدسة أو المراتب الكهنوتية،أو فروض الرسامة والمسح والتكريس « والخلافة الرسولية » .

والقرآن هو كلمة الله ، وآخر الكتب المنزلة . وهو « غير مخلوق » ، وكل اقتباس منه يُستهلّ بـ « قال الله تعالى» . وكل ما فيـه من تركيب لفظي أو تصويري نسخة طبق الاصل عن امّ الكتاب — أي اللوح الازلي المحفوظ في السماء السابعة . واذا كانت هناك معجزات فالقرآن أعظمها، ولو ان الانس والجن اجتمعوا لما استطاعوا ان يأتوا بمثله.

ويضع الدين الاسلامي جبريـــل في مقدمة الملائكة فهو حامل الوحي ، والروح القُدُس ، والروح الامين .

والخطيئة إما أدبية أو فرضية . والاثم الوحيد الذي لا يغفره الله هو خطيئة الشرك . « إن الله لا يَغفرُ أن يُشرَك

به ويغفرُ ما دونَ ذلك » (سورة النساء) . وأقبح ما كان عقته محمد هو الزعم بان لله شركاء ، وهكذا نزلت السور المكيّة وهي ملأى بتهديد المشركين ووعيدهم بيوم الدين. والراجح ان محمـــداً لم يشمل أهل الكتاب وهم النصارى واليهود في عداد المشركين ، مع ان بعض شارحي الآية الخامسة من سورة البينة يرون غير ذلك .

وأشد أقسام القرآن تأثيراً في النفس تلك التي تُعنى عناية خاصة بموضوع حقيقة الآخرة . ففيها اشارات متتالية الى « يوم الدين » و « يوم البعث » و « اليوم » و « الساعة» و « الحاقّة » . والآخرة التي يصورها القرآن بما فيها من عذاب ولذة جسديين تدل على الاعتقاد بالبعث الجسدي .

أما العبادات في الاسلام فتقوم على خمسة اركان . اولها الشهادة وتتلخص في العبارة المؤثرة الفعالة « لا إلـه إلا الله محمد رسول الله » . وهذه اول عبارة تطرق أذن الطفل المولود في حضن الاسلام ، وهي آخر ما يقال على اللحد . والمسلم لا يسمع بين مرحلتي الولادة والموت عبارة تُكرّر أكثر من هذه . وهي ترِد في دعوة المؤذن للصلاة فينادى بها مراراً كل يوم من على رؤوس المآذن . وقد اكتفى الاسلام ، على العموم ، بهذه الشهادة اللسانية ، فمن قبلها ورددها أصبح — مبدئياً — مسلماً .

وثاني هذه الاركان الصلاة التي يفرض على المسلم الصادق ان يؤديها خمس مرات في اليوم ، مولّياً وجهه شطر مكة ،

وذلك عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء . ونظرة شاملة الى العالم الاسلامي في ساعات صلواته تريك عــدة حلقات من العابدين الواحدة ضمن الاخرى ، وكلها تتمركز حول نقطة واحدة هي الكعبة . وآخر هذه الحلقات تمتد من سيراليون في الغرب الى كانتون في الشرق ، ومن توبولسك في الشمال الى رأس الرجاء الصالح في الجنوب .

والصلاة الفرضية كما يحددهـا الشرع يجب ان تؤدى باتجاه نحو القبلة ، وعلى طراز واحد من السجود والركوع . وعلى العابد أن يقوم بها وهو في حالة الطهارة ، وان يؤديها باللغة العربية مهما كانت لغته القومية . ولهذه الصلاة شكـل ثابت متفق عليه ، وهي تقوم على الاكثــار من ذكر الله بأكثر مما تقوم على التوسل والتضرع ، والفاتحة على بساطتها بليغة المعاني ، ويشبّهها بعضهم بالصلاة الربانية عند النصارى . والمسلم يرددها نحو عشرين مرة في اليوم . فهي اكثر الصلوات المعروفة في الدنيا ترديداً . أما الصلاة التي يقوم بها العابد اختياراً اثناء الليـل (التهجّد) فهي في نظر الله نافلةٌ تستحق التقدير المزدوج .

وصلاة الظهر من كل يوم جمعة هي الصلاة الوحيدة العمومية . ولزامٌ على كل ذكر بالغ القيامُ بها . وبعض الجوامع تُفرد قسماً خاصاً منها للنساء . وفي صلاة الجمعة يدعو الامام للخليفة أو رأس الــدولة . وليس من شكلٍ للصلاة العمومية يفوق صلاة الجمعة جلالاً وبساطةً وتنظيماً .

ومما يثير النفس اعجاباً ان ترى العابدين متصبين في المسجد أثناء الصلاة في صفوف منسقة يمتثلون لقيادة الامام بدقة وخشوع . ومما لا ريب فيه ان هذه الصلاة العمومية كانت اكبر عامل تأديبي في توحيد صفوف المسلمين من ابناء البادية ذوي النفوس الفخورة الأبية المشبعة بروح الفردية . وقد غرست فيهم روح المساواة الاجتماعية والشعور الموحّد، ورقّت فيهم التآخي الديني الذي نشده محمد رابطةً بين المؤمنين بدلاً من رابطة العصبية الدموية . وهكذا أصبحت نُظمُ الصلاة خطوة أولى في التدريب العسكري .

وثالث هذه الاركان الزكاة . وقد كانت في الاصل عملاً اختيارياً القصد منه اسداء الخير والاحسان الى ذوي الحاجة . لكنها ما عتمت أن انقلبت فرضاً على العقار بما فيه المال والقطيع والحبوب والأثمار والسِلع . وقد عهدت الدولة الاسلامية الفتيّة جباية الزكاة الى عمال في مختلف الولايات . وتولى بيت المال ادارتها لسد نفقات الدولة ولمساعدة الفقراء وبناء الجوامع . والمبدأ الذي تقوم عليه الزكاة يقرب من مبدأ العُشْر الذي كان عرب الجنوب يؤدونه لآلهتهم قبل أن يُسمح لهم ببيع طيوبهم . ولقد اختلفت مقادير الزكاة على مرّ الايام ، ولكنها كانت على وجه التعديل اثنين ونصفاً في المائة . ولم يُستثنَ من هذا رواتب التقاعد في الجندية . ولما تضعضعت الدولة الاسلامية رجعت الزكاة الى مبدأها الاصلي القائم على الوجدان .

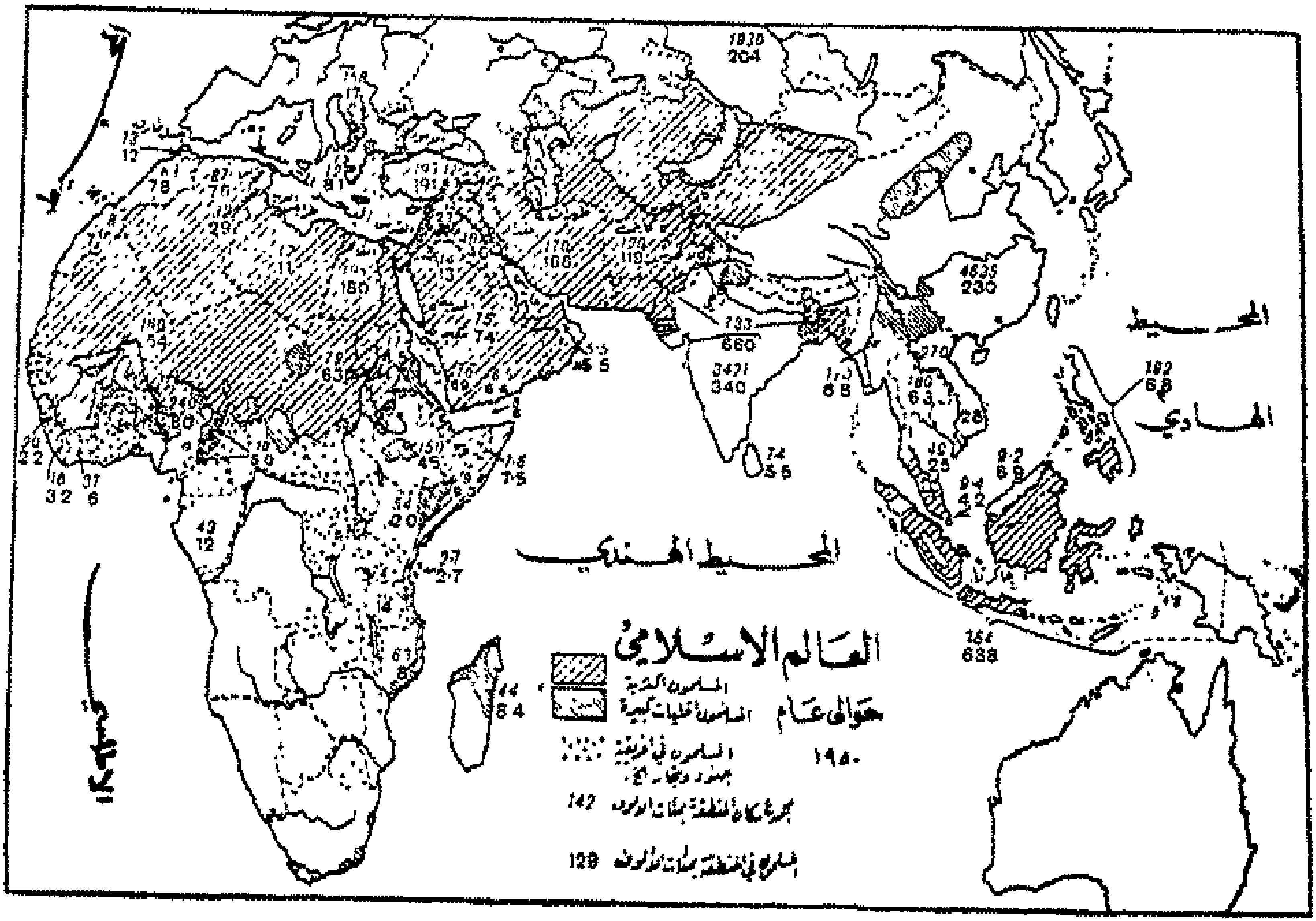
ورابع هذه الاركان صومُ رمضانَ . ومع ان صيامات التوبة فُرضت في القرآن عدة مرات فصومُ رمضانَ لم يأتِ ذكره الا مرة واحدة ، ويتحتّم الامتناع فيه عن الطعـام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس . وقـد عُرفت حوادثُ استَعْملت فيها الحكومات والجماعـاتُ في البلاد الاسلامية العنفَ مع المسلم غير الصائم . وليس لدينا دليل يثبت ان عرب الجاهلية كانوا يمارسون الصوم . إلا ان هذه العادة كانت مرعية بين اليهود والنصارى في اوائل عهدهم .

أما الحجّ فهو الركن الخامس والاخير ، ويُفرض بموجبه على كل مسلم ومسلمة زيارة البيت الحرام مرة واحدة في العمر في وقت معين من السنة ،اذا استطاعا الى ذلك سبيلاً . وعلى الحاج أن يكون في حالة الطهارة المرموز اليها بلبس إزار ، وهو قطعة واحدة من قماش غير مَخيْط ، وان يُراعي (علاوة على المحظورات المفروضة في صوم رمضان ، كمياف ِ الجماع) أنظمة خاصة تحرم اهراق الدماء والصيد وقلع النبات . والحج الى الاماكن المقدسة كان عادة سامية قديمة ظاهرة آثارها في التوراة .

وجماعات الحجاج من السنغال وليبريا ونيجيريا تزداد عدداً بمواصلة الرحلة وهي تجتاز أواسط افريقيـا متجهة شرقاً . وبعض الحجاج يسير مشياً على الاقدام وغيرهم يركب الابل . ومنهم من يعوّل على الاتجار في طريقه وغيرهم يعتمد الاستجداء . وكثير من الحجاج يموتون على قارعـة

الطريق فيُعدّون شهداء . أما الذين ينجون بأرواحهم فيبلغون في النهاية أحد مرافىء البحر الاحمر الغربية ، ومنه يُنقلون بقوارب الى الشاطىء المقابل . على ان قوافل الحجّاج الاربع الكبرى تجيء من اليمن والعراق وسورية ومصر . ولقد كانت كل من هذه البلدان فيما مضى ترسل كل عام على رأس قافلة حجيجها مَحمِلاً يرمز الى مكانتها . والمحمِل يغطى بنسيج من الحرير وافر الزينة والزخرف يُحمل على جمل يُقاد باليد دون أن يركبه أحد . ولم يبقَ ما يشبه بزهوه وأبهته المحامل القديمة إلا المحملُ المصري . وقد توقف تسييره منذ عهد عبد العزيز ابن سعود .

ولقد بلغ متوسط عدد الحجاج السنوي بعد الحرب العالمية الاولى ١٧٢،٠٠٠ حاجّ . وكان عددهم لعام ١٩٠٧ حسب الاحصاء التركي ٢٨٠،٠٠٠ حاجّ ، وفي عام ١٩٥١ بموجب التقرير السعودي ٦٢٠،٠٠٠ ، وفي سنة ١٩٥٣ فوق المليون منهم الثلث وفدوا من خارج البلاد . ولقد ظل الحج على كرّ العصور أكبرَ عامل موحّد في الاسلام ، واقوى رابطة بين مختلف طبقات المؤمنين . وهو الذي جعل من كل مسلم قادر رحالة ولو مرّة في عمره . واجتماعات كهذه لها تأثير اجتماعي فعّال بين جماعات المؤمنين الذين يأتون من اقطار المعمورة الأربعة . فالحج أتاح للزنوج والبربر والصينيين والفُرس والسوريين والترك والعرب — الفقير منهم والغني والرفيع والوضيع — ان يجتمعوا ويتآخوا على اساس الايمان المشترك .


العالم الإسلامي
حوالي عام ١٩٥٠
المسلمون أكثرية
المسلمون أقليات كبيرة
المسلمون في أفريقية
المحيط الهندي
المحيط الهادي

والحق ان الاسلام قد وفق أكثر من أديان العالم جميعاً الى القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية وخاصة بين أبنائه. ولا شك في ان الاجتماع في موسم الحج له الفضل الاكبر في تحقيق هذه الغاية. وعلاوة على ذلك فقد وفّر الحج الفرص السانحة لنشر الدعاوة والافكار المذهبية بين جماعات من الناس قادمين من بلدان مختلفة لا تربطها بعضها ببعض وسائل الاتصال الحديثة، وليس للصحافة فيها صوت فعّال.

وهناك فرض آخر تعتبره الخوارج، وهي احدى الفرق الاسلامية، ركناً سادساً هو الجهاد. واليه يعود الفضل في توسع الاسلام توسعاً لا مثيل له جعل منه دولة عالميه. ومن واجبات الخليفة الرئيسية ان يظل عاملاً في توسيع نطاق دار الاسلام الجغرافي على حساب دار الحرب. إلا ان فكرة الجهاد لم تلق في السنين المتأخرة تأييد العالم الاسلامي. ذلك بأن كثيراً من المسلمين يخضعون لحكومات أجنبية متعددة يصعب مقاومتها. اضف الى هذا ان النزعات القومية أخذت تحل محل النزعة الدينية. ولقد كان الخليفة محمد رشاد آخر من وجه الى العالم الاسلامي نداء للجهاد وذلك في خريف سنة ١٩١٤. غير انه اخفق في محاولته اخفاقاً تاماً.

سير الإسلام

إن أهم حادثتين في اوائل العصور الوسطى كانتا مهاجرة الطوطون التي أسفرت عن انحلال الامبراطورية الرومانية ثم الفتوحات العربية التي قضت على دولة الفرس وزعزعت أركان الدولة البيزنطية . ولو تجرأ أحدهم على التنبؤ في اوائل القرن السابع المسيحي بظهور قوة لم يسبق لها نظير تقوم في مجاهل الجزيرة العربية التي لم يكن لها قبلاً شأن تاريخي وتدفع بنفسها على الدولتين العالميتين الوحيدتين في ذلك العصر فتحل محل الواحدة — الساسانية — وتجرد الأخرى — البيزنطية — من أغنى ولاياتها ، أقول لو تجرأ أحد على مثل هذه النبوءة لعده الناس مجنوناً . ولقد حدث هذا بعينه . اذ بعد وفاة النبي العربي تحولت الجزيرة العربية من دار عاقر الى اخرى ولود ، فأنجبت أبطالاً قل أمثالهم في العالم . فحملات

خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في العراق والشام ومصر تُعدّ من أروع الحملات وأدقها تنفيذاً في تاريخ الحروب وتحاكي حملات نابوليون وهنيبال والاسكندر .

وقد ساعد العرب في فتوحاتهم عوامل عديدة . فالحروب المتواصلة بين البيزنطيين والسّاسانيين لمدة أجيال فتّت في ساعد الفريقين وأضعفت قواهما . والضرائب الباهظة الناتجة عن هذه الحروب المفروضة على رعايا الدولتين ، أخمدت من ولائهم . واستيطان بعض القبائل العربية الشام والعراق ، والانشقاق في الكنيسة المسيحية ، واضطهاد الكنيسة البيزنطية المنشقّين عنها — كل هذه مهدت السبيل لتلك الفتوحات . وقد رحب سكان البلاد السّاميون في سورية وفلسطين والحاميّون في مصر بالعرب واعتبروهم أقرب نسباً اليهم من حكامهم الأغراب الطغاة . وفضلاً عن ذلك فالجزية التي فرضها الفاتحون كانت أقل من التي جباها سابقوهم ، في حين سمح المسلمون للمغلوبين على أمرهم بممارسة دينهم بحرية أوسع وطمأنينة اكبر . وهكذا استيقظ الشرق السامي من سُباته الطويل وامتلك روعه بعد رضوخه للغرب الأوروبي مدة الف سنة . ولا غرو فقد كان العرب عنصراً غضاً ملتهباً بالحماسة ومتشرباً روح الفتح والانتصار ، ومستخفاً بالموت بدافع ايمانه الجديد .

ويرجع انتصار العرب العجيب ببعض اسبابه الى استخدامهم فنوناً حربية تصلح لفلوات غربي آسيا وشمالي افريقيا ، والى اعتمادهم على الخيالة والمجانة التي لم يُحسن

استخدامها الروماني . وكان الجيش العربي ينقسم إلى فرق خمس هي : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساقة . وتحمي الخيالة الميمنة والميسرة . وكان هذا التقسيم قائماً على أساس الوحدة القبلية فكانت كل قبيلة تتخذ لواء لها ، وهو عبارة عن نسيج مرفوع على قناة يحملها أشجعهم . أما شعار النبي فكان العقاب . وكان المشاة يستعملون القوس والنشاب والمقلاع وأحياناً السيف والترس . وكانوا يحملون السيوف في أغماد يشدونها إلى الكتف اليمنى . أما الحربة التي جاءت من الحبشة فكان ظهورها متأخراً . وكان سلاح الفارس الرئيسي الرمح ، وهو مع القوس والنشاب قوام السلاح القومي . أما عدة الدفاع فلم تتعد الترس الذي كان أخف من الترس البيزنطي .

وكان نظام القتال بسيطاً ساذجاً يتألف من الصفوف في ترتيب متراص . وكانت المعركة تبتدىء بمنازلة فردية للابطال الذين كانوا يتقدمون من مراكزهم في الفرق ويطلبون الخصم للبراز . وكان عطاء المحارب العربي يزيد على عطاء المحارب الفارسي البيزنطي ، ناهيك انه كان ينال قسماً من الغنيمة . ولم تكن الجندية خير مهنة في نظر الله واشرفها فحسب ، بل اوفرها دخلاً ايضاً . والحق ان قوة الجيش العربي لم تقم على تفوق سلاحه وحسن تنظيمه ، بل على قوة معنوياته التي انبثق معظمها من الدين ، وعلى احتماله الصعوبات التي اعتادها في الصحراء ، وعلى سرعته بداعي استعماله الجمل وسيلة للنقل .

وتكاد المراجع العربية تنظر الى الحركة الاسلامية كحركة دينية بحتة ، فهي لا تعرض لمسبباتها الاقتصادية . ومن جهة يزعم بعض الغربيين ان الفاتحين المسلمين عرضوا القرآن في يد والسيف في اخرى . غير ان الواقع هو ان المسلمين عرضوا خياراً ثالثاً خصوصاً لليهود والنصارى خارج الجزيرة ، وهو الجزية . وبهذه المناسبة نزلت الآية : «قَاتِلُوا الذين لا يُؤمِنون بالله وَلا باليَوم الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمون مَا حَرّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحقِّ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكتابَ حتّى يُعْطُوا الجزْية عَنْ يَدٍ وهُمْ صاغِرُون » (سورة التوبة) .

وليس من شك في ان الاسلام جاء بشعار جديد التفّت حوله أقوام لم تجتمع من قبل ، وان الدين كان اكبر عامل في خلق تلك الروح المتحفزة التي ابداها المسلمون . ولكن ذلك ليس كافياً وحده لتعليل الفتوحات. فكثرة الجيوش العربية كانت تتألف من البدو الذين خرجوا من ديارهم المجدبة الى الأمصار الخصبة في الشمال بدافع الحاجة الاقتصادية لا بدافع الغَيْرة على الدين . ولعل منهم من كان يحلم بالجنة ونعيمها . إنما الكثير منهم كان يحلم بالتمتع بخيرات حضارة الهلال الخصيب ونعمها على ما كانت الحال مع القبائل السامية الأخرى من قبلهم . فالتوسع الاسلامي اذاً كان آخر حلقة من حلقات الانسحاب التدريجي من الصحراء المجدبة إلى الهلال الخصيب الملاصق ، أي آخر هجرة سامية كبرى .

أما مؤرخو الفتوحات الاسلامية ، وكلهم متأخرون ، فإنهم

نظروا اليها على ضوء ما عقبها من الحوادث، وصوروها لنا وكأنها خطط أحكم وضعها الخلفاء الأولون ، وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر . على ان التاريخ يكاد لا يرينا أبداً حوادث هامة ادرك بادئوها الطريق التي تتخذها ، والشأن الذي تؤول اليه . فالفتوحات الاسلامية إذاً لم تكن في بدء عهدها نتيجة لخطة مرسومة، بل كانت عبارة عن غزوات مصدرها الروح المتحفزة للقتال — القتال الذي حرّم الاسلام ممارسته بين القبائل المسلمة المتآخية — وغايتها الاولى الغنيمة لا الفتح الدائم والاستعمار . بيد انه بتتابع الايام أفلتت هذه الحركة من يد أصحابها وازدادت قوة ونشاطاً بالظفر بعد الظفر والانتصار بعد الانتصار . وعندئذ بدأت الحملات المنظمة واصبح تأسيس الدولة العربية نتيجة محتّمة . وقُصارى القول ان هذه الدولة كانت نتيجة منطقية لمجرى الحوادث لا لخطة أو تدبير سابق .

والتعليل الديني للفتح الاسلامي يقابل تعليل تاريخ العبرانيين في العهد القديم وفلسفة التاريخ المسيحي في العصور الوسطى . وهو فضلاً عن ذلك يستند الى تفسير لغوي فيلولوجي خاطىء . فلفظة « إسلام » يمكن استعمالها لمعانٍ مستقلة ثلاثة : أولها الدين وثانيها الدولة وثالثها الثقافة . فالأسلام ، كدين ، يختلف عن اليهودية والبوذية القديمة ، ويتفق مع النصرانية في كونه ديناً تبشيرياً فعالاً . والاسلام ، كدولة ، وقد عقب الاول ، هو الذي فتح الاقاليم الشمالية . فالفتوحات إذاً تمت بفضل الدولة لا الدين . وخروج العرب من جزيرتهم ومفاجأتهم للعالم كأعضاء

ثيوقراطية قومية كان في الدرجة الأولى فوزاً للعروبة ، إذ لم يدخل السواد الأعظم من أهل سورية والعراق وفارس في دين الاسلام حتى القرن الثاني والثالث للهجرة . وكان دخولهم في الأصل بدافع المصلحة كي لا يدفعوا الجزية وليصبحوا في عداد الطبقة الحاكمة . أما الاسلام ، كثقافة ، فقد تطوّر تدريجياً بعد الفتح على أساس حضارات السّريان الآراميين والفرس واليونان التي سبقته . وهكذا لم يستعد الشرق الأدنى بالاسلام ملكه السياسي السابق فحسب ، بل استعاد أيضاً ثقافته السابقة الرفيعة .

وقبل ان يتدفق العرب من جزيرتهم ويحتلوا بلاداً أخرى كان لزاماً عليهم أن ينظروا في شؤون أنفسهم ، وان يجابهوا في الحال مشكلة معقدة هي مشكلة خلافة الرسول .

كان للرسول وهو في قيد الحياة وظائف عدّة . كان هو النبي والمشرّع والامام والقاضي وامير الجيش ورئيس الدولـة المدني . ولكن محمداً مات فبرزت مشكلة الخلافة على الوظائف التي شغلها باستثناء الوظيفة الروحية التي لا يستطيع أحد ان يخلفه فيها ، بوصفه خاتمَ الرسل والنبيّين .

مات الرسول عن ابنة واحدة — فاطمة زوج علي — دون أن يُعْقِبَ ذكوراً . والمشيخة العربية حينئذ لم تكن وراثية بل شبه انتخابية على أساس الأقدمية في السنّ . ومن هنا يجوز لنا ان نفترض انه ولو لم يحتسب النبي بنيه لبقيت مشكلة الخلافة دون حل . ثم إن النبي لم يعيّن خليفته تعييناً واضحاً . فالخلافة إذاً أقدم مشكلة جابهها الاسلام ولا يزال يجابهها الى اليوم . ففي

آذار سنة ١٩٢٤ خلع الأتراك الكماليون الخليفة عبد المجيد الثاني وألغوا الخلافة العثمانية . وكان ذلك بعد ستة عشر شهراً من تقويضهم للسلطنة . ومنذ ذلك اليوم انعقدت عدة مؤتمرات اسلامية في القاهرة ومكة للبحث في أمر الخلافة ، ولكن دون جدوى . ولقد صدق الشهرستاني عندما قال « وأعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة إذا ما سُلّ في الاسلام على قاعدة دينية مثلُ ما سُلّ على الامامة في كل زمان » .

وعلى اثر وفاة النبي ظهرت أحزاب متباينة كما يحدث في أي حالة يتداول الناس فيها شأناً خطيراً . فادعى المهاجرون المكيّون أنهم اولى الناس بالخلافة لانتسابهم الى قبيلة النبي ولكونهم أولَ من صدق بدعوته . ومن جهة أخرى ادعى الانصار المدنيون انــه لولا حمايتهم النبيّ والاسلام الغض لهلك النبي وهلك الاسلام. غير ان الفريقين اتحدا فيما بعد وصارا يُعرفان بالصحابة. ثم جاء أصحاب النص والتعيين وحجتهم ان الله ورسوله ما كانا ليتركا أمر المسلمين الى رغائب المنتخبين وأهوائهم . وإذاً فلا بد انهما قد تدبرا أمرهم وعيّنا من يخلف النبي ، وأنّ علياً ، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة ، وأحد السابقين الى الايمان بدعوته ، هو الخليفة الشرعي ، وانه تعين كذلك بنص النّبي. وهكذا اعتقد هؤلاء بالحكم عن طريق التفويض الألهي لا عن طريق المبايعة والانتخاب. وكان هنالك حزب آخر قوامه الأمويون أشراف قريش الذين قبضوا على زمام السلطة والثروة في الجاهلية وقد جاؤوا معلنين اولويتهم بالخلافة ، رغم كونهم آخر من

اعتنق الاسلام من هذه الأحزاب .

ثم ان اول هذه الأحزاب فاز بالخلافة ، فبايع زعماء القوم المجتمعون أبا بكر . وكان أبو بكر شيخاً تقياً ومن أول الذين صدقوا النبي وآمنوا بدعوته . وهو أبو عائشة ، إحدى ازواج النبي . ثم تبع ابا بكر في الخلافة عمرُ وعثمان وعلي . وهؤلاء الاربعة هم الخلفاء الراشدون . وفي مدة خلافتهم كانت حياة النبي نبراساً وهاجاً يضيء سبيل اعمالهم . ولا غرو ، فقد ربطتهم بالنبي أواصر الصداقة والقربى .

ويقول المؤرخون العرب إن الجزيرة ، ما عدا الحجاز ، ارتدت عن الاسلام على أثر وفاة النبي . أما الواقع فهو ان المقاطعات التي أسلمت في حياة النبي وخضعت لسلطته لم تتجاوز على ما نعتقد ثلث الجزيرة . وذلك لصعوبة المواصلات ، ولعدم قيام الدعوة المنظمة ، ولقصر المدة الواقعة بين البعثة ووفاة النبي . والحجاز نفسه لم يُسلم بأكمله حتى سنة أو سنتين من وفاة النبي . فحروب « الردة » التي قام بها ابو بكر اذاً لم يكن المقصود من أكثرها إرجاع المرتدين الى حظيرة الاسلام — كما يزعم المؤرخون — بل ادخال العرب غير المسلمين في حظيرته . وفي هذه الحروب أظهر خالد بن الوليد ما أظهر من براعة في القيادة وشجاعة في القتال . وبذلك توحدت الجزيرة تحت راية الاسلام وتأهبت للزحف على ما حولها . وكان لا بد لها أولاً من أن تفتح نفسها قبل محاولتها فتح البلاد الأخرى .

وجاء دور سورية أولاً ، وكانت إذ ذاك في يد البيزنطيين

الذين ورثوها عن الرومان . وكان قد اغتصبها هؤلاء من خلفاء الاسكندر الذي اكتسحها قبل الفتح العربي بنحو ألف عام. وقد أدرك قواد البيزنطيين ان الغزاة من الجزيرة الذين بدأوا يعبرون الحدود ويتوغلون الى حدّ لم يعهدوه لم يكونوا غزاة عاديّين كالذين عهدوهم من قبل . وما لبثوا ان اكتشفوا عدوهم فاذا فيه نشاط جديد وإذا لديه سلاح جديد . وكان سلاحهم هذا سرعةَ حركتهم . فالجمل العربي جاء بمثابة عنصر جديد فعال في الحرب . ولما جاء خالداً « سيفَ الله » الأمرُ بنجدة الجيوش العربية التي كاد يتغلب عليها البيزنطيون امتطى مع لفيف من المحاربين المدربين الابلَ وراح يطوي الصحراء طياً من جنوب العراق إلى أن ظهر بغتة بجوار دمشق العاصمة السورية . وقد حمل المحاربون ماءهم في القُرَب واحتاطوا لعطش الخيل بخزن الماء في بطون الرواحل . فكانوا ينحرون هذه الرواحل ويقتاتون بلحومها ويرتوون وترتوي خيولهم بما حوت أجوافها من ماء . وبعد اسبوعين من مغادرة العراق وقف خالد أمام أبواب دمشق متقلداً زمام قيادة القوات العربية بأجمعها .

وأذعنت دمشق بعد حصار طال ستة أشهر وهي التي كانت الروايات تعدّها أقدم مدينة في العالم ، والتي قدر لها ان تصبح فيما بعد عاصمة للدولة الأموية . أما البلدان الأخرى فسقطت أمام الفاتحين سقوط أوراق الخريف عند هبوب الريح . غير ان هرقل امبراطور الدولة البيزنطية بعث بجيش مؤلف من خمسين

ألف مقاتل ابتغاء صد المسلمين . فجابهم خالد بنصف ذلك العدد في وادي اليرموك ، أحد روافد الاردن ، في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ . وكان يوماً شديد الحرّ عصفت فيه الرياح فسفّت الغبارَ والرمال ضباباً كثيفاً أعمى عيون البيزنطيين . ويظهر ان القيادة العربية اختارت هذا اليوم بحذاقة فائقة إذ اعتاد العرب هذه الحوادث الجوية وعرفوا كيف يحتاطون لها في حين لم يعتدها البيزنطيون . فلما هجم أبناء الصحراء على البيزنطيين لم يُغْنِ دفاعهم عنهم شيئاً على الرغم من صلوات قسسهم وتسابيحهم ووجود الصلبان في صفوفهم . فغدا انكسارهم مذبحة . ولم يقف حاجز في سبيل الجيوش العربية ، فاستمرت في سيرها حتى بلغت جبال طورس ، وهي تخوم سورية الطبيعية في الشمال .

وقد أكسب هذا الفتح « اليسير » (على ما وصفه البلاذري) الدولةَ الاسلامية الفتية هيبة ووقاراً في أعين الناس ، وزادها اعتداداً بنفسها وبنصيبها في هذا العالم، خاصة وقد نالت منطقة حربية هامة اغتصبتها من يد أشد دول ذلك العصر . فأصبحت سورية آنئذ مركزاً استطاع المسلمون الزحف منه الى ارمينية وشمالي العراق وبلاد الكُرج واذربيجان ومهاجمة آسيا الصغرى عدة مرات في السنين التي تلت .

وحالف النصر المسلمين عندما توجهوا الى الفرس واصطنعوا الأساليب الحربية التي ذكرنا . ففي سنة ٦٣٧ وفي يوم اشتدت عواصفه واكفهرّ جوّه بالغبار كيوم موقعة اليرموك اشتبك العرب مع الفرس ، فمزقوا شملهم ، واستولى على الفرس الذعر

فتشتتوا ، وأمست سهول العراق الخصبة غربي دجلة لقمة سائغة للفاتحين . وتابع المسلمون تقدمهم بنشاط وعبروا دجلة عند إحدى مخاضاته[1] على الرغم من ارتفاعه وطغيانه بسبب سيول الربيع ، دون أن تلحقهم أي خسارة في النفوس. ورحّب أهل العراق – كما رحّب أهل سوريا – بالفاتحين لأن الفريقين اعتبرا أسيادهما الغابرين غرباء ممقوتين ، ولأن الثقافتين اليونانية والفارسية اللتين فُرضتا عليهما لم تتأصلا في نفوسهما . وفرّ كسرى مع جنوده الفرس من عاصمته المدائن دون دفاع . فدخل المسلمون أعظم عاصمة في غربي آسيا ظافرين . وبقتل كسرى بيد أحد رعيته طمعاً في جواهر تاجه قضى آخر عاهل لامبراطورية ازدهرت مدة اثني عشر قرناً . ولم تنهض تلك الامبراطورية ثانيه إلا بعد ثمانية قرون من ذلك التاريخ .

ولأول مرة واجه أبناء الصحراء القاحلة نعيم الحضارة وبذخها . فمقابلة القصر الملكي ومجالسه الرحبة وقناطره البديعة ورياشه الفاخر بأكواخ الطين في الجزيرة بهرت البدوي أول الأمر وأدهشته . غير انه بدأ يألف هذا كله تدريجياً ، لتبدو منه في أثناء ذلك أول مضحكة . فظن الكافور ملحاً واستعمله للطبخ ، وسارع الى استبدال الفضة بالذهب لمعرفته بالأولى وجهله بالثاني . ولما لام بدوياً أصحابه لبيعه بنت أحد الأعيان التي كانت نصيبه من الغنيمة بألف درهم ليس غير أجاب بأنه لا علم له بعدد فوق العشر مئة .

---

[1] جمع مخاضة (بفتح الميم) : موضع الخوض في الماء .

حتى اذا تجاوز العرب العراق وتوغلوا في فارس جابهوا مقاومة متزايدة . ولم يستتب لهم الفتح إلا بعد عشر سنين تقريباً إذ كانت بلاد الفرس آرية لا سامية ، وكانت ذات سيادة وذات قوة حربية منظمة قاتلت الرومان طوال اربعة قرون. ولكنها غُلبت أخيراً على أمرها . وهكذا وجد العرب أنفسهم على حدود الهند سنة ٦٤٣ .

وفيما كان هذا النصر يطّرد في الشرق كانت موجة الاسلام تمتد نحو الغرب . وتفصيل ذلك ان العرب في بدء عهد توسعهم نظروا الى مصر نظرة ملؤها الشهوة ، لموقعها الحربي الخطير ، ومتاخمتها لسورية والحجاز ، ولكونها ممراً لافريقيا الشمالية ، ولجودة تربتها التي جعلت منها اهراء للقسطنطينية ، ولأن عاصمتها الاسكندرية كانت قاعدة للاسطول البيزنطي . حتى إذا كانت سنة ٦٣٩ نهض عمرو بن العاص بهذا العبء ، وفي نفسه الرغبة في مباراة خالد ، فاصطحب اربعة آلاف فارس ، واتخذ الطريق من فلسطين الى مصر محاذياً الشاطىء ، وهي الطريق التي سلكها من قبلُ ابراهيمُ وقمبيز والاسكندر وانطيوخوس والعائلة المقدسة وفيما بعد نابوليون وجمال باشا ، وهي الطريق العالمية الرئيسية في العصور القديمة .

وهنا أعاد العرب تمثيل روايتهم بعينها : — تشتيت فحصار ثم انتصار ترافقه صيحة « الله اكبر » . وفي هذه الاثناء كان حصن بابليون — وهو بأزاء جزيرة الروضة — قد سقط .

وتضخم جيش عمرو بالأمداد اللاحقة به من الجزيرة فبلغ عشرين الف مقاتل . وأفاق عمرو يوماً وسرّح طرفه فرأى

الاسكندرية ، عاصمة مصر وأهم مرافئها ، محاطة بالاسوار المنيعة والابراج . فمن جهة ارتفع عمود السواري الذي حوى فيما مضى هيكل الالآهة سرابيس ومكتبة الاسكندرية العظمى، ومن أخرى لاحت كاتدرائية مار مرقس الجميلة التي كانت فيما مضى الهيكل الموسوم بقيسارية والذي بدأت تشييده كليوبترة إكراماً ليوليوس قيصر وأتم بناءه اوغسطس. وامتدت في الغرب المسلّتان المصنوعتان من غرانيت اسوان الاحمر والمنسوبتان لكليوبترة أيضاً (والواقع ان مشيدهما تحتميس الثالث ، حوالى ١٤٥٠ ق. م.) وهما اللتان تزين الواحدة منهما اليوم شاطىء التيمس في لندن والأخرى إحدى الحدائق العامة في مدينة نيويورك . وفي جوف البحر على طرف اللسان تعالى الفنار الذي كان يعكس شعاع الشمس في النهار ويشع بناره في الليل —وكان من عجائب الدنيا السبع .

وكانت الاسكندرية تفاخر بحامية تبلغ الخمسين الفاً يعضدها الاسطول البيزنطي وقاعدته في مينائها . أما العرب فكانوا دون البيزنطيين عدداً وعدة ، ولا مراكب لهم ولا مجانيق ولا معين يؤمن حاجتهم الى الطعام .

ولكن بعد سنة دخل على عمر في المدينة رسول يحمل رسالة البشرى ومؤداها : « أما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير اني اصبت فيها اربعة آلاف منية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمائة ملهى للملوك » . عندئذ ضيّف عمر رسول قائده بالخبز والتمر . وأقام صلاة

شكر بسيطة موقرة في مسجد النبي .

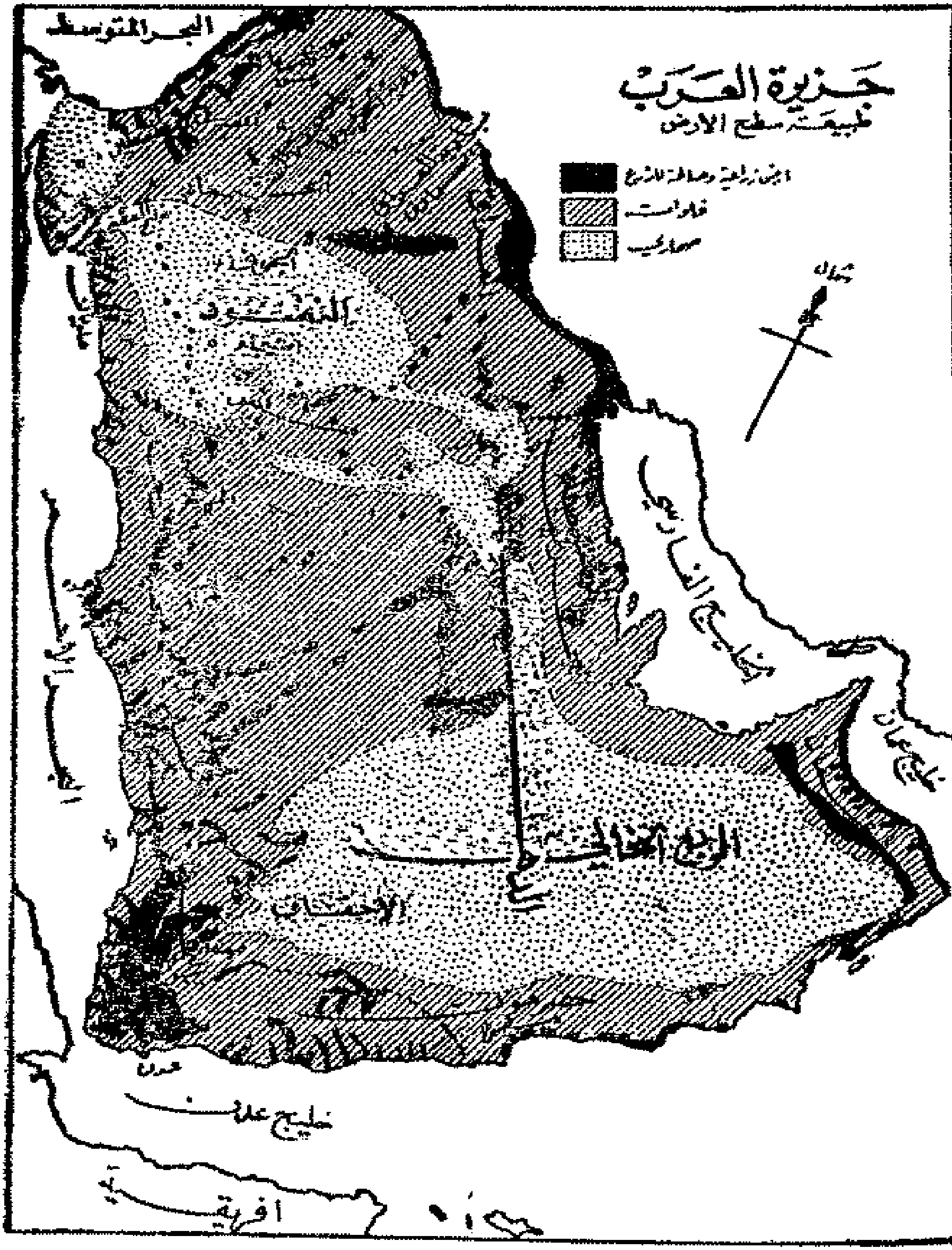
ثم ان الموقع الذي نصب عليه عمرو خيامه في هيليوبولس أصبح العاصمة الجديدة التي عرفت بالفسطاط والتي لا تزال قائمة وتعرف الآن « بمصر العتيقة » . وهنا شاد عمرو أول مسجد في مصر ، وهو مسجد بسيط رمم عدة مرات ولا يزال قائماً ..

أما قصة إحراق مكتبة الاسكندرية التي يتداولها الناس عن عمرو فمصدرها الخيال لا الحقيقة . وخلاصتها أن عمراً ابقى بأمر الخليفة أتاتين [1] حمامات الاسكندرية مشتعلة طوال ستة أشهر بمجلدات مكتبتها . والواقع أن مكتبة البطالسة أحرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق. م. وأن مكتبة أخرى نشأت من بعد يشار اليها باسم « المكتبة الصغرى » دمرت سنة ٣٨٩ م. على اثر أمر أصدره الأمبراطور الروماني ثيودوشيوس . واذن لم يكن هنالك مكتبة تستحق الذكر عند الفتح العربي . ولم يرو هذه القصة أحد من المؤرخين في ذلك الزمن . وأول من رواها هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ. (١٢٣١ م) ولا علم لنا بالسبب الذي حداه الى اختلاقها . غير ان بعض المؤرخين اللاحقين اقتبسوها عنه وتزيدوا فيها . ثم ان اكثر الكتب في ذلك الزمن كانت من الرّق الذي لا يحترق .

وبسقوط مصر أصبحت المناطق البيزنطية الواقعة في غربيها بلا حام . فهبّ عمرو وفرسانه اليها مقتحمين ، رغبةً منه في اتقاء خطر قد يجيء منها . وسرعان ما أخذ علَم النبي يخفق في طرابلس بلاد البربر ليقدّر له بعدُ أن يتجاوزها الى مدى أبعد .

---

١ جمع أتون : وهو موقد نار الحمام .



جزيرة العرب
طبيعة سطح الارض
صحارى
شمال
البحر المتوسط
النفود
الربع الخالي
خليج عدن
خليج عمان
افريقية

الخلافة

من الظواهر التي رددها التاريخ قصة شعب فتيّ خشن ساذج يتغلب على شعب قديم ذي حضارة عريقة ، ثم ما يلبث أن يفتتن ببهجة هذه الحضارة وينغمس في ملذاتها فتولّد فيه ليناً يؤول أخيراً الى انحطاطه . ونحن نجد هذه الظاهرة عينها في قصة العرب الخارجين من الجزيرة .

لما افتتح العرب الهلال الخصيب وفارس ومصر امتلكوا أقدم مراكز الحضارة في العالم . فاقتبسوا عنها العلوم والفنون الجميلة من مثل فن البناء والفلسفة والطب والرياضيات والآداب وفنّ الحكم إذ لم يكن لديهم شيء منها . وكانت قابليتهم للاقتباس شديدة . وكان حبهم للاستطلاع عاملاً دفع بقواهم العقلية الكامنة الى ان تنقلب قوى فعّالة . وبمعونة اخوانهم من ابناء البلدان المفتوحة استطاعوا استثمار ذلك التراث الفكري والثقافي

والتبحّر فيه وتكييفه بما يلائم عقليتهم . ففي المدائن ودمشق وبيت المقدس والاسكندرية شاهدوا أعمال البنّاء والصانع والصائغ فأعجبوا بها ونسجوا على منوالها .

فلم تكن « الحضارة العربية » إذاً عربية في أصلها أو تركيبها الأساسي أو مزاياها القومية الرئيسية ، إذ ان مساهمة العرب الأصليين الخالصة في هذه الحضارة لم تتعدّ علم اللغة وبعض النواحي الدينية . وكان الشاميون والفرس والمصريون وغيرهم من مسلمين ونصارى ويهود طيلة عصور الخلافة في مقدمة من رفع نبراس الثقافة والعلم عالياً . وكان شأنهم في ذلك شأن اليونان من قبلهم عندما خضعوا للرومان سياسياً وأخضعهم هؤلاء عقلياً وروحياً . وإذاً فالحضارة العربية الاسلامية في أساسها آرامية — يونانية وفارسية ارتقت وتطورت تحت لواء الخلافة وعبّرت عن نفسها بواسطة اللسان العربي . ولقد جاءت باعتبار آخر تكملة منطقية للحضارة السامية القديمة العريقة في الهلال الخصيب التي ابدعها البابليون والاشوريون والفينيقيون والاراميون والعبرانيون .

وتتجلى لنا حقيقة الرجال الذين أنجبتهم الجزيرة العربية في اسلامها حين نحاول درس حياة أبي بكر الذي تولى أمور المسلمين من سنة ٦٣٢ الى ٦٣٤ وحياة عمر الذي تولى خلافتهم من ٦٣٤ — ٦٤٤ . عاش أبو بكر ، قاهر المرتدين وموحّد الجزيرة تحت راية الاسلام ، حياة ساذجة بسيطة ملؤها الوقار . وفي الستة الاشهر الأولى من خلافته

القصمرة كان يغدو كل يوم من السّنح ، حيث قطن وزوجه حبّيبة في بيت وضيع ، الى عاصمته . ولم يكن يتقاضى راتباً لأنه لم يكن للدولة إذ ذاك دخـل يستحق الذكر . وكان يدير جميع شؤون الدولة في صحن المسجد النبوي.

أما عمر ، الخليفة الثاني ، فكان رجلاً جلداً نشيطاً ومثالاً حياً للبساطة والاقتصاد . ومن صفاته انه كان طوالاً أصلع شديد الأدمة . وقد أعال نفسه في إبان عهد خلافته بالمتاجرة . وكانت حياته — شأن حياة أي شيخ بدوي — بعيدة عن الأبهة وحب التظاهر . وتجعل الروايات الاسلامية اسمه ارفع اسم في أوائل الاسلام بعد النبي . وقد مجّد عمرَ الكتّاب المسلمون لتقواه وعدله وتواضعه ووقاره ، وحسبوا هذه المناقب التي يجدر بكل خليفة ان يتحلى بها مشخّصة فيه . وقالوا لم يكن لعمر إلا قميص خَلَق وإزار قطري مرقوع برقعة من أدم . وكان ينام على فراش من سَعَف النخل . ولم يهمه من شؤون هذه الحياة الدنيا سوى الدفاع عن شعائر الدين وإقامة العدل واعلاء شأن الاسلام وتأمين مصالح العرب . والآداب العربية طافحة بقصص تجلّ أخلاق عمر الصارمة . ومما يروى انه جلد ابنه حدّاً على الشرب والخلاعة فمات تحت حده . ويروى ايضاً ان بدوياً لقي عمر فقال له : «يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعْدِني[1] على فلان فانه قد ظلمني . فرفع عمر الدرّة (السوط) فخفق بها رأسه وقال : لا تدعون امير المؤمنين وهو مُعرِض لكم[2] حتى

١ اعدى فلاناً على فلان : قام بنصره وقواه .
٢ اعرضَ لك الخيرُ : امكنك .

إذا شُغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه ، أعدني أعدني .
فانصرف الرجل ، وهو يتذمر ، ثم قال عمر « عليّ بالرجل » .
فالقى اليه المِخْفقة (الدرّة) وقال « امتثِلْ » [1] . فقال
« لا والله » . فانصرف الخليفة حتى دخل منزله فصلى ركعتين
وقال يناجي نفسه : « يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك
الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ،
ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته.
ماذا تقول لربك غداً إذا أتيته ؟! »

وقُتل عمر في أوج حياته وهو يصلي في القوم بطعنة خنجر
مسموم سددها اليه ابو لؤلؤة ، وهو غلام فارسي . وخلفه عثمان
(٦٤٤ ـــ ٦٥٤) فجرت في ولايته فتوح ايران واذربيجان
وبعض ارمينية . وكان عثمان شيخاً وقوراً طيب الارومة إلا انه
عجز عن التحكم في اطماع ذوي قرباه . وضاق الناس بذلك ،
وحرضهم على الفتنة ثلاثة من رجالات قريش كان كل منهم
يمني نفسه بمنصب الخلافة وهم علي وطلحة والزُبير . وبدأت
الثورة في الكوفة ، أصلاها أنصار علي، ثم اشتد سعيرها في مصر
فأقبل من المصريين زهاء خمسمائة ثائر الى المدينة يريدون عثمان .
فتسوّر بعضهم عليه فوجدوه ـــ وهو ابن ثمانين ـــ عند امرأته
نائلة يقرأ المصحف. واقتحم البغاة الدار يتقدمهم محمد ابن ابي بكر
فطعن عثمان بنصل عريض في جبينه . ومن ثَمّ قتله أحدهم فكان
أول خليفة فتكت به أيد مسلمة وذلك في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦.

---

١ امتثل من القاتل : اقتص منه .

وبعد مقتل عثمان بويع لعلي فأطاعته البلدان الاسلامية كلها يومئذ. وعليّ هو ابن عم الرسول وزوج فاطمة، أحبّ بناته اليه، ووالد الحسن والحسين، وهو ثاني من آمن بمحمد أو ثالثهم، تحلى بطيب النفس والتقوى والبسالة.

وأول مشكلة جابهت علياً كانت التخلّص من منافسَيْه طلحة والزبير — زعيمي الحزب المكيّ وجمهرة من الاتباع في الحجـاز والعراق الذين لم يعترفوا بولايته. وانضمت عائشة أمّ المؤمنين وزوج النبي المفضلة الى مقاوميه، فما كان من علي إلا ان انطلق لقمع الفتنة فضرب على أيدي موقديها بجوار البصرة في ٩ كانون الأول سنة ٦٥٦. وتعرف هذه المعركة بوقعة الجمل لأن عائشة التي التفّ الثوار حولها كانت تمتطي جملاً. وفي هذه الوقعة صُرع خصما علي طلحة والزبير ووقعت عائشة أسيرة في يده.

استتب الامر لعلي في الظاهر فجعل الكوفة عاصمة له. غير ان معاوية ابن ابي سفيان امير الشام لم يبايعه وطفق يناوئه. ولم تنطو هذه الخصومة على عداء شخصي فقط بل تجاوزته الى التطاحن بين بيتين من قريش، والى تناظر بين الكوفة ودمشق، أو قل بين العراق والشام، وتسابقهما الى التصدر في الشؤون الاسلامية.

التقى الجيشان بصِفّين على ضفة الفرات الغربية: عليّ على أهل العراق وهم خمسون الف مقاتل، ومعاوية على أهل الشام. فجرت مناوشات لم تكن حاسمة إذ لم يكن لأي الفريقين رغبة

شديدة في القتال بادىء الأمر . حتى اذا اشتد القتال وكاد اتباع عليّ يتغلبون رفع أتباع معاوية المصاحف على الرماح علامة النزول عند حكم الله لا عند حكم السيوف . فأوقف القتال وأجري التحكيم . وعلى أثر ذاك ناب ابو موسى الاشعري عن علي وناب عمرو بن العاص عن معاوية يرافق كلاً منهما اربعمئة شاهد في مؤتمر بأذرح في جنوبي فلسطين على طريق الحج والقوافل . على ان حقيقة ما دار في هذا المؤتمر التاريخي يصعب استجلاؤها . وفي المصادر المختلفة روايات شتى . والرواية التقليدية تقول باتفاق الحكمين على خلع الزعيمين وجعل الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا لأنفسهم من شاءوا . فتقدم أبو موسى فخلع علياً ومعاوية معاً . أما عمرو فخدع زميله وثبّت معاوية بعد أن خلع علياً. غير ان النقاد المحدثين يقولون ان كلا من الحكمين خلع صاحبه ، وبهذا خسر عليّ مقامه باعتبار انه الخليفة المعترف به ، ولم يخسر معاوية شيئاً .

ثم ان فريقاً من أتباع علي ذهبوا الى انه ارتكب خطأ فادحاً في قبوله مبدأ التحكيم ، وخرجوا عليه فسُموا بالخوارج ، ليصبحوا أشد اعدائه نقمة عليه. وكان عددهم يبلغ أربعة آلاف فضربهم عليّ على ضفة النّهروان عام ٦٥٩ ضربة كادت تكون القاضية . ولا يزال الى يومنا هذا بقايا من الخوارج يسمون بالاباضية في شمالي افريقيا وعُمان .

وكان أحد هؤلاء الخوارج هو الذي قتل علياً في أواخر كانون الثاني سنة ٦٦١ وهو خارج من داره في الكوفة للصلاة . وبذلك

صبح للخليفة الرابع عند الشيعة أتباعه ، مقام « ولي ّ الله » وهو مقام رفيع لا يسمو عليه إلا مقام نبي الله ورسوله .

وهنا يجب ان نحترس من خطأ وقع فيه الكثيرون وهو ان الخلافة وظيفة دينية . والواقع ان مقابلتها برئاسة الامبراطورية الرومانية المقدسة ورئاسة الكنيسة الكاثوليكية لتُضلنا سواء السبيل . فالخليفة في الدرجة الاولى أمير للمؤمنين عليه تدبير جيوش الاسلام . لهذا ارتكز منصبه على اساس حربي . وهو في الوقت نفسه إمام له حق التقدم في الصلاة والقاء الخطبة . ولكن هذا الحق شائع يجوز لاقل المسلمين قدراً ممارسته . فالخلافة اذاً اقتصرت على الناحية السياسية ولم تتناول الناحية الروحية لأن صفة النبي الروحية جاءت عن طريق الرسالة وانتهت زعامته الدينية بموته ، وما كان لأحد ان يخلفه فيها وهو خاتَم النبين . أما صلة الخليفة بالدين فلم تخرج عن حد الغيرة عليه . فهو حامي الدين بالمعنى المألوف عند ملوك أوروبا السالفين ، يُفرض عليه قمع أهل الزيغ والالحاد ومحاربة البدع ، وخوض غمار الجهاد توسيعاً لدار الاسلام . وبسبيل تحقيق هذا كله استخدم الخليفة سلاحه الدنيوي .

أما الفكرة التي تداولها ابناء الغرب من ان الخليفة أشبهُ بالبابا ومن ان له سلطة دينية على جميع المسلمين في العالم فلم تظهر حتى اواخر القرن الثامن عشر . وقد استغل هذه الفكرة الداهيةُ عبد الحميد لتقوية هيبته في أعين الدول الاوروبية التي سيطرت يومئذ على معظم البلدان الاسلامية في آسيا وافريقيا . ثم انه في

أواخر القرن الماضي ظهرت حركة غامضة اتخذت الجامعة الاسلاميه اسماً لها ، وحاولت توحيد القوى وتوجيه الهمم في مجرى واحد لمقاومة الدول الغربية . فاتجهت الأنظار نحو تركيا بصفتها مركز الخلافة . وبحكم الطبع أيدت هذه الحركة صفة الخلافة الدينية الشاملة .

وبقتل عليّ استتب الأمر لمعاوية . وكان معاوية داهية بني أمية . وفي خلافته اتجه مبدأ سيادة الدولة اتجاهاً جديداً اذ اصبحت الخلافة سُلالية ترتكز على مبدأ وراثي لا على مبدأ شبه انتخابي (المبايعة) كما كانت من قبل . ولقد تعاقبت ثلاث خلافات سلالية عظيمة في المدة التي يتناولها هذا الكتاب ، أولها الأموية وقد ابتدأت سنة ٦٦١ بخلافة معاوية في الشام ، وثانيها العباسية في بغداد من سنة ٧٥٠ إلى ١٢٦٨ ، وثالثها الفاطمية — وعاصمتها في اكثر هذه المدة القاهرة — من سنة ٩٠٩ إلى ١١٧١ ، وهي السلالة الوحيدة الهامة التي ادعت انها تنحدر من عليّ . وكانت هناك سلالة اخرى ازدهرت في الأندلس وهي فرع من الخلافة الأموية وعاصمتها قرطبة . ودامت من سنة ٩٢٩ الى ١٠٣١ . وليس من شك في ان مبدأ التسلسل والوراثة هذا قد ساعد في خلق جوّ سياسي مستقر ، غير انك قلما تجد مدة طويلة في تاريخ الاسلام لم تعكر جوها الحروب الداخلية . كما انك تجد أزمنة كان فيها الخليفة حاكماً بالاسم لا يمارس سلطته حتى في عاصمته .

وفي بدء حكم معاوية قامت حركة أخرى كان لها شأن كبير

في الأجيال التي تلت ، أعني اعلان أهل العراق الحسنَ بن علي الخليفة الشرعي . ولعملهم هذا اساس منطقي لأن الحسن كان اكبر ابناء عليّ وفاطمة ابنة النبي الوحيدة الباقية بعد وفاته. ولكن الحسن الذي كان يميل الى الترف والبذخ لا الى الحكم والادارة لم يكن رجل الموقف . فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه إياها معاوية . وتوفي الحسن في الخامسة والأربعين . والراجح انه مات مسموماً . أما الشيعة فتعزو مقتله الى معاوية . وتجعل الحسن شهيداً لا بل سيد الشهداء اجمعين .

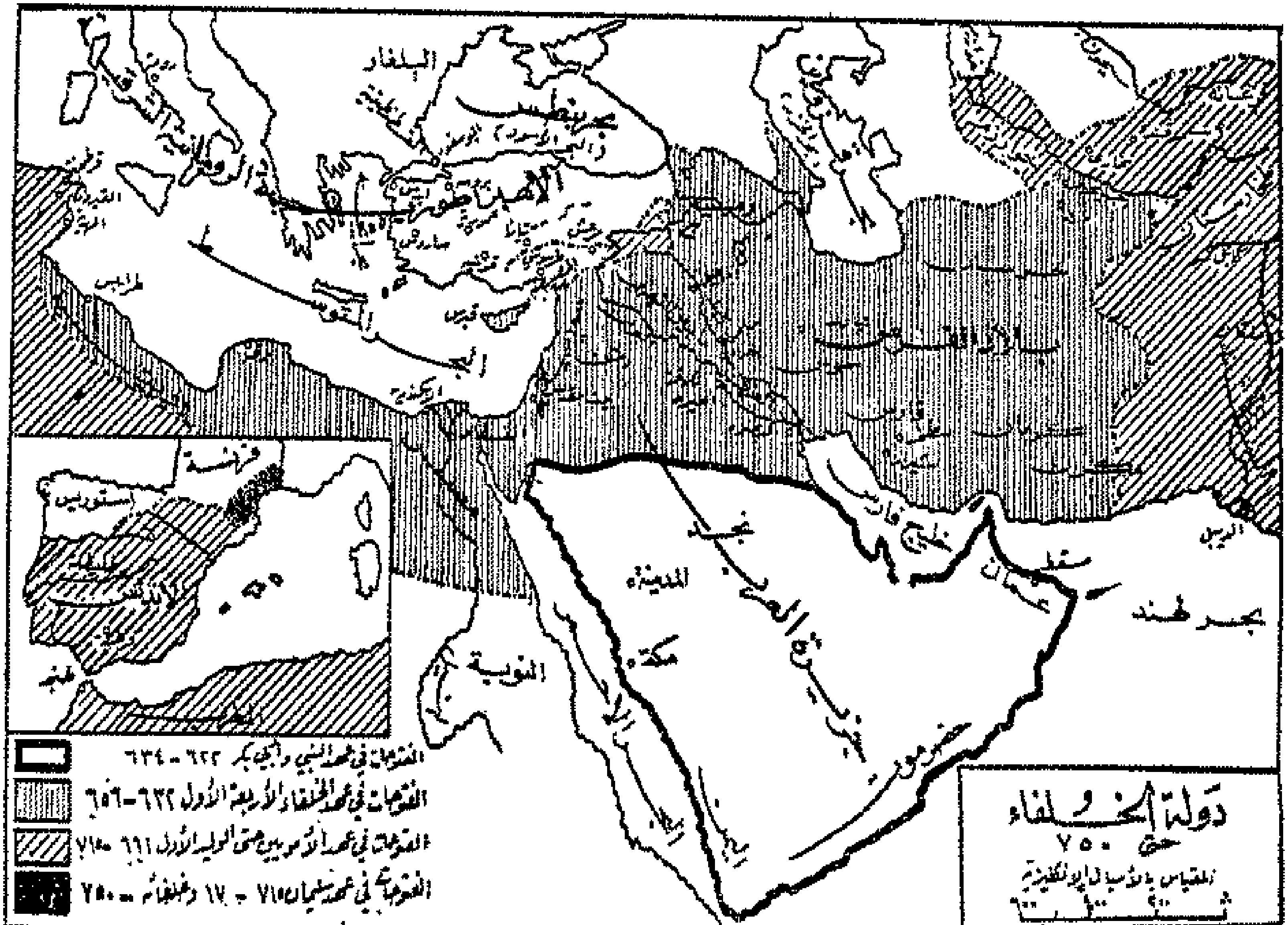
وكان أخوه الحسين الذي آثر العزلة أيضاً ينزل المدينة طيلة خلافة معاوية . حتى اذا دعي الى البيعة ليزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ أبى اباءً شديداً . واتصل به اهل الكوفة الذين كانوا بايعوه من بعد عليّ والحسن ، وتابعوا الرسائل اليه حتى حملوه على القبول ، فخرج متوجهاً الى الكوفة ومعه جماعة فيهم نساؤه ومن والاه . فأرسل عامل الأمويين على العراق جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف مقاتل عليهم عمر بن سعد . فوافى الحسين في كربلاء ، وذلك في العاشر من محرّم سنة ٦١ هـ. (١٠ تشرين الأول سنة ٦٨٠) وكان الحسين قد نزلها مع جماعته وعددهم مائتان . وآثر الحسين القتال على الاستسلام فأحاط به رجال الأمويين من كل ناحية وقاتلوه حتى فني اصحابه. ثم قتل سبط الرسول قتلة شنعاء. واحتزّ رأسه فحمل مع اهله الى يزيد بدمشق، فأمر بردّ الرأس الى اخت الحسين وابنه فدفن مع الجسد في كربلاء . والعالم الشيعي يخلد ذكرى الحسين بما يقيمه له كل

سنة في العاشوراء (عاشر محرّم) من مظاهر الندب والحداد مراعياً في ذلك مقامه من الرسول وبطولته وآلامه وصبره .

وكان معاوية ذا مقدرة عظيمة في الادارة، فخلق من الفوضى السائدة مجتمعاً اسلامياً منظماً . ونظّم اول جيش مدرّب عرفه الاسلام ، وأسس أول ديوان للتسجيل في الدوْلة الاسلامية ، وسعى لانشاء مصلحة للبريد عمت فيما بعد جميع اجزاء الدولة وربطتها بعضها ببعض .

أما في الحنكة السياسية فلم يجارِ معاوية أحدٌ من الخلفاء ويذهب مؤرخو سيرته من العرب الى ان حلمه كان اسمى مناقبه . فلم يكن يستعمل الشدة إلا متى رأى استعمالها محتماً ، اما في غير ذلك فكان يحاول استرضاء مقاوميه بالوسائل السلمية وكان ابداً سيد الموقف . فجرّد عدوه من عدائه ، وأخجل مقاومه بلطفه ولينه . وكان بطيء الغضب ، عذب المزاج ، ضابطاً لثورات النفس . ومن اقواله الدالة على تصرّفه : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني . ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ... اذا مدّوها خليّتها وإذا خلوها مددتها » . وهاك كتاباً قيل إنه بعث به الى الحسن بن علي عند نزوله عن الخلافة له : « اما بعد فأنت أولى بهذا الأمر وأحق به لقرابتك. ولو علمت انك اضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لبايعتك ، فسل ما شئت . » وفي داخل الكتاب صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها أن اكتُب ما شئت من اموال وعقار. فكانت النتيجة ما ذكرنا سابقاً.

وقاتل معاوية البيزنطيين وكذلك فعل الخلفاء الذين عقبوه. وحاول مرتين إخضاع القسطنطينية نفسها. وفي خلال إمارته على الشام في أيام عثمان تعرض اسطول الاسلام لقوة بيزنطية البحرية ، وتغلب عليها في اول معركة بحرية عظيمة في تاريخ الاسلام — ذات الصواري . وهي معركة دموية وقعت قرب شاطىء ليسيا في آسيا الصغرى . اما القسطنطينية فلم تسقط ، وبقيت في يد البيزنطيين حتى ايام الاتراك . وعجز العرب عن ان يثبّتوا أقدامهم في آسيا الصغرى. او ان يعبروا مضيق الدردنيل لذلك وجهوا جهودهم الى التوسع شرقاً وغرباً حيث كانت المقاومة على اقلها . وهكذا استأنف الاسلام في اواخر ايام معاوية مسيره الى الامام والى العلاء.



دولة الخلفاء
حتى ٧٥٠
المقياس بالأميال الإنكليزية
الفتوحات في عهد النبي وأبي بكر ٦٢٢ - ٦٣٤
الفتوحات في عهد الخلفاء الأربعة الأول ٦٣٢ - ٦٥٦
الفتوحات في عهد الأمويين حتى الوليد الأول ٦٦١ - ٧١٥
الفتوحات في عهد سليمان ٧١٥ - ١٧ والخلفاء - ٧٥٠
جزيرة العرب
المدينة
مكة
نجد
خليج فارس
عمان
بحر الهند
النوبية
حضرموت
بحر بنطس
الإمبراطورية
البلغار
فرنسة
إستوريس
طنجة

فتح الأندلس

انتهى الدور الاول من الفتوحات الاسلامية باستيلاء المسلمين على سورية والعراق وفارس ومصر . وتلاه اضطرابات داخلية لم يطل امرها .

وبدأ الدور الثاني من الفتوحات بحملة شديدة اتجهت شرقاً ، فعبرت نهر جيحون ، الحد الفاصل في عرف التقاليد بين ايران وطوران ، اي بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية . وتابعت تقدمها الى بلاد المغول الخارجية . وسقطت في ايدي المسلمين بخارى وشاش وسمرقند وهي المدن التي كان لها شأن كبير في تاريخ الاسلام اللاحق . وتوطدت سلطة الاسلام في آسيا المتوسطة الى درجة اضطرت الصينيين الى ان يخلدوا الى السكينة . ومن هذه الحملة توجهت فرقة الى الجنوب فاجتازت البلاد المعروفة اليوم ببلوخستان . وفي عام ٧١٢

استولت على السند واسفل وادي الأندس وارض الدلتا منــه (سندو) . واتسع مدى الفتوحات الى مُلتان في جنوب البنجاب وهي مزار بوذي شهير. واعتنقت المقاطعات الهندية على الحدود الاسلام ، ولا تزال عليه حتى اليوم ونشأ عن ذلك قيــام دولة باكستان عام ١٩٤٧ . وبذلك احتك الاسلام بثقافة جديدة هي الثقافة البوذية .

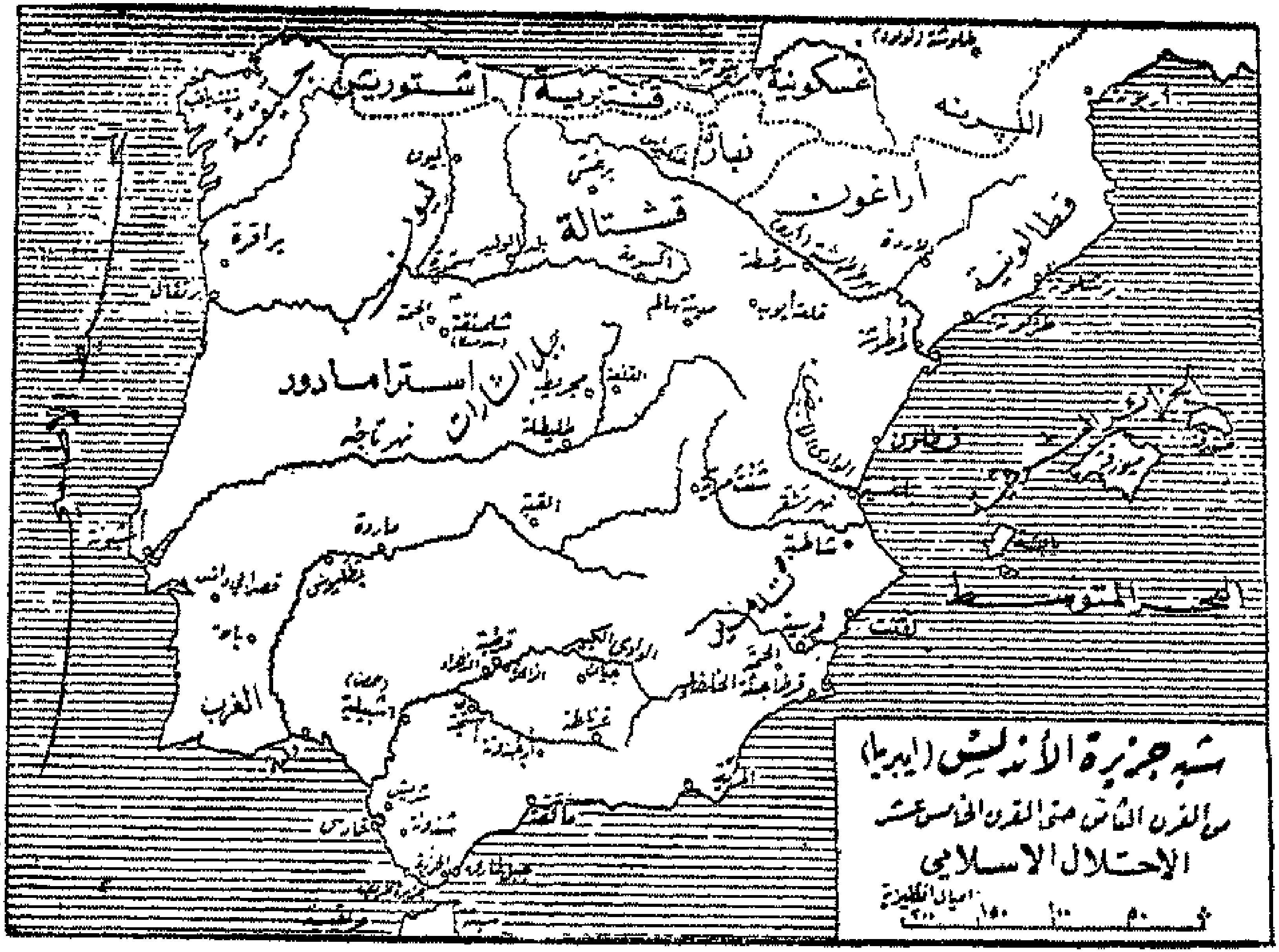
واصطدمت الموجة العربية في الجبهة الشمالية الوسطى مرة اخرى بالقسطنطينية . فجرى الحصار المشهور الذي دام من آب ٧١٦ الى ايلول ٧١٧ والذي حالت فيه سلسلة حديدية متينة دون مرور الاسطول العربي الى القرن الذهبي .

على ان اروع الحملات الاسلامية واوسعها مدى هي الــتي اتجهت غرباً . وكان العرب قد اخترقوا افريقيــا الشمالية الى قرطاجنة القديمة . وقاد هذه الحملة موسى بن نصير وهو من مواليد الشام ، وقد كان من ابرز قواد الاسلام . وتوغل المسلمون في بلاد البربر ، والبربر ينتمون الى الفرع الحامـي من الجنس الابيض . والراجح انهم والساميون من أصل واحد. وكان معظم هؤلاء البربر الذين قطنوا السواحل قد اعتنقوا النصرانية قبل الفتح الاسلامي . وفي هذه الربوع نشأ القديسون ترتليانوس وقبريانوس واوغسطينوس وغيرهم من آباء الكنيسة الأول. أما في داخل البلاد فلم تؤثر الحضارة الرومانية او البيزنطية في الشعوب الاصلية تأثيراً محسوساً لأنها كانت أجنبية وغريبة عن عقلية اهالي افريقيا الشمالية من البدو وشبه البدو .

والظاهر ان الاسلام كان له تأثير خاص في الشعوب التي في مستوى البربر الثقافي . فما اسرع ما استطاع العرب الساميون توثيق عرى الاتصال بأبناء عمهم الحاميين . وكما ان الاسلام في اواسط آسيا عرّب الاقوام لغة ودينا كذلك فعل الآن في الاقوام البربرية . وهكذا اغتنى دم المسلمين الفاتحين بامتزاجه بدماء جديدة. وتسنى للغة العربية مجال واسع للانتشار. وتوطدت قدم الاسلام واخذت تتدرج في معارج الرقي نحو السلطة العالمية الشاملة .

وليس في تاريخ القرون الوسطى الحربي ما يماثل الحملة العربية على بلاد الاسبان من حيث الجرأة وسرعة الانجاز والنجاح التام . ولقد بدأت هذه الحملة في شهر تموز من عام ٧١١ بنزول فرقة الاستطلاع التي قادها طريف والمؤلفة من اربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان — كلهم بربر من جنود موسى عامل بني أمية في افريقيا — الى شبه جزيرة صغيرة سُميت طريفة باسم قائد الفرقة . وهي اقصى نقطة جنوبية من القارة الاوروبية .

واستطاع موسى الذي كان قد تولى الامارة على افريقيا منذ سنة ٦٩٩ ان يجلي البيزنطيين عن الاراضي الواقعة غربي قرطاجنة. ثم تدرج بفتوحاته الى الاوقيانوس الاطلنطي توطئة لشن الغارة على اوروبا. وشجعه على ذلك ما كان من نجاح الغزوة الاولى وما عرفه من التضعضع والاضطراب السياسي بين اعضاء الاسرة القوطية الغربية الحاكمة . والحق ان اكبر دافع له كان الغنيمة



شبه جزيرة الأندلس (ايبيريا)
من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر
الاحتلال الاسلامي
اشتوريش
قنتبرية
غسكونية
نبارة
أراغون
قطالونية
قشتالة
استرامادور
البحر المتوسط
الغرب
نهر تاجه
مارِدة
باجة
بطليوس
شاطبة
غرناطة
مالقة

لا الفتح . فأوفد في عام ٧١١ الى الاندلس مولىً له بربرياً كان قد أعتقه يدعى طارق بن زياد على رأس سبعة الآف رجـــل اكثرهم من البربر . فنزل بهم طارق الجبل الذي خلد اسمه فعُرف منذ ذاك الحين بجبل طارق . وجاز الغزاة المضيق الى الأندلس ، وعرضه ثلاثة عشر ميلاً ، في مراكب قدّمها لهم أليان حاكم سبته على ما جاء في الروايات .

ووصلت طارقاً الأمداد فالتقى في ١٠ تموز عام ٧١١ على رأس اثني عشر الف رجل بجيش للذريق عند مصب وادي بكّه (نهر سلادو). وكان لذريق قد خلع سلفه ابن غَيطَشه واغتصب عرشه . فاشتبك الجيشان فدارت الدائرة على القوط ، وكان عددهم نحواً من خمسة وعشرين الفاً ، فانكسروا انكساراً تاماً وتشتتوا . أما حدث للذريق فــلا يزال سراً غامضاً . ويكتفي مؤرخو الاسبان والعرب بالقول انه اختفى .

بعـــد هذا الفوز الحاسم هان توغل المسلين في اسبانيا ، فلم يلقوا مقاومة شديدة إلا في المدن التي كان يحميها فرسان القوط . واتجه طارق وسواد جيشه الى عـــاصمة الاسبان طُلَيطُلة عن طريق أستجة فاحتلها . وقد ساعده على ذلك خيانة بعض أهلهـا من اليهود . وأنفذ طارق بعض الفصائل الى المدن المجاورة لكنه أعرض عمداً عن إشبيلة في الجنوب لمناعة حصونها . واحتلت فرقة من الجيش جذونة دون أي مقاومة . واحتلت فرقة ثانية إلبيرة وهي قرب البقعة القائمة فيها غرناطة اليوم . وهاجمت فرقة ثالثة من الفرسان قرطبة فحاصرتها مدة شهرين . ويقال ان

الذي مهد لفتح هذه المدينة التي صارت فيما بعد عاصمة المسلمين راعٍ خائن دلهم على ثغرة في سورها. أما أشد معارك هذه الحملة فوقعت عند استجه . وان الظفر فيها للمسلمين . وهكذا اصبح طارق الذي جاء الاندلس في ربيع عام ٧١١ على رأس غزوة بسيطة سيّد نصف اسبانيا في آخر فصل الصيف من هذه السنة . وبذلك قضى على مملكة بأسرها .

وحسد موسى مولاه طارقاً لما أصابه من ظفر عظيم لم يكن يتوقعه . فأسرع في حزيران من عام ٧١٢ الى الاندلس على رأس عشرة آلاف من العرب والسوريين العرب متوجهاً الى المدن والحصون التي لم يدخلها طارق كمدينة شذونة وقرمونة . أما إشبيلية اكبر مدن الاندلس وارقى مراكزها الفكريـة (وقد كانت عاصمة الرومان قبل تغلّب القوط على البلاد) فقد ظلت محاصرة حتى آخر حزيران من عام ٧٣١ ، وكانت أشد مقاومة جابهها موسى في حملاته عند مدينة ماردة . فحاصرها مدة ، ثم احتلها بهجمة عنيفة في اول حزيران من عام ٧١٣ .

وكان اجتماع موسى بطارق في طُلَيطُلة او بالقرب منها . ويروى ان موسى هنا وبخ طارقاً وضربه بالسياط ، وقيـده بالسلاسل لخروجه عن اوامر سيده بتقدمه السريع في اوائل حملته . على ان الفتح لم يقف عند هذا الحد . فسار موسى تواً الى سَرَقُسطة في الشمال فافتتحها . وغزت جنوده مرتفعات أراغون وليون وأستورية وجليّقية . وفي خريف هذه السنة استدعى الخليفة الوليد موسى عامله في افريقيا ووجه اليه التهمة نفسها التي

كان موسى اتهم بها طارقاً – وهي تهمة الاستقلال بالأمر دون مراجعة السلطة العليا .

وغادر موسى الاندلس مستخلفاً عليها ابنه الثاني عبد العزيز. وسار متباطئاً حتى قدم الشام يصحبه طارق وضبـاط الجيش واربعمائة امير قوطي على رؤوسهم التيجان وعلى أوساطهم مناطق ذهبية ، يتبعهم عدد غفير من الغلمان والسبي ، حاملين مقادير عظيمة من الكنوز والغنائم. ويلذ كثيراً لمؤرخي العرب الاسراف في وصف هذا الموكب الفخم الذي سار من اسبانيا عبر افريقيا الشمالية من الغرب الى الشرق حتى بلغ اخيراً العاصمة الشامية . وهو وصف يُذكّر بمواكب الظفر التي سار على رأسهـا قواد الرومان القدماء . وكانت أخبار الموكب قـد سبقته الى دمشق فتلقى موسى عند وصوله طبرية في فلسطين اوامر من سليمان ولي عهد الخلافة يُشعره فيها بوجوب تأخير دخوله العاصمة اذ أنه أراد أن يصادف وصول هذا الموكب ارتقاءه كرسي الخلافة بعد أخيه الوليد العليل فيزداد رونقاً .

ودخل موسى دمشق في شباط عام ٧١٥ يصحبـه الأمراء القوطيون بملابسهم الرسمية وعليهم الحلى والجواهر . والظاهر ان الوليد رحّب بهم في احتفال مهيب في بهو الجامع الفخم . وكان ذلك أبهى استقبال في تاريخ الفتوحات الاسلامية اذ شاهد المسلمون لأول مرة مئات من أبناء أسرة أوروبية مالكة والوفاً من سبي الأوروبيين يقدمون الطاعة لأمير المؤمنين .

وكان في التحف النفيسة التي قدمها موسى للخليفة المائدة

العجيبة التي نسبت الخرافات صنعها للجن في خدمة الملك سليمان، وزعمت ان الرومان نقلوا هذه التحفة الفنية الفريدة من بيت المقدس الى عاصمتهم ، ليأخذها القوط منهم فيما بعد ، فكان كل واحد من ملوكهم ينافس سالفه في ترصيعها بالحجارة الكريمة وقد حفظت هذه المائدة في كاتدرائية طليطلة . ولعل طارقاً غنمها يوم هرب بها اسقف العاصمة . حتى اذا التقى موسى بطارق في طليطلة ضربه بالسياط واغتصبها منه . ويحكى ان طارقاً كان قد أخفى إحدى قوائمها . فلما كان هو وموسى في حضرة الخليفة ابرز هذه القائمة كدليل على انه هو الذي غنم المائدة فصدقه الوليد وأعظم جائزته .

وحلّ بموسى ما حل بكثير غيره من قواد العرب البارزين . فقد أذلّه الخليفة سليمان، وعاقبه بالوقوف يوماً كاملاً في حرارة الشمس حتى وقع مغشياً عليه ، وصادر أمواله وجرده من كل سلطة . وآخر عهد لنا بموسى فاتح افريقيا واسبانيا مستعطياً في قرية نائية بالحجاز وهو طاعن في السن .

أصبحت اسبانيا الآن ولاية من ولايات الخلافة ، فأطلق عليها العرب اسم الاندلس تحريفاً لاسم الولاية الجنوبية التي كان قد احتلها الفندال من قبائل الطوطون الجرمانية . ولم يبق موسى لخلفه إلا مقاطعات صغيرة في الشمال والشرق يفتحها وبعض الثورات يقمعها . وتم فتح هذه البلاد كلها وضمها الى ملك العرب في خلال سبع سنين . وهي من أكبر أقطار اوروبا في العصور الوسطى وأجملها . وقد قيّض لهؤلاء الفاتحين ان

يحكموها قروناً .

أما اسباب هذا الظفر الذي قد لا يكون له مثيل في التاريخ فيمكن استجلاؤها من هذه الحوادث التي سردناهـا بإيجاز . وأولها ان الفرق القومي بين القوط الغربيين الذين دخلوا اسبانيا في اوائل القرن الخامس ، وهم من برابرة الطوطون ، وبين اهل البلاد الاسبان الرومانيين كان لا يزال ظاهراً . وقد جاهد هؤلاء القوط زمناً طويلاً قبل ان استولوا على البلاد من الأقوام الجرمانية التي سبقتهم كالسويفي والفندال . وحكم ملوك القوط البلاد حكماً مطلقاً عاتياً ، وظلوا محافظين على المذهب الآري في المسيحية حتى عام ٥٨٧ حين قبل احدهم ، واسمه ركارد ، الكثلكة مذهب اهل البلاد الاسبان الذين كانوا يمقتون حكم القوط ويحسبون مذهبهم بدعة . أما طبقة العبيد والاقنان وهي تشمل قسماً كبيراً من السكان فلم تكن راضية عن نصيبها . فلا عجب ان ساعد هؤلاء المستعبدون الفاتحين ومهدوا لهم سبل الفتح . وكذلك نقم اليهود على حكم القوط لما اصابهم من الاضطهاد على أيدي ملوك القوط الذين حاولوا تنصيرهم قسراً . وكان أحدهم قد اصدر في عام ٦١٢ أمراً يقضي على اليهود بأن يختاروا بين المعمودية وبين التعرض للنفي ومصادرة الاموال . وهذا ما حدا بالمسلمين الى ان يتركوا بعض المدن التي فتحوها في عهدة اليهود ويتقدموا لمواصلة الفتح في اسبانيا .

ولا بد ان نذكر ان الخلاف السياسي الذي كان استفحل أمره بين الاسرة المالكة وبين طبقة النبلاء من القوط انفسهم ، والنزاع

الداخلي في البلاد زعزعا اركان الدولة . ففي أواخر القرن السادس انتهى هؤلاء النبلاء الى ان يكونوا أصحاب السيادة في مقاطعاتهم . ورافق الفتح الاسلامي قيامَ أحدهم واغتصابه العرش من أخيلا بن غيطشة . ولكن أقرباء أخيلا خانوه . فاعتز أخيلا (الملك المخلوع) بقدوم العرب . وظن لأول وهلة أنهم آتون لنجدته . لكنه قنع بعد ان احتل المسلمون طليطلة العاصمة باسترجاع أملاكه في هذه المدينة ، وعاش فيها محفوفاً بما أراده من مظاهر الابهة . وتقلد عمه الاسقف أوبّاس منصب رئيس ابرشية العاصمة . أما الدور الذي لعبه حاكم سبتة الذي قيل انه أمد الجيش العربي بالمراكب التي اجتاز بها المضيق فقد بولغ فيه كثيراً .

وأزال سقوط سرقُسْطة أحد الحواجز الاخيرة بين اسبانيا وفرنسا ، ولكن بقي أمام العرب حاجز منيع هو جبال البرانس. على أن موسى لم يقطع هذه الجبال ، على الرغم من أن بعض مؤرخي العرب ينسب اليه هذا العمل الباهر ،ابتغاءَ اجتياز بلاد الفرنجة الى الشرق عن طريق القسطنطينية الى دار الخلافة في دمشق . ولا يستغرب ان يكون شيء من هذه الاحلام قد جال في مخيلات هؤلاء الفاتحين لأن معرفتهم بجغرافية اوروبة كانت قاصرة . والواقع ان اول من قطع سلسلة جبال البرانس هو ثالث خلفاء موسى على الاندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي . وذلك في عام ٧١٧ أو ٧١٨ .

ومما أغرى الحرّ بهذه المغامرة كنوز الاديرة والكنائس في

فرنسا . وشجعه عليها اضطرابات داخلية بين قوات البلاط الميروفنجي ودوقات أكوتانيا . فجرد حملات تابعها من بعده خلفه السمح بن مالك الخولاني . وفي عام ٧٢٠ استولى السمح على سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط المنقرضة . ثم احتل اربونة التي جعلها العرب بعدئذ حصناً منيعاً يشتمل على دار لصناعة المعدات الحربية ومستودع للأسلحة والمؤونة . ولكن محاولته في السنة التالية في سبيل اكتساح تولوز كرسي دوق اكوتانيا باءت بالفشل لما لاقاه المسلمون من صلابة عود المدافعين. وهنا استشهد السمح . وبهذا الفشل تم أول انتصار لأمير جرماني على جيش عربي . وجاءت غارات العرب اللاحقة فيما وراء جبال البرانس غير موفقة .

وقاد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، خلف السمح في اسبانيا ، آخر حملة وأشدها خطورة . فتقدم قاطعاً سلسلة جبال البرانس الغربية في مستهل ربيع ٧٣٢ . فقهر دوق اكوتانيا على ضفتي نهر غارون ، ثم هاجم بوردو بعنف شديد وأضرم النار في كنائسها . وبعد أن أحرق الباسيليكا القائمة خارج أسوار بواتيه ، زحف شمالاً حتى جوار مدينة تور . وقد كانت تور أشبه بعاصمة دينية لسكان بلاد الغال لكونها مرقد القديس مارتينوس الذي تنسب اليه التقاليد تنصير الغاليين. ولا ريب ان الذي جذب الغزاة اليها ما حواه مزارها من التقدمات النذرية الفاخرة .

وهنا بين تور وبواتيه التقى عبد الرحمن بشارل محافظ البلاط

المروفنجي الذي لُقب فيما بعد بمارتل (أي المطرقة) والذي استنجد به دوق اكوتانيا. وكان شارل رجلاً شجاعاً جريئاً أخضع أعداء كثيرين واضطر دوق اكوتانيا الذي كانت له صفة الاستقلال بادارة مقاطعته الى ان يعلن الطاعة الاسمية للفرنجة الشماليين. ومع ان شارل — وهو ابن غير شرعي لبيبين الهرستالي — لم يكن ملكاً فانه تصرّف تصرّفَ الملوك.

وقف الجيشان — الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن والجيش الفرنجي تحت امرة شارل وأكثر أفراده (أي جيش الفرنجة) من المشاة اللابسين جلود الذئاب وقد تدلت ذوائبهم المتلبدة على أكتافهم — احدهما في وجه الآخر مدة سبعة أيام يرقبون فيها التحام المعركة. وطال أمد المناوشات حتى كان يوم سبت من تشرين الاول عام ٧٣٢. فبدأ القائد العربي الهجوم. أما جند الفرنجة — حسب وصف مؤرخ غربي — فقد ألفوا من أنفسهم في وطيس المعركة شكلاً هندسياً مربعاً مجوفاً ووقفوا متراصين كتفاً الى كتف، وصمدوا أمام ضربات العدو كركام من جليد لا تزعزعه العواصف. وترامت فرسان العرب الخفيفة العدة على هذا الجمع المتراصّ فلم تنل منه أرباً. وصمد الفرنجة في مراكزهم يجندلون كل مهاجم دنا منهم. وقد كان ممن سقط في هذه الملحمة عبد الرحمن نفسه. وأسدل الظلام حجاباً على الجمعين ستَرَ أحدهما عن الآخر. وما طلع فجر اليوم التالي حتى خُيل لشارل ان السكينة المخيمة على معسكر العدو هي خدعة. فبعث الجواسيس يستطلعون حقيقة الأمر فثبت لهم ان

العرب انسحبوا تحت جنح الظلام بعد أن أخلوا مضاربهم . وبذلك تم النصر لشارل .

وقد زوّقت أساطير الغربيين يوم بواتيه أو تور وأسرفت في المبالغة بأهميته التاريخية . وعدّه المسيحيون آخر حلقة في سلسلة الفتوحات التي ابتدأت منذ قرن في البلاد العربية . ويقول المؤرخ الانكليزي غيبون Gibbon وتابعوه من المؤرخين انه لو انتصر العرب في ذلك اليوم لكنت ترى المساجد لا الكنائس في باريس ولندن ، ولسمعت تفسير القرآن لا الكتاب المقدس في جامعة اكسفورد وغيرها من معاهد العلم في الغرب . وبعض المؤرخين المحدّثين يعد معركة تور هذه احدى معارك التاريخ الفاصلة .

والواقع ان هذه المعركة لم تفصل شيئاً . فالموجة المؤلفة من العرب والبربر كانت قد استنفدت كثيراً من قوتها فوصلت الى حدّ طبيعي من التوقف اذ بعدت عن جبل طارق ، نقطة بدايتها ، نحو الف ميل . وكان قد دب الخلاف الداخلي بين العنصرين اللذين تكوّن منهما جيش عبد الرحمن (أعني العرب والبربر) وبدت طلائع الضعف في معنوياته . ولم يكن للعرب أنفسهم شعور يوحدهم أو هدف يجمعهم . والواقع انه وإن كُبح جماح العرب عند هذه المرحلة فقد واصلوا غاراتهم في جهات أخرى .

ففي عام ٧٣٤ مثلاً احتلوا افنيون ، وبعد مضي تسع سنين اغاروا على ليون ، ولم تفلت أربونة المعقل العسكري من

قبضتهم حتى عام ٧٥٩ . فالانكسار بالقرب من تور اذاً لم يكن سبب توقف العرب الرئيسي ، ولكنه جاء بمثابة حد أقصى لما بلغته الجيوش الاسلامية من الظفر .

وامتدت الامبراطورية الاموية بعد وفاة النبي بمائة عام من حدود الصين الى غالية . وأصبحت دمشق – البلد الذي تقول الرواية ان محمداً أحجم عن دخوله لأنه أراد أن يرى الجنة مرة واحدة – عاصمة هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . وفي وسط هذه المدينة قام قصر الامويين متأنقاً يطل على السهول الخصبة الممتدة الى الجنوب الغربي حتى الجبل الشيخ المكلل بالثلوج . وكان بانيه معاوية مؤسس السلالة الاموية ، فأقامه بجانب الجامع الأموي الذي زينه الوليد وجعله آية هندسية لا تزال تجذب اليها عشاق الفن الجميل . وفي ردهة الاستقبال كان مقعد العرش المربع تغطيه المساند المزركشة الفاخرة ويجلس عليه الخليفة في الجلسات الرسمية بثيابه الفضفاضة متربعاً . وكان يقف عن يمينه العصبة من اقربائه مصطفين حسب الاقدمية في السن ، وعلى شماله ذوو الارحام منهم ، وخلفه بطانته والشعراء والملتمسون . أما المجالس ذات الصفة الرسمية الممتازة فكانت تعقد في الجامع الأموي العظيم . وهو لا يزال حتى يومنا هذا من افخم المعابد في العالم وأبدعها . ولعل الخليفة استقبل موسى وطارقاً مع اسرارهم وكنوزهم في مجلس كهذا . ففي هذه الحقبة الاموية بلغت العروبة أعلى قمم مجدها ، وانتهى الاسلام الى آخر مرحلة من مراحل تقدمه وسيره .

بدء الحياة الثقافية والاجتماعية

نتنهي الآن في بحثنا هذا الى الناحية الرئيسية في التاريخ الاسلامي ، وننتقل من سرد احداث المعارك والفتوح الى ما هو أكثر خطورة ، أعني التقدم الفكري والتطور الثقافي في الامبراطورية الاسلامية نفسها وما رافقها من نهضة أدبية في العلم والطب والفن وهندسة البناء . في هذا الطور كانت فتوح العربي عن طريق العقل لا عن طريق السيف ، وذلك بالاستعانة بذخائر الآداب والعلوم اليونانية والسريانية والفارسية والهندية منقولة الى العربية .

ومن الحقائق الرائعة أن طبيعة الحياة اليوم في دمشق وعادات سكانها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه مذ كانت عاصمة الامويين . في ذلك العهد كان في دمشق وغيرها من المدن الكبرى أحياء خاصة يسكنها العرب محافظين فيها على الانتساب القبلي ،

واليوم لا تزال هذه الاحياء في دمشق وحمص وحلب مستقلة عن سواها .

وكان سكان الامبراطورية ينقسمون الى أربع طبقات اجتماعية . وكانت الطبقة العليا تتألف من الفئة المسلمة الحاكمة ، وعلى رأسها اسرة الخليفة والارستقراطيون من العرب الفاتحين . ولا يُعرف بالتدقيق عدد هذه الطبقة ولكنها بلغت في حمص والشام عدداً يتراوح ما بين العشرين والخمسة والاربعين الفاً .

وكانت الطبقة الثانية تتألف من الموالي أي المحدثين في الاسلام ممن قبلوا رسالة محمد طوعاً أو كرهاً ، وكان لهذه الطبقة حقوق في الجنسية الاسلامية بالاسم لا بالفعل ، وذلك لأن الأثرة (الشوفانية) العربية كانت قوية الى حد لم تستطع معه هذه الحقوق النظرية ان تتحقق في الواقع ، اذ لم يكن الاعتراف بها الا ظاهرياً . ولا شك في ان مالكي الأراضي أجبروا على دفع الخراج طوال معظم العهد الاموي سواء أكانوا من المؤمنين أم من غير المؤمنين . ومما لا ريب فيه أيضاً أن أكبر العوامل التي سببت التناقص في دخل الدولة كان كثرة عدد الداخلين في الاسلام ، لأن الجزية تسقط بالاسلام .

وأدرك الموالي انهم كانوا في أحط المراتب الاجتماعية في البيئة الاسلامية ، فاستنكروا هذا الوضع ولم يقنعوا به بحال ، وهذا يوضح السبب الذي حملهم على تأييد حركات الشيعة في العراق والخوارج في فارس وغير ذلك من الحوادث التي أثارت نزاعاً مستديماً في الاسلام وأسالت دماء غزيرة . الا ان بعضهم برهنوا

عن تشبث بالدين الجديد أكثر من أصحابه وتحمسوا له الى درجة من التعصب جعلتهم يضطهدون غير المسلمين . وكان اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الاسلام من أشد المسلمين الأول صلابة في عدم التسامح .

ولما كان معظم هؤلاء الموالي أبناء ثقافة عريقة في القدم فليس عجيبـــاً ان يكونوا أول من أقبل في البيئة الاسلامية على الدروس العلمية والفنون الجميلة . وما كادوا يظهرون على اخوانهم المسلمين العرب في مجال الثقافة حتى أخذوا يطمحون الى الزعامة السياسية . ولقد تزاوجوا بالعنصر الفاتح فاختلط بهم الدم العربي حتى ضاع بين العناصر .

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من أبناء المذاهب التي تدين بالديانات المنزلة المعروفين بأهل الذمة ، وهم النصارى واليهود — والصابئة الذين كانوا قد دخلوا في عهد الاسلام . وليس من شك في ان اعتراف المسلمين بكيان هذه الطبقة ، بعد ان اشترطوا عليها التجرد من السلاح وتأدية الجزية مقابل الحماية الاسلامية ، كان من أعظم الأحداث السياسية التي جاء بها الاسلام . اونما يرجع ذلك ، أكثر ما يرجع ، الى ما كان يكنه محمد من احترام للتوراة ، في حين يرجع بعضه الى العلاقات الودية مع رؤساء بعض القبائل المسيحية العربية .

وقد تمتع أهل الذمة في هذا الوضع بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج . فكانوا يرجعون في قضاياهم المدنية والجزائية الى رؤسائهم الروحيين ، الا اذا كانت القضية

تمس مسلماً . لقد كان القانون الاسلامي أقدس من أن يطبّق على أهل الذمة . والواقع ان شيئاً من هذا النظام ظل معمولاً به حتى آخر العهد العثماني وفي زمن الانتداب في سورية وفلسطين.

أما الطبقة الرابعة فهي طبقة العبيد، وكانت في أسفل دركات الهيئة الاجتماعية . لقد احتفظ الاسلام بنظام العبيد ، وهو نظام سامي قديم أقرّته التوراة . على ان الاسلام حسّن حالة العبيد بعض الشيء . ومع ان الشرع الاسلامي منع استرقاق المسلم فهو لم يعِد الدخيل بالعتق اذا أسلم . وكان معظم العبيد في فجر الاسلام من اسرى الحرب وفيهم النساء والأحداث الذين لم يُفتدوا والذين شُروا بالمال أو أخذوا في الغزو . ومما عتّمت تجارة العبيد ان أصبحت تجارة نشيطة رابحة في جميع البلدان الاسلامية . وكان الرقيق أجناساً شتى فمنه الزنجي من افريقية الشرقية والوسطى ، والاصفر من تركستان الصينية ، والابيض من الشرق الأدنى أو من أوروبا الشرقية او الجنوبية . وكانت أثمانهم مختلفة أيضاً، فقد بلغ ثمن العبد الاسباني نحو الف دينار ، في حين ان العبد التركي لم يزد ثمنه على ستمائة دينار . ولقد نصّت الشريعة الاسلامية على ان مولود الأمَة عبدٌ سواء أكان الوالد عبداً أم حراً الا اذا كان الوالد هو سيد الأمَة واعترف بأبوّته . أما أولاد العبد من زوجة حرّة فأحرار .

ويمكننا الاستدلال على عدد العبيد الذين طما سيلهم على الامبراطورية الاسلامية بداعي الفتوحات من الروايات التالية ، وهي بلا ريب مبالغ فيها . فقد ذكروا ان موسى بن نصير

رجع بثلاثمائة الف أسير من شمالي افريقيا ، فأهدى خمسهم الى الخليفة ، وانه أخذ من بنات الاسَر القوطية النبيلة في اسبانيا ثلاثين الف عذراء . كما ذكروا ان عدد اسرى قائد واحد فقط من قواد المسلمين في تركستان بلغ مائة الف .

وكان الزواج الشرعي محظوراً على السيد وأمته . أما التسري فكان مباحاً . والأولاد الذين يولدون في حالة التسري هذه يتبعون الوالد ، فهم احرار . غير ان رتبة الأم وهي سُرّية ترتفع الى مرتبة « أمّ ولد » فلا يجوز بيعها أو اهداؤها . ومتى مات السيد أعتقَت . ولقد لعبت تجارة الرقيق دوراً هاماً في اختلاط العرب بمختلف العناصر الاعجمية لينتج عن ذلك اندماج تام بينهم وبين شعوب غريبة متعددة .

لاحظنا ان الغزاة من عرب الصحراء دخلوا الأمصار التي فتحوها خالي الوفاض من كل تقليد علمي أو تراث . ولقد حال قرب عهد الامويين من عصر الجاهلية وحروبهم الكثيرة وعدم استقرار الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي دون التقدم الفكري في بدء عهدهم . غير ان بذور الفكر الناشيء عن الثقافات السابقة من يونانية وسريانية وفارسية كانت قد زُرعت في تربة العهد الأموي . فما جاءت الدولة العباسية حتى نمت هذه البذور لتصبح أشجاراً باسقة ذات أثمار يانعة . فالعصر الأموي اذاً كان على الجملة عصر استعداد وحضانة .

وبدخول الفرس والسّريان والاقباط والبربر وسواهم حظيرةَ الاسلام وتزاوجهم بالعرب زال ذلك الحاجز المنيع الذي

وضعه الاولون بين العرب والاعاجم فلم يعد لقومية المسلم أهمية .
ومهما كانت قومية المسلم أصلاً فقد صار يُعدّ الآن عربياً . أصبح كل من اعتنق الدين الاسلامي وتكلم اللغة العربية عربياً بقطع النظر عن قوميته الأصلية . وهذا الحدث كان من أشد الأمور خطورة في تاريخ المدنية الاسلامية . فنحن اذا ذكرنا « الطب العربي » أو « الفلسفة العربية » أو «الرياضيات العربية» فلسنا نقصد بذلك ان هذه العلوم بكليتها كانت من نتاج العقل العربي ، أو ان الذين وضعوها ورقّوها هم من أبناء الجزيرة بل نعني مجموعة تلك العلوم التي وضعها في اللغة العربية رجال نشأ جلّهم في عصور الخلافة وهم فرس ومصريون وعرب من نصارى ويهود ومسلمين، وقد استمدّ بعضهم معلوماته من مصادر يونانية والبعض الآخر من مصادر آرامية أو هندية فارسية أو غيرها .

وبدأت دراسات اللغة العربية وفيها الصرف والنحو في البصرة اعلى تخوم فارس ، وكان الباعث الأول على ذلك حاجة الداخلين في الاسلام الى تعلّمها . غير أن هؤلاء أنفسهم قاموا فيما بعد بقسط وافر من هذه الدراسات . وكانت الرغبة الأولى الملحّة هي تلقين الموالي اللغة العربية كي يفقهوا القرآن ويشغلوا المناصب الادارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم . وتنص الروايات على ان واضع قواعد النحو العربية هو أبو الاسود الدؤلي (توفي عام ٦٨٨) . ولقد زعم ابن خلكان ان الخليفة وضع للدؤلي هذا الاساس وهو ان «الكلام كله ثلاثة أضرب اسم وفعل وحرف» ؛

ثم دفعه اليه وقال له « تمم هذا » فأتمّ موفقاً . على ان النحو العربي ينمّ عن نشوء طويل لم يقم به جيل بل أجيال . وقد اصطبغ في خلال نشوئه بالوان المنطق اليوناني .

وأفضت دراسة القرآن وضرورة شرحه الى ظهور علمَي فقه اللغة (الفيلولوجيا) ومفرداتها ، والى ظهور علم الحديث وهو أبرز العلوم الاسلامية . والحديث بالمعنى الاصطلاحي عمل أو قول منسوب الى النبي أو أحد الصحابة . وقد كان القرآن والحديث الأساس الذي بُني عليه علم أصول الدين وعلم الفقه . والشريعة الاسلامية أشدّ علاقة بالدين وأصوله من علم الحقوق المعروف عند ارباب القانون اليوم . ولا شك في ان الشرائع الرومانية أثّرت مباشرة ، وبواسطة التلمود وغيره في التشريع الأموي . بيد ان مدى هذا التأثير لم يتحقق بعد .

وقد شهد هذا العصر نشأة العلوم العربية التي جاء معظمها عن طريق الترجمة . وكان أقدم ما أخرج للناس رسالة في الطب نقلها الى العربية رجل يهودي عن كتاب يوناني ألفه كاهن مسيحي في الاسكندرية . واعتنى العرب في بدء نهضتهم الأدبية بعلم الكيمياء كما فعلوا بعلم الطب فأبدعوا فيها . وكان لهم فضل كبير في هذه العلوم التي اتسع مداها على تعاقب الأيام .

وازدهر فن الشعر في البلاط الاموي في دمشق . وكذلك ازدهر فن الموسيقى على الرغم من مقاومة المحافظين الذين اعتبروا في الموسيقى والغناء بمنزلة الخمر والميسر اللذين حرمها القرآن . ولا شك في ان الرقي الفكري في عهد الامويين بلغ أبعد

غاياته في صناعة الشعر . أما عصر الفتوحات السابق فقد كان مجدباً اذ لم يظهر فيه شاعر واحد في الغرب وهم أمة الشعراء . وما ان تسلم الأمويون زمام الحكم حتى استعادت آلهة الخمر والغناء والشعر منزلتها السابقة فظهر لأول مرة شاعر الحب في العربية عمر ابن أبي ربيعة المتوفى حوالى ٧١٩ ، وهو قرشي أمه يمنية جعل التعرض بحديث الحب للفتيات الجميلات القاصدات الحج دأبَه وديدنه ، وتودد الى سُكينة بنت الحسين المشهورة بجمالها وأدبها .

أما أعظم براعة فنية أظهرها المسلمون فكانت في الهندسة المعمارية ولا سيما بناء المساجد . فالمعماريون المسلمون وبعض من استُخدِموا في هذا السبيل أحدثوا في فن البناء نسقاً جديداً بسيطاً رائعاً قام على أساس من نماذج قديمة ولكنه تفرّد بميزة خاصة وهي اظهار روح الدين الجديد . ولنا ان نعتبر المسجد خلاصة لتاريخ امتـــداد الثقافة الاسلامية سواء أكان ذلك ضمن الاسلام وعناصره المختلفة أم خارج الاسلام فيما يتعلق بالامم الأخرى . فالمسجد خير مثال يمكننا أن نتخذه دليلاً على العلاقات الثقافية بين المسلمين وجيرانهم .

ولقد أصبح المسجد النبوي البسيط في المدينة على الجملة نموذجاً لمعابد القرن الاسلامي الأول . وكان أول أمره عبارة عن بهو بلا سقف بنيت جدرانه باللبِن. ثم مد النبي سقف البيوت المجاورة فظلل بها البهو المكشوف اتقاءً لأشعة الشمس المحرقة . وكانت عَمَدُهُ من الجذوع وسقفه من الجريد عليه الطين .

وكان الرسول بادىء الأمر يخطب الناسَ غير مستند الى شيء ، ليخطب بعدُ الى جذع قائم في هذا المسجد يعتمد عليه اذا طال قيامه . ثم بدا له ان يتخذ منبراً فاتخذه من الطَرْفاء (الأثل) ذا درجات ثلاث على نحو ما عرف من المنابر في الكنائس النصرانية في الشام . وكان كل ما اشتمل عليه المسجد الجامع الأول فِناءً وسقفاً يقي المصلين ومنبراً يرقاه الخطيب .

ولما تقدم العرب يفتحون الأمصار القريب منها والبعيد من أنحاء آسيا الغربية وافريقيا الشمالية صارت الى ايديهم بنايات لا تحصى منها الباقي والعافي ، تمثّل رقياً فنياً رفيعاً . والأهم من ذلك انه أصبح في حوزتهم معارف فنية حية ورثها أبناء الأمم المغلوبة عن العصور الخالية . وما لبثت هذه الأوضاع الفنية التي حوّرتها حاجات الجماعات الاسلامية الدينية أن أصبحت تُعرف على مرور الأيام بالفن العربي .

وانتهى بيت المقدس الى أن يكون منذ بدء عهد الاسلام بلداً مقدساً في نظر المسلمين بأجمعهم . ويرجع ذلك الى منزلة بيت المقدس في التوراة ولأنه كان القِبلة الأولى في الاسلام والموضع الذي وطئه محمد قبل صعوده الى السماء ليلةَ الاسراء . وفيه تقوم اليوم قبة الصخرة التي بنيت عام ٦٩١ في بقعة تُعدّ أكثر بقاع الأرض قداسةً ساهم في احترامها اليهود والوثنيون والنصارى والمسلمون وعدّها التقليدُ الموضعَ الذي أراد ابراهيم ان يقدم اسحق ابنه فيه ذبيحةً لله . وتختلف هندسة قبة الصخرة هذه عن الأساليب القديمة فقد أدخلت في بنائها الفسيفساء وسواها

من أسباب الزخرفة . ولقد أسرف في صنع القبة كما تفوق قبة كنيسة القيامة أناقة وفناً . فكانت النتيجة أثراً هندسياً رائعاً قلما تجد ما يضاهيه في أقطار العالم .

أما الجامع الأموي في دمشق فأكبر دليل على ما وصلت اليه المدنية العربية من تطور . ففي سنة ٧٠٥ أخذ الوليد بن عبد الملك « باسيليكا » دمشق المسيحية المكرّسة للقديس يوحنا ، وكانت في الاصل هيكلاً لجوبيتر ، فابتنى هنالك المسجد العظيم المعروف بالجامع الأموي . ومن العسير ان نتبين ما بقي في هذا الجامع من أصل البناء المسيحي . الا ان المئذنتين الجنوبيتين تقومان على ابراج كنيسة قديمة هي من ابراج « الباسيليكا » . أما المئذنة الشمالية التي كانت تُستخدَم برجاً للاستطلاع فمن الثابت ان بانيها الوليد . ولقد أصبحت بعد نموذجاً لسواها من المآذن في سورية وشمالي افريقيا واسبانيا . وهي أقدم المآذن الاسلامية الصرفة الباقية . واستخدم الخليفة في بناء هذا الجامع الصنّاع الفرس والهنود والمعاريين الوطنيين ، ولعلّ بعضهم كان من الروم الذين أوفدهم امبراطور القسطنطينية . وتفيد أوراق البَرْدي المكتشفة حديثاً ان بعض مواد البناء استُقدمت من الديار المصرية ، وكذلك بعض حُذّاق العمال .

ومما تقدّم وما يلي يتبيّن ان العرب لم ينالوا قصب السَّبْق في ميدان الحروب فقط بل في ميدان العلوم والفنون أيضاً .

بغداد في أوج مجدها

ما كان انهماك العرب في التافه من حضارة زمانهم ليقلّ عن انهماكهم في علومها وفنونها ولا سيا بعد ان أخذ أبناء الجواري يتسنّمون عرش الخلافة. وكان أول هؤلاء يزيد بن الوليد (٧٤٤) وأمّه أمّ ولد، وكذلك كان الخليفتان اللذان تبعاه وهما آخر السلالة — من أمّتي ولد. ففي هذا الزمن نشأ نظام الخصيان الذي لولاه لما قام نظام الحريم. وبازدياد الثروة وكثرة العبيد ازداد انغماس القوم في الترف. فلم تستطع السلالة المالكة المفاخرة بصفاء دمها العربي. وما ذلك الا دليل واضح على الانحطاط الاخلاقي الذي كان متفشيا في المجتمع عامة.

ومما زاد في ضعف السلالة الأموية وانحلالها اتساع شقة الخلاف بين قبائل عرب الشمال وبين قبائل عرب الجنوب. والحق ان هذا الاختلاف كان قائماً قبل الاسلام ولكنه بلغ

الآن أقصاه ، فهو يثير أشدّ النفور والخصام . فعلى ضفتي الأندلس وشواطىء صقلية وتخوم الصحراء الافريقية ظهرت تلك الضغائن الكامنة من أمد بعيد وتبلورت في شكل حزبين سياسيين هما قَيْس ويَمَن . واستمرّ هذا النزاع الى العصور الحديثة اذ نشبت معارك بين الفريقين في لبنان وفلسطين حتى القرن الثامن عشر .

وهنالك عامل آخر زاد السلالة الأموية وَهناً وهو عدم وجود نظام ثابت صريح يجري بموجبه التعاقب في الخلافة . ولقد ادرك معاوية خطورة هذا الأمر فأوصى بالخلافة من بعده لابنه يزيد ، فأدخل بعمله هذا مبدأ جديداً حكيماً يرتكز على الوراثة . لكن مبدأ الأقدمية في السنّ الذي جرى عليه العرب كان ابداً يناقض ميل الخليفة الى جعل الخلافة في ذريته . وعلى كلّ حال فقد بقيت المبايعة معمولاً بها ، ولكن في الظاهر فقط .

وفي سنة ٧٤٧ قام العباسيون بثورة على ابناء عمّهم الامويين . والعباسيون هم ابناء العباس عمّ الرسول . فنجحوا في حركتهم وكادوا يُبيدون البيت الأموي . ويُروى ان قائدهم عبدالله بن العباس دعا ثمانين رجلاً من الأمويين للطعام في ابي فُطْرُس — على نهر العوجاء قرب يافا — فأمر قومهُ أن يضربوا رؤوسهم حتى أتوا عليهم ، ثم أمر فطُرحت عليهم البسُط وجلس عليها ودعا بالطعام فأكل ، وهو يسمع أنينهم . ولُقِّب الخليفة العباسي الأول بالسفاح فلزمهُ هذا اللقب . وعمد العباسيون الى استعمال العنف في تنفيذ خططهم . ولأول مرة في تاريخ

الأسلام صار النطع الى جانب كرسي الخليفة، واتخذ منه ومن قوة الجلاد أداة لتوطيد صولة العرش . وخضع لحكم العباسين القسم الشرقي من العالم الاسلامي ، أما شمالي افريقيا والأندلس فلم يخضعا قط . ودام ملكهم خمسة قرون تعاقب فيها سبعة وثلاثون خليفة حتى قضي على الاخير منهم سنة ١٢٥٨ على يد المغول . وفي أيامهم ارتقت الحضارة العربية فبلغت عصرها الذهبي .

وفي سنة ٧٦٢ باشر المنصور الخليفة العباسي الثاني بناء بغداد عاصمته الجديدة على ضفة دجلة الغربية وهو موقع قامت فيه قرية ساسانية باسم بغداد ، ومعناه « هبة من الله » . وفي وادي دجلة والفرات ازدهرت بعض حواضر العالم القديم . قال المنصور : « هذا موضع معسكر صالح . هذه دجلة .. يأتينا فيها كل ما في البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك . » وكان اختيار المنصور لهذا الموضع حكيماً حقاً . واستغرق بناء المدينة أربع سنوات استخدم في بنائها مئة الف من المهندسين والصناع والفعلة . وما لبثت ان اصبحت مدينة عظيمة .

وجعل المنصور مدينته مدورة فسميت بالمدينة المدورة . وبنى سوراً مؤلفاً من حائطين من اللبن ، واحتفر خندقاً عميقاً وأقام سوراً ثالثاً داخلياً علوه تسعون قدماً يحيط بأواسط المدينة . وجعل للمدينة أبواباً أربعة تمر فيها طرق اربع تبتدىء من وسط

المدينة وتترامى الى اطراف الامبراطورية الاربعة وكأنها شعاعٌ ينبثق من دولاب . فكانت المدينة عبارة عن دوائر ذات مركز واحد قام في قلبها قصر الخليفة المسمى بباب الذهب او القبــة الخضراء ، والى جانبه المسجـد الجامع . أما قبة مجلس القصر الخضراء التي غلب اسمها على القصر بأجمعه فارتفعت مائة وثلاثين قدماً . ولقد جاء في رواية متأخرة ان صنماً بهيئة فارس يحمــل رمحاً كان في أعلى هذه القبة ليشير في الأوقات الحرجة الى الجهة التي قد يجيء منها العدو . ولكن فساد هذه الخرافة لم يفت ياقوت الحموي فقال ان الصنم لا محالة يتوجه الى جهة ما في كل حين مما يدل على وجود عدو يطل على المدينة في كل وقت : « أما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن هذه الخرافات . »

وقُرْبُ مركز الخلافة الجديد من فارس حدا بها على ان تتجه نحو الشرق . فخضع الاسلام العربي للمؤثرات الفارسيــة ، وأصبحت الخلافة اشبه بحكومات الاستبداد الفارسية ، منهـا بمشيخة عربية . فتسرب الى الحياة العربية من فارس شيء كثير كالألقاب والخمر والزوجات والسراري والأغاني والأفكار . على ان هذه ليّنت خشونة الحياة العربية ومهدت السبيل لبزوغ عهد ممتاز بالعلوم والاستنباط الفكري . إلا ان مسحة العروبــة احتفظت بأمرين هامين وهما الاسلام دين الدولة ، والعربية لغة الدواوين الرسمية .

وفي مستهل القرن التاسع ظهر عاهلان بارزان في الشؤون العالمية ، هما شرلمان في الغرب وهرون الرشيد في الشرق . وليس

من شك في ان هرون كان اقوى من زميله ، وفي انه كان يمثل ثقافة ارفع من ثقافة الغرب . وقد تبادل العاهلان علاقات ودية اساسها المصلحة ، فابتغى شرلمان صداقة هرون كي يعينه على خصمه امبراطور بيزنطية ، وودّ هرون مساعدة شرلمان على منافسيه وأعدائه الأمويين في الاندلس الذين كانوا قد شادوا دولة منيعة الجانب تتمتع بالرخاء . ولهذا تبادل الاثنان — على قول المؤرخين الغربيين — السفراء والهدايا . ويروي مؤرخ افرنجي عرف شرلمان معرفة شخصية ان سفراء الملك العظيم في الغرب رجعوا من الشرق يحملون الهدايا الثمينة من «ملك فارس هرون» وبينها منسوجات وأفاويه وفيل واحد وساعة دقيقة التركيب تقيس الوقت بواسطة الماء. أما خبر الأرغن الذي يقال ان هرون أهداه الى شرلمان فهو ككثير من الاخبار الجذابة في التاريخ وليد الخيال ولا يستند الى الحقيقة . وقد نفى البحث العلمي ايضاً القصة التي تقول بأن هرون أعطى شرلمان مفاتيح كنيسة القيامة . والغريب في امر تبادل السفراء والهدايا هذا الذي جرى ما بين سنتي ٧٩٧ و٨٠٦ ان المؤرخين لا يشيرون اليه البتة ، على الرغم من انهم اشاروا الى مبادلات ديبلوماسية اخرى .

وفي ايام هرون الرشيد هذا (٧٨٦ — ٨٠٩) أصبحت بغداد مركزاً للغنى الباذخ والأهمية العالمية ، ولم يكن قد مضى بعد على تأسيسها نصف قرن ، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطية . وكان مجدها متناسباً مع الامبراطورية التي كانت هي عاصمتها حتى قيل «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير» .

وكان القصر الملكي وما يتبعه من ملحقات للحريم والخصيان والخدم يبلغ ثلث المدينة المدورة . وأعظم ما فيه المنزل المفروش بالطنافس والمجهز بالسجف والمساند بحيث لم يكن في الشرق أبدع منه . وكانت زُبيدة ، زوج هرون وابنة عمه ، تشاركه في تلك الهالة من المجد التي أكسبتها إياها الاجيال المتتالية . فلم تتسامح في ان ترى على مائدتها أوعية غير مصنوعة من الذهب أو الفضة وغير مرصّعة بالجواهر . ويقال انها انفقت في حجّة لها ثلاثة ملايين ديناراً منها نفقة إسالة الماء خمسة وعشرين ميلاً إلى الحرم بمكة .

وكانت لزُبيدة مزاحمة هي عُليّة الفتانة، أخت هرون لأبيه من أمّ ولد . وكان بها عيب في جبينها فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها فأحدثت شيئاً لم يكن ، فيما ابتدعته النساء ، أحسنُ منه . فأخذته النساء عنها .

وبلغ بذخ البلاط وعظمته أقصى درجاتهما في الاحتفالات الرسمية كتنصيب الخليفة والاعراس والحج والاحتفاء بالسفراء الاجانب . وقد أنفق في زواج الخليفة المأمون على بُوران ابنة وزيره سنة ٨٢٥ مقاديرُ هائلةٌ من المال. فحفظ لنا الادب العربي قصة هذا الزواج الذي « لم يُعهد له مثيلٌ في عصر من العصور » قيل « ولما جلس العروسان وقد بُسط لهما فرش كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ومكللاً بالدر والياقوت ، نُثرت على بوران الف درّة كانت في صينية ذهب وأوقدت شموع العنبر في كل واحدة منّا رطل فانقلبت بنورها الظلمة ضياء . وانتهى

أمر ذلك الفرح العظيم بأن نثر على الهاشميين والقواد والكتّاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع وأسماء جوار وغير ذلك . فكانت البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها وقرأ ما فيها ومضى ليتسلم مضمونها سواء اكانت ضيعة ام فرساً ام جارية ام مملوكاً . وفي سنة ٩١٧ استقبل الخليفة المقتدر في قصره رسل الامبراطور الشاب قسطنطين السابع استقبالاً فخماً. والظاهر أن القصد من زيارتهم كان تبادل الاسرى وافتداءهن . ولقد مشى في موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون الف فارس وراجل ، وسبعة آلاف خصي منهم البيض والسود ، وسبعمائة حاجب ونحو مائة اسد . وكان ما عُلّق من الستور في قصر الخليفة ثمانية وثلاثين الف ستر منها اثنا عشر الفاً وخمسمائة من الستور المذهبة . وبلغ ما حواه من البُسُط اثنتين وعشرين الف قطعة — . وقد أصاب الرسل من الاعجاب والروعة الشيء الكثير ، ولما نظروا الى دار الحاجب ودار الوزير حسبوهما مجلس الخليفة فقيل لهم ان هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب . ولكن دهشتهم كانت على اشدّها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها شجرة من الفضة والذهب وزنها خمسمائة الف درهم على كل غصن عصافير وطيور من كل نوع مذهبة ومفضّضة تتحرك حين تحرّك الريح ورق الشجر فتصفر الطيور وتهدر . ثم اخرجوا الى بستان فيه نخل طويل كل نخلة خمسة أذرع قد لُبّست جميعها ساجاً منقوشاً وهي مثقلة بغرائب التمر .

وكان هرون مثالاً أسمى للملوكية في الاسلام . وسخاؤه

كسخاء الخلفاء الذين تبعوه مباشرة جذب الى العاصمة الشعراء واهل الذكاء والفكاهة وأرباب الموسيقى والغنـــاء والرقص وغيرهم من ارباب الملاهي كمربي الكلاب والديوك التي كانوا يعرضونها تقتتل امام النظّارة . ولقد وصف الشاعر المجوني ابو نواس ، وهو نديم الرشيد ورفيقـــه في كثير من جولاته الليلية ، حياة البلاط خلال هذا العصر الزاهي ، في اعذب الشعر ، وصفحات « الاغاني » للاصفهاني طافحة بالقصص التي تمثل هذه الحياة بألوان برّاقة لا يصعب استخلاص الحقيقة من تلافيفها . قيل ان الخليفة الامين بن هرون غنّاه ابراهيم بن المهدي عمّه ، وهو مغنٍّ شهير ، صوتاً في شعر لابي نواس فأمر له بثلاثمائة الف دينار. فقال ابراهيم : «يا امير المؤمنين قد أجرتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم. فقال : هل هي الا خراج بعض الكُوَر ؟ » وكان للأمين عدّة حرّاقات خاصة في دجلة على صورة الأسد والفيل والعُقاب . ولقد أنفق في عمل واحدة منها ثلاثة ملايين درهماً . وفي « الاغاني » ايضاً نطالع وصف مشهد من مشاهد الرقص الغنائي الرائع فاذا دارُ الخليفةِ الامين مملوءة بالوصائف يغنّين على الطبول والسرنابات والأمين واقف في وسطهن يرتكض في دارة الملهى ، والجواري والمخنّثون من حوله يزمّرون ويضربون . وذكر المسعودي ان ابراهيم بن المهدي استزار اخاه الرشيد فلما وُضعت البوارد على المائدة رأى الرشيد السمك فاستصغر القطع فقال ابراهيم «هذه ألسنة السمك» وأردف الخادم قائلاً : « يا امير المؤمنين فيها اكثر من مائة

وحسين لساناً » . فاستحلفه الرشيد عن مبلغ ثمن السمك فأخبره انه اكثر من الف درهم . واننا اذا جرّدنا صورة حياة البلاط ببغداد عما البستهُ اياها القرائح الشرقية من الاطنـــاب والمبالغة لرأينا فيها بعد ذلك التجريد ما يملأ النفس عجباً بل دهشة .

وامتدّ مرسى بغداد اميالاً وحوى مئات السفن ومن بينها الحربية ومراكب اللهو والسفن الصينيـــة والاطواف وهي قِرَبٌ يُنفخ فيها ويُشدّ بعضها الى بعض كهيئة السطح ، وتشابه الأطواف المعروفة في عصرنا هذا السائرة بين الموصل وبغداد ، وكان يردُ الى اسواق المدينة الخَزَفُ والحرير والمسك من الصين ، والطيوب والمعادن والأصباغ من الهند وارخبيـــل مَلَقّة ، والياقوت واللازَورْد والمنسوجات والارِقّاء من اراضي الترك في آسيا الوسطى ، والعسل والشمع والفراء والعبيد البيض من اسوج ونروج وروسيا ، والعاج والتبر والعبيد السود من شرق افريقيا . وقد افردت لبضائع الصين سوق خاصة بها . وكانت الامصار تُرسل محصولاتها سواء بحراً او براً في القوافـــل : فيردُ الارز والحبوب والكتّان من مصر ، والزجاج والادوات المعدنيـــة والفواكه من الشام ، والقماش الحريري والمقصّب واللؤلؤ والاسلحة من جزيرة العرب ، والحرير والعطر والبقل من فارس .

وقد قام التجار العرب بتصدير المنسوجات والجواهر والمرايا المعدنية والخَرَز الزجاجي والطيوب وغير ذلك من بغـــداد ومراكز التصدير الأخرى الى انحاء الشرق الأقصى واوروبا وافريقيا . وتشهد النقود المسكوكة التي وُجدت طائفة كبيرة

منها في روسيا وفنلندا واسوج والمانيا على اتساع نطـــاق تجارة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها سواء في هذه الحقبة أم في الحقَب المتأخرة من تاريخهم . وليست حكايات السندباد البحري التي هي من امتع قصص « الف ليلة وليلة » إلا اخبـساراً ذات اساس واقعي لسفرات قام بها اهل التجارة من المسلمين . ولقد لعب التجار دوراً هاماً في حياة بغـــداد . فكان لكل تجارة او صناعة سوق خاص بها كما هو الحال اليوم . ولم يكن يغيّر من اطراد الحياة في السوق إلا مرور مواكب الأعراس او المحتفلين بختان .

وبدأ اصحاب المهَن من اطباء ومحامين ومعلمين وكتّاب وغيرهم يشغلون مراكز هامة في المجتمع . وقد ابقى لنا ابن خلّكان صورة مصغّرة لاعمال احد هؤلاء اليومية وهو الطبيب السرياني حُنين بن اسحق عميد المترجمين من اليونانية . فنحن نراه في كل يوم ، بعد فراغه من ركوب الخيل ، يدخل الحمام فيصُبّ على جسده الماء ثم يخرج فيلتفّ في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة ويتكيء حتى ينشف عرقه ، وينام . ثم يقوم ويتبخّر ويُقدَّم له طعامه ، وهو فرّوج كبير مسمّن ورغيف وزنه مئتا درهم فيحسو المرق ويأكل من الفرّوج والخبز وينام ، فاذا انتبه شرب اربعة ارطال شراباً عتيقاً ، فاذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل .

وشتهرت هذه الحقبة في القصص التاريخيه والخيالية لأسباب منها بذخ الحياة فيها وزهوها . ولكن السبب الأهم انه ظهرت

فيها اعظم يقظة فكرية في الاسلام او قل إحدى الحركات الفكرية والثقافية العظيمة في العالم بأسره . وترجع هذه اليقظة في معظم اسبابها الى مؤثرات خارجية بعضها هنديّ او فارسي او سرياني واكثرها يوناني . وهي يقظة تعاظمت فيها حركة النقل الى العربية من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية لأن العربي المسلم لم يكن لديه الشيء الوفير من العلم والفلسفة والأدب . ولكنه كان يمتاز بذكاء طبيعي ، وبقوىً عقلية دفينة ، وبرغبة في الاطلاع على الجديد . فأصبح بعد وقت قصير وريث حضارة الشعوب العريقة في القِدَم التي تغلّب عليها او احتكّ بها . فلما جاء الشامَ استمدّ منها حضارتها الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنيّة اليونان . اما في العراق فاستمد حضارتها الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنية الفرس . ولم يمضِ على تأسيس بغداد ثلاثة ارباع قرن حتى اصبح في حوزة العرب فيها اهم كتب ارسطو الفلسفية ، ونخبة من كتب الشروح لأهل الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، ومعظم كتب جالينوس الطبية ، وطائفة من الكتب العلمية من فارسية وهندية . ففي عشرات السنين تسنّى للعرب الوقوف على آثار علمية فلسفية كان اليونان قد انفقوا القرون في انشائها . ولا شك في ان الاسلام خسر الكثير من طابعه الاصلي باستمداده هذا من الحضارتين الفارسية واليونانية اذ كان طابعهُ صحراوياً عليه مسحة العصبية العربية ، فصار الآن يشغل مركزاً هاماً في ثقافة العصور الوسطى التي ربطت جنوبي اوروبا بالشرق الأدنى .

وهذه الثقافة تغذّت من مجرى واحد ترجع أصوله الى مصر القديمة وبابل وفينيقية واليهودية . وعرّج هذا المجرى على بلاد اليونان فرجع منها الى الشرق الأدنى بشكل الحضارة اليونانية . وسوف نرى فيما بعد كيف اتجه هذا المجرى الثقافيّ صوب أوروبا عن طريق العرب في اسبانيا وصقليّة حتى أدى الى عصر النهضة الاوروبية الحديثة .

وكانت الهند من اقدم مصادر الفكر وخصوصاً في الحكمة والأدب والرياضيات . فحوالى سنة ٧٧٣ قدم رحّالة هندي بغدادَ ومعه رسالة في الفلك . فأمر الخليفة بترجمتها فترجمها الفزّاري الى العربية . أما عناية العرب بالنجوم فترجع الى عهود البادية . ولكن الاهتمام العلمي بها لم يظهر حتى هذا الزمن . ولقد ولّد الاسلام حافزاً جديداً لدرس علم الفلك وهو الرغبة في تعيين جهة القبلة بالضبط . ثم جاء الخوارزمي المشهور (المتوفى عام ٨٥٠) فوضع جداوله الفلكية المعروفة استناداً الى كتاب الفزّاري فجمع ما بلغه اليونان والهنود في هذا العلم ووحّده وزاد عليه اموراً جديدة . ويعود فضل ادخال الارقام الى العالم الاسلامي الى ذلك الرحّالة الهندي نفسه . فانه حمل معه رسالة في الرياضيات حوت تلك الارقام التي تُعرف في اوروبا بالعربية ، وفي البلاد العربية بالهندية . وعقب ذلك أمدّ الهنود علمَ الرياضيات العربي في القرن التاسع بقانون الكسور العشرية.

اما التراث الفكري اليوناني فكان بلا شك أثمن ما حواه الهلال الخصيب عند الفتح العربي. فجاءت الثقافة اليونانية أشدّ

العوامل الاجنبية تأثيراً في الحياة العربية . وقد بلغ هذا التأثير أوجَهُ في أيام المأمون وذلك لما كان لهذا الخليفة من النزعات الفكرية الحرة . ولمّا كان يعتقد كالمعتزلة بوجوب الاتفاق بين الكتب المنزلة وبين احكام العقل انصرف الى فلسفة اليونان رغبة منه في الاطّلاع فيها على ما يؤيّد آراءه . وفي سنة ٨٣٠ انشأ بيت الحكمة في بغداد وهو عبارة عن خزانة كتب ودار علم ومكتب ترجمة . فكان هذا المعهد ، من وجوه عدّة ، اعظم المعاهد الثقافية التي نشأت بعد المتحف الاسكندري الذي ظهر في النصف الاول من القرن الثالث قبل الميلاد . وقبل تأسيس بيت الحكمة كان بعض النصارى واليهود والمستحدثين من معتنقي الاسلام قد قاموا بتراجم متفرقة من تلقاء انفسهم . اما الآن ، في ايام المأمون وخلفائه ، فتمركزت الترجمة في هذا المعهد الجديد . ولقد دام عصر الترجمة هذا ما يقرب من قرن ابتداءً من سنة ٧٥٠ . ولما كانت الاراميّة (السريانية) لغـة معظم المترجمين فقد نقل كثير من الكتب اليونانية اليها اولاً قبل صوغها في العربية .

بيدَ ان الناقلين الى العربية لم يتعرّضوا للأدب اليوناني . ولم يكن هنالك من تماسٍ بين العقلية العربية وبين درامة اليونان او شعرهم او تاريخهم . فبقيت السيادة في هذه الميادين للمؤثرات الفارسية . على ان نقطة البدء في خوض غمار التراث الفكري كانت الفلسفة اليونانية التي وضعها افلاطون وأرسطو وتوسع فيها رجال الفلسفة الافلاطونية الجديدة .

وكان شيخ المترجمين حُنين بن اسحق (٨٠٩ — ٨٧٣) وهو احد اعاظم العلماء وانبل بني عصره خُلقاً. وكان عبادياً، والعِباد هم قوم من النساطرة أقاموا بظاهر الحِيرة. وفي حداثته خدم الطبيب يوحنا بن ماسَوَيه بصفته صيدلي. وغضب عليه يوحنا يوماً فقال له: «ما لأهل الحيرة والطب؟ عليك ببيع الفلوس في الطريق!» فخرج حُنين باكياً وعزم على درس اللغة اليونانية. ومن الترجمات التي تُعزى الى حُنين ترجمته كتُباً لجالينوس وأبقراط ودِيقوريدس فضلاً عن كتاب السياسة (الجمهورية) لأفلاطون والمَقُولات والطبيعيات والخُلقيات لارسطو. وتُعدَّ أهمّ مجهوداته ترجمته لجميع مؤلفات جالينوس العلمية تقريباً الى اللغة السريانية فالعربية. وقد فُقدت لجالينوس كُتب سبعة في علم التشريح في اصلها اليوناني الا انها لحسن الحظ محفوظة في اللغة العربية. اما ترجمة حنين للعهد القديم من الترجمة اليونانية السبعينية فقد فُقدت.

ومما يَشهد لحُنين بالبراعة في الترجمة ما رُوي من انه هو ومن معه من النَقلة كانوا يُرزَقون حوالى خمسمائة دينار في الشهر، وان المأمون كان يعطيه من الذهب زِنَةَ ما ينقله من الكتُب. على انه لم يبلغ ذروة مجده كناقل بل كطبيب لما جعله الخليفة المتوكل طبيبه الخاص. ثم ان المتوكل حبسه في بعض القلاع سنة كاملة لانه امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدواً. ثم احضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً فقال حُنين «قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية». قال الخليفة

« فاني اقتالك » . قال « لي ربّ يأخذ لي حقي غداً في الموقف الاعظم » . فتبسم المتوكل وقال له « طِب نفساً فاننا اردنا امتحانك » . ثم سأله « ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيته من صدق الامر منا ؟ » . فأجابه حُنين « شيئان هما الدين والصناعة ، اما الدين فانه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء — . واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ، ومع هذا فقد جُعل في رقاب الاطباء عهدٌ مؤكّد بأيمان مُغلظة ان لا يُعطوا دواءً قتالاً لأحد . » ويقول مؤرّخ فرنسي حديث ان حُنيناً كان اعظم شخصية في القرن التاسع .

ولم يكد عصر الترجمة ينصرم حتى كانت مؤلفات أرسطو الموجودة ، وكثير منها منسوب اليه خطأ ، قد اصبحت في متناول القارىء العربي . كلّ هذا واوروبا لا علم لها بالافكار والعلوم اليونانية . وبينا كان الرشيد والمأمون يتبحران في الفلسفة اليونانية والفارسية كان امثالها في الغرب كشرلمان ونبلائه يحاولون اتقان الكتابة البسيطة . ولم تلبث مؤلفات ارسطو في علم البيان والمنطق وعلم الشعر وكتاب الايساغوجي لبُرفيروس ان تسنّمت مركزاً عالياً الى جانب الصرف والنحو كمتون للعلوم الانسانية في الاسلام ، ولا تزال تحافظ على مقامها هذا حتى اليوم . واعتنق المسلمون عقيده المدرسة الافلاطونية الجديدة القائلة بأن تعاليم ارسطو وافلاطون هي واحدة أساساً . وتجلّت مؤثرات الافلاطونية الجديدة في الصوفية الى حدّ كبير .

وتطرّقت الفلسفة الارسطية والافلاطونية الى الآداب اللاتينية عن طريق مؤلفات ابن سينا وابن رُشد فأنارت عقول فلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى كما سنرى .

وتبعَ دور الترجمة هذا بما كان فيه من انتساج دورٌ آخر هو الابتكار والابتداع وسنتطرّق اليه في فصل آخر من هذا الكتاب . فلم يأتِ القرن العاشر حتى تحولت اللغة العربية ، تلك اللغة التي استعملتها الجاهلية اداةً للشعر فقط وعرفها المسلمون بعد محمد في الأصل لغة للوحي والدين ، نقول تحولت الى لغة جديدة عجيبة دقيقة البنيان سهلة المنال تُطاوع رغبة المرء في التعبير عن الفكر العلمي والافصاح عن الآراء الفلسفية ذات التعقيد.وفي الوقت نفسه اصبحت لغة السياسة والتخاطب الأدبي من آسيا الوسطى الى شمالي افريقيا فالأندلس . ومنذ ذلك الحين واهل العراق وسورية ولبنان وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش يُفصحون عن أسمى افكارهم باللسان العربي .

مناحي حياة العامة

قصر مؤرخو العرب اهتمامهم على مشاكل دار الخلافة، وعلى قيام السلالات الملكية وسقوطها وما اتصل بذلك من حوادث دموية معقّدة، وعلى القوّاد والوزراء ورجال السياسة يومئذ وما اصابوا من انتصارات وما اصابهم من نكبات. لهذا لم يتركوا لنا صورة جليّة عن حياة العامة الاجتماعية والاقتصادية. غير انه يمكننا ان نستخلص صورة تعيننا على الإلمام بهذه الحياة من وجهتيها الاجتماعية والاقتصادية من فقرات وَرَدت عرضاً مبعثرة في كُتُبهم ومن بعض مصادر أدبية وخصوصاً من درس الحياة العادية اليوم في الشرق الاسلامي الذي لم يتغير كثيراً عما كان عليه في الماضي.

تمتّعت المرأة في القرن التاسع بقسط وافر من الحرية يعادل قسط المرأة التي سبقتها. ولكن في آخر القرن العاشر أصبحت

أحكام الحجاب وعزل المرأة التام عن الرجال معمولاً بها دونما هوادة . ولم تكن نساء الطبقة العليا في اوائل العصر العباسي الوحيدات اللواتي كان لهن شأن وتأثير بليغ في سياسة الدولة بل كانت الفتيات العاديات يخرجن الى الحرب ويتولّين قيـادة الجيوش وينظمن الشعر ويناظرن الرجال في الحرف الأدبية ، وطالما اتحفن المجالس بالنكات والموسيقى والغناء .

وفي حقبة الانحطاط كثر التسرّي والانغماس في الملـذات وسقط مستوى الآداب الجنسية . فانحطّت منزلة المرأة الى اسفل الدركات التي تجسـد وصفها في « الف ليلة وليلة » وصارت تُعتبر مثال المكر والدسيسة ومستودع الافكار الرديئة والميول السّافلة .

واعتُبر الزواج في الاسلام بوجه العموم واجباً محتماً فمن أهمله استحق اللّوم . وعُدّ الاولاد ولا سيما الذكور منهم هبةً من الله تعالى . اما الزوجة فاقتصر واجبها على خدمة بعلها والعناية بصغارها وتدبير شؤون منزلها . وما بقي عندها من فراغ فللغزل والحياكة .

ويظهر ان المثل العُليا للجمال النسائي عند العرب الاقدمين ، كما يُستدل على ذلك من تعـابير الغزل والتشبيب الواردة في منظومات شعرائهم ، لم تتغير كثيراً . وقد افرد النّويري جانباً ضافياً من مؤلفه « نهايـة الأرب في فنون الأدب » للأقوال المعروفة في جمال اعضاء المرأة . فقدود الغواني تُستحسب فيها قامة الخيزران . ومحيّاها افضلهُ ما كان كالبدر استدارةً .

وشعرها اجوده ما حاكى الليل سواداً . واللّون أحبّه البياض مع حمرة في الخدين ، وخال كحبة عنبر في صحن مرمر . وقد عشقوا في المقلتين السواد الشديد دون اثر الكحل. والكبيرة منها شبّهوها بعيون المهى ، والجفن شبّبوا به ناعساً سقيماً ، والمبسم صغيراً ترتبت الاسنان فيه كعقد اللؤلؤ في مرجانسه ، والنهدان كرمانتين والخصران مرتبطان بردفين ثقيلين. والاصابع ارادوها مستدقّة الأطراف مصبوغة بالحناء .

وكان الديوان أهم قطع الأثاث في هذا الزمن وهو كناية عن اريكة للجلوس تمتد بحذاء ثلاثة جوانب من الغرفة . وكانت المقاعد المرتفعة على شكل الكراسي قد اُتخذت في الدولة السابقة إلا ان المساند الملقاة على « طرّاحات » مربعة موضوعة على الأرض يجلس عليها المرء القرفُصاءَ مرتاحاً لا تزال رائجةً الى يومنا هذا . وكانت أرض الغرفة تُغطى بالطنافس المنسوجة باليد . وكان الطعام يُقدم في أطباق نحاس واسعة مدوّرة على موائد واطئة أمام الدّواوين أو على الأرض مقابل الوسائد . وفي منازل الأغنياء كانت الاطباق تُصنع من الفضة . والأخوِنة من الخشب المغشّى بالابنوس واللؤلؤ أو الصدف على طراز المصنوع اليوم في دمشق . هذا هو الشعب العربي نفسه الذي كان سابقاً في شظف العيش وخشونته يفاخر بأكل العِلْهز (وبر الابل مطبوخاً بالدم) والذي حسب أبناؤه الأرز لأول وهلة سُماً وظنوا المرقّق من الخبز رقاعاً للكتابة. هذا الشعب تهيأت له الآن أسباب الحضارة فهذّبت شهوته للطعام المريء وجعلته يستطيب اللذائذ

المدنية فصار يأكل من طعام الفرس السكباج (وهو مرق يُعمل من اللحم والخلّ) والفالوذج (وهو حلواء)، وأصبح دجاجه يُعلف الجوزَ المقشر واللوز ويُسقى الحليب. وصارت منازله في الصيف تُبرّد بالثلج ومُرطّباته قوامها الماء يُذاب فيه السكّر ويُعطّر بماء البنفسج والموز والورد أو بعصير التوت. أما القهوة فلم ينتشر استعمالها حتى القرن الخامس عشر، وكذلك التبغ فلم يُعرف قبل اكتشاف العالم الجديد. ونجد في «كتاب المُوشّى» للوشّاء من ادباء القرن العاشر وصفاً للرجل الظريف الاديب في ذلك العصر. فالظريف كان يتحلى بالأدب الجمّ والمروءة والكياسة، يترفع عن المزاح، ويعاشر اهل الصّلاح، يكره الكذب ويفضّل الصدق، ويفي بالمواعيد، ويكتم السرّ، ويرتدي الثياب النظيفة التي لا رُقَع فيها. وهو اذا جلس على المائدة جعل لُقَمَه صغيرة، فلا يُكثر من الضحك والكلام، ولا يُسرع في مضغ الطعام، ولا يلعق اصابعه، وهو يتجنب الثوم والبصل، ويتحاشى استعمال مسواك الاسنان في الخلاء والحمّام والمحافل العامة وعلى قارعة الطريق.

ولقد أسرف الناس في الشراب سراً وعلناً. ويُستدلّ من قصص الدعابة والمجون في «الاغاني» و «الف ليلة وليلة» وسواهما من كُتب الأدب والشعر ومن الخمريات التي نظمها الشاعر أبو نواس ان تحريم الخمر الذي شدّد عليه الاسلام لم يُلاقِ نجاحاً اكثر مما لاقى قانون تحريم المسكرات في الولايات المتحدة، فقد شرب الخمرَ الخلفاء والوزراء والامراء والقضاة غيرَ

مبالين بتحريمه في الدين . وكان أحبَّ الخمور عند القوم المصنوع من عصير التمر .

وكان لمعاقرة بنت الحان حلقات تُسمى « مجالس الشرب » يأنس اليها القوم . فكان المضيف وضيوفه يُعطّرون لحاهم بالمسك أو ماء الورد ويرتدون أثواباً خاصة للمنادمة زاهية الالوان، وأرجاء الغرفة تتضوّع فيها رائحة العنبر والندّ المشتعل. وكانت اكثر المغنيات اللواتي يحضرن هذه المجالس من السبايا الخليعات كما تشهد بذلك القصص الكثيرة . فكنّ اكبر بليّة على اخلاق فتيان ذلك العصر . وتوصلت عامة الشعب الى الخمر في الاديرة ، وفي حانات خاصة كان يديرها على الغالب يهود . وكانت تجارة الخمر على الجملة في ايدي النصارى واليهود .

« النظافة من الايمان» حديث نبوي لا يزال شائعاً على الالسن في البلدان الاسلامية . ولم يكن في الجزيرة العربية حمامات فيما نعلم قبل محمد الذي قيل عنه انه استنكرها ولم يسمح لاحد بدخولها الا للنظافة وعلى شرط ان يكون متزراً.اما في هذا العصر الذي نلمّ به فقد كثرت الحمامات العمومية وراج ارتيادها ليس للوضوء فقط بل للهو والترف ايضاً. وأجيز للنساء دخولها في ايام معينة . وقد فاخرت بغداد في اوائل القرن العاشر بسبعة وعشرين الفاً من هذه الحمامات اليومية ، وكانت في زمن آخر ستين الفاً . وهذان الرقمان وسواهما من الارقام التي نجدها في المصادر العربية لا ريب مبالغ فيها . اما الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧ فانه شاهد في الجانب الغربي من المدينة

ثلاث عشرة محلة ، كل محلة فيها حمامان او ثلاثة من ابدع الحمامات مجهزةً بالماء الحار والبارد .

وكانت الحمامات يومئذ مثلها اليوم تحتوي خلوات كثيرة مرصوفة بالفسيفساء مُطلي نصف حائطها مما يلي الارضَ بالقار والنصف الآخر الاعلى بالجصّ الابيض الناصع ، ومبنية حول ردهة واسعة عليها قبّة فيها ثقوب للنور . وفي كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان للماء الحار والبارد . أما الغرف الخارجية فتُصطنع للاتكاء والاستراحة ولتناول المشروبات والاطعمة الخفيفة .

والالعاب الرياضية ، كالفنون الجميلة ، كانت في كل العصور من ميزات المدنية الاوروبية الهندية اكثر مما هي في السامية . فابن الصحراء العربية اعتبر الرياضة الجسمية في حدّ ذاتها امراً سقيماً يتطلّب جهداً لا يتلاءَم مع حر الشمس الذي يتعرض له في نهاره . ومن الالعاب الرياضية التي تعاطاها العربي في الخلاء الرماية والجوكان (لفظة فارسية معناها عصا معقوفة وهو «البولو») والصولجان ولعب السيف والترس والجريد وسباق الخيل ، والصيد وهو اهمها جميعاً . ومن المزايا التي وجب ان تتوفر في الندماء المهارةُ في الرماية والصيد ولعب الكُرة والشطرنج . وفي كل هذه الالعاب لم يكن من حرَج على النديم فيما اذا ساوى سيده . ومن الخلفاء المغرمين بالجوكان المعتصم . وقد جعل يوما الافشينَ قائدَه التركي في جهة وأقام هو في جهة فاستعفى الافشين قائلاً : « لا ارى أن اكون على امير المؤمنين في جدّ ولا هزل»

وهنالك اشارات الى لعبة الطبْطاب وهي خشبة عريضة يُلعب بها ولعلها لعبة « التنس » في شكلها البدائي . والراجح ان اشتقاق اسم هذه اللعبة يرجع الى بلدة تنّيس في الدلتا من أعمال مصر التي اشتهرت في العصور الوسطى بصنع القماش المعروف بهذا الاسم .

وانما يدلنا على اهتمام العرب بهذه الضروب من اللهو ما نجده من كتب قديمة تبحث في موضوعات الصيد ونصب الشراك وترويض الصقور . وقد دخلت تربيـة الصقور والبواشق واستعمالها للصيد الى الجزيرة عن طريق فارس كما تشير الالفاظ المستعملة لها . وشاعت على التخصيص في اواخر هذه الخلافة وفي عصر الحروب الصليبية . ولا يزال الناس في فارس والعراق وسورية والجزيرة يصطادون بالباز والباشق على الطريقة الموصوفة في « الف ليلة وليلة » . وعلى الصياد المسلم أن يبادر الى ذبح فريسته قبل موتها وإلا حرُم عليه أكلها .

وكان الخليفة مع افراد اسرته على رأس اصحاب المكانـة الاجتماعية ، يتلوهم كبار الموظفين ومن لاذ بهاتين الفئتين من ضباط وحرس واصدقاء مقربين وندماء وموالٍ وخدم .

وكان اكثر الخدم من الشعوب غير المسلمة يؤخذون قَسراً أو يؤسرون في الحرب أو يشترَون في السلم وفيهم الزنجـي والتركي وآخرون من البيض . وكان معظم العبيد البيض من اليونان والصقالبة والسلاف والارمن والبربر ومنهم الخصيان المُلحقون بالحريم خداماً . أما الغلمان وفيهم الخصيـان ايضاً

فكانوا موضوع عناية خاصة من أسيادهم الذين ألبسوهم حللاً جميلة على طراز واحد وجعلوهم يتزيّنون ويتطيّبون الى درجة التخنّث . واذا كانت بعض الكتب قد اشارت الى وجود الغلمان في عهد الرشيد فالراجح ان الامين كان اول من انشأ نظام الغلمان في العالم العربي لغاية اللواط اقتداءً بالفرس . ولقد عاش في زمن المأمون قاضٍ افتُضح باللواط فجاهر باربعمائة غلام مُرْد حسان الوجوه كانوا له . ولم يستنكف الشعراء كأبي نواس من النظم في المُرْد ومدح اللواط والمجاهرة بميولهم الجنسية الشاذة .

واتخذ سراة القوم الجواريَ من طبقة الأرقّاء مغنّيات وراقصات وسراري . وكان لبعضهنّ تأثير محسوس في سادتهن من الخلفاء كذات الخال التي اشتراها الرشيد بسبعين الف درهم ثم هاجته الغَيْرة ذات يوم فوهبها احد وصفائه . وعَلِق الرشيد جاريةً اخرى فأهدتْهُ زوجهُ زبيدة عشر جوار لتُبعده عنها ، فولدت له إحداهن المأمون واخرى المعتصم . وكانت بعض هذه الجواري من المثقّفات الراسخة اقدامهن في العلم والادب . وتروي قصة خرافية في «الف ليلة وليلة » ان الرشيد عرض مائة الف دينار ثمناً لتودّد الجارية الجميلة الموهوبة بعد ان اجتازت بتفوق امتحاناً صعباً وضعه العلماء في الطب والفقه والفلك والفلسفة والموسيقى والرياضيات فضلاً عن علوم المعاني والبيان والنحو والشعر والتاريخ والقرآن . ويُعرف عن الامين انه نظّم كتائب من الجواري الحسان فقصّ شعورهن وألبسهن ثياب الغلمان

وكسا رؤوسهن بالعمائم الحريرية فسُمِّين الغُلاميات . وقد راجت سوق هذه البدعة بين الخاصة والعامة من الناس . روى شاهد عيان انه دخل يوماً على المأمون في أحد آحاد الشعانين فرأى بين يديه عشرين وصيفة يونانية متزينات بالديباج يرقصن وفي أعناقهن صُلبان الذهب وفي أيديهن أغصانُ الزيتون وسَعَف النخل حتى اذا انتهت هذه الحفلة الراقصة امر الخليفة بأن توزع عليهن ثلاثة آلاف دينار .

وتقول بعض المصادر انه كان للمتوكل اربعة آلاف سُرية شاطرن فراشه وهو قول يصعب تصديقه . وجرت بين العمال والقوّاد عادة اهداء الخليفة او الوزير هدايا تشتمل على الفتيات اللواتي يأخذونهن من الرعية وإلا حسب الخليفة تخلفهم عن ذلك علامة العصيان .

وكانت عامة الناس مؤلفة من طبقة عالية لها بعض مزايا الارستقراطية وفيها الادباء والعلماء والفنانون والتجار والصنّاع واهل المهن الحرة ، وطبقة سُفلى مؤلفة من سواد الشعب وهم الفلاحون ورعاة المواشي واهل الريف ، وهؤلاء اهل البلاد الاصليون الذين اصبحوا الآن أهل الذمة . ثم ان اتساع نطاق الامبراطورية وما وصلت اليه من علوّ في المدنية قضى بنشوء تجارة عالمية واسعة تقلّد زعامتها الباكرة النصارى واليهود وأتباع زرادشت ، ليعود المسلمون بعد فيتفوّقوا فيها ، اذ انهم لم يزدروا التجارة بقدر ازدرائهم الزراعة . وما لبثت أن أصبحت مرافىء بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية

مراكز نشيطة للتجارة البرية والبحرية .

وقد توغّل التجار المسلمون شرقاً حتى الصين فاستجلبوا الحرير الصيني الفاخر ، وهو أقدم ما أتحف به الصينيون العالمَ الغربي . وقد سلكت هذه التجارة طريقاً عُرفت بـ « طريق الحرير العظيمة » مارّة بسمرقند وتركستان الصينية التي قلّ من يطرقها من المسافرين والسيّاح حتى اليوم . وكانت هذه البضائع تُنقل مرحلةً فمرحلة . وقلّ من القوافل ما قطع هذه المسافة كلها دون تبديل في الرواحل . وبفضل هذه التجارة توغّل الاسلام في الجزر التي تألّف منها عام ١٩٤٩ الولايات الاندونيسية التي يزيد عدد سكانها المسلمين على ثمانين مليوناً ويقرب من عدد سكان باكستان التي تعتبر اعظم بلد اسلامي عدداً .

وبلغت تجارة الاسلام مراكش واسبانيا غرباً . وقد فكر الرشيد بحفر قناة السويس قبل ده لسّبس بألف سنة . ولكن العرب لم يبرّزوا في ميدان تجارة البحر المتوسط ولم تنل تجارتهم على شواطىء البحر الاسود فلاحاً ، مع ان القرن العاشر شهد لهم تجارة نشيطة في انحاء الفولغا شمالاً . وكانت تجارتهم على شواطىء بحر قزوين نشيطة جداً لقربها من الاوساط الفارسية ومدن سمرقند وبخارى العامرة وغيرها من المدن الداخلية الآهلة بالسكان . وكان التجار المسلمون يحملون التمور والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والأدوات الفولاذية والاواني الزجاجية ثم يعودون ومعهم أمتعة كثيرة من التوابل والكافور والحرير

من أقاصي آسيا ، والعاج والابنوس والرقيق الاسود من افريقيا .

أما بعض الثروات في ذلك العصر فكانت لا تقل عن ثروات ملوك المال في عصرنا هذا . ولا أدل على ذلك من حكاية ابن الجصّاص الجوهري ببغداد إذ ظل له من الثروة بعد ان صادر الخليفة المقتدر أملاكه ستة عشر مليون دينار ، وهو أول مُثْرٍ في اسرة اشتهرت بعده بتجارة الجواهر . وكان الدخل الفردي لبعض تجار البصرة الذين نقّلت بواخرهم البضائع الى الاصقاع النائية يُنيف على مليون درهم . واشتهر في بغداد والبصرة تاجر أمي صاحب مطاحن بتصدّقه اليومي على الفقراء بمبلغ مئة دينار . وكان التاجر العادي في سيراف ينفق على داره اكثر من عشرة آلاف دينار في حين ينفق غيره من التجار ثلاثين الفاً. وأثرى الكثيرون من تجار البحر فبلغت ثروة الواحد منهم اربعة ملايين دينار .

ولولا الاهتمام بالصناعة الوطنية والزراعة لما بلغ التوسع التجاري هذا المدى . فازدهرت في كثير من انحاء الامبراطورية صناعة اليد ، وانحصرت في آسيا الغربية صناعات حياكة السجاد والقطن والصوف والاطلس والاقمشة المطرزة والارائك وأغطية المساند وغيرها من قطع الرياش وأواني الطعام. واشتهرت أنوال الحياكة في فارس والعراق بصنع البُسُط والمنسوجات الفاخرة. وكان لأم الخليفة المستعين سجادة صُنِعت خصيصاً لها انفقت ّها مئة وثلاثون مليون درهم، وعليها صور مختلفة فيها الطيور الذهبية

ذات العيون من الياقوت وسواه من الاحجار الكريمة . وكان في بغداد حي يدعى بالعتابي نسبة الى امير أموي كان من قاطنيه . فأصبح النسيج المخطط المصنوع فيه والذي ظهر لأول مرة في القرن الثاني عشر يعرف بذلك الاسم « العتابي » . ثم أخذ عرب الاندلس في تقليد حياكته حتى اشتهرت لفظة « تابي » في فرنسا وايطاليا وسواهما من أقطار اوروبا الى ان دخلت اللغة الانكليزية التي تطلق فيها هذه اللفظة على القطط المخططة الجلد . وأنتجت الكوفة المناديل الحريرية لباساً للرأس وهي المعروفة ليومنا هذا بالكوفية . وكان في تستر والسوس بخوزستان (سوزيانا القديمة) معامل عديدة شهيرة بزركشة الدمقس (وهو نسيج صنع أصلاً في دمشق) الموشى بالذهب والستائر المصنوعة من الخز . اما منسوجاتهم المصنوعة من وبر الابل والمعزى والأردية المصنوعة من الحرير المغزول فقد كانت كثيرة الانتشار . وأصدرت شيراز العباءات الصوفية المخططة والاقمشة الناعمة الشفافة والمنسوجات المقصبة . وكانت سيدات العصور الوسطى الاوروبيات يبتعن من الاسواق الحرير الفارسي المعروف بالتافته (وهي كلمة فارسية) .

أما زجاج صور وصيدا وغيرهما من مدن الشام فقد ضرب المثل برقته وصفائه . ولقد تحدرت صناعة الزجاج هذه من الفينيقيين الذين برعوا بها وكانوا اقدم من تعاطاها بعد المصريين. وتعرف الأوروبيون الى هذا الزجاج عن طريق الحملات الصليبية فأصبح مثالاً لصنع الزجاج الملون الذي كانوا يزينون

به كنائسهم . وشاعت الأواني الزجاجية الملونة من صنع الشام حتى صارت من اوازم المنزل والرفاهية ، فكثر الطلب عليها في البلدان العربية .

ومما يسترعي النظر ان صناعة ورق الكتابة دخلت البلدان العربية في اواسط القرن الثامن من الصين عن طريق سمرقند. وكان ورق سمرقند التي استولى عليها المسلمون عام ٧٠٤ منقطع النظير بجودته . وقبل اختتام ذلك القرن شاهدت بغداد أول معمل للورق ثم تلته تدريجياً معامل اخرى . وظهر اول معمل للورق في مصر حوالى سنة ٩٠٠ او قبل ذلك ، وفي مراكش سنة ١١٠٠ ، وفي اسبانيا حوالى سنة ١١٥٠ . ثم ظهرت ضروب مختلفة من الورق منها الابيض والملون . ووصلت صناعة الورق الى اوروبا المسيحية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن طريق الاندلس وايطاليا . وكان للورق اهميته الكبرى لا سيما عندما اختُرعت الطباعة بالحروف المتحركة بين عامي ١٤٥٠ و ١٤٥٥ اذ سهّل الاثنان انتشار العلم والتهذيب العام انتشاراً لا تزال أوروبا واميركا تتمتعان الى اليوم بحسناته .

وانتعشت الزراعة في دور العباسيين الاوائل انتعاشاً محسوساً لأن عاصمتهم بغداد قامت في بقعة خصبة من السواد ، ولأنهم أدركوا ان الفلاحة تدرّ على الدولة اهمّ موارد الدخل ، ولأن حراثة الارض وجني خيراتها كان معظمه في ايدي اهل البلاد الاصليين الذين كانت قد تحسنت حالتهم نوعاً ما في عهد المسلمين. وعاود العمران المزارع المهجورة والقرى الخربة في

أنحاء الامبراطورية . وقد وجهت الحكومة المركزية عناية خاصة الى القسم الاسفل من وادي دجلة والفرات ، وهو بعد وادي النيل اكثر البلاد خصباً حتى اعتبرته التقاليد البقعة التي قامت فيها جنة عدن . وقد شقت للماء اقنية* من الفرات تألفت منها شبكة متسعة . اما ما يقوله جغرافيو العرب عن حفر الخلفاء للأقنية او فتحهم للانهار فلا يؤخذ به بحرفه لأن اكثر الاقنية التي ذكروها إنما كانت أقنية اعاد الخلفاء حفرها ، أو فتحها ويرجع عهدها الى زمن البابليين القدماء . وقد انحصر الامر في العراق كما في مصر في حفظ الاقنية الراجعة الى عهد البابليين والفراعنة . ولما عهدت الحكومة العثمانية الى السير وليم ولكوكس قبيل الحرب العالمية الأولى درس مسائل الري في العراق اشار في تقريره بتنظيف مجاري المياه القديمة وترميمها لا بشق مجار جديدة . ويجب ان لا يفوتنا هنا ان سطح الأرض في السواد قد تغير كثيراً منذ ايام العباسيين ، كما ان دجلة والفرات قد تحول مجراهما عما كان عليه مراراً .

ومعظم الاشجار المثمرة والبقول التي تنبت اليوم في آسيا الغربية كانت معروفة لذلك العهد باستثناء التبغ والبطاطس والطماطم وسواها من المزروعات التي دخلت البلدان العربية في العصور الحديثة من العالم الجديد وبعض المستعمرات الاوروبية النائية . أما شجرة البرتقال فكان منبتها الاصلي ، كالأترج والليمون الحامض ، في شمالي الهند أو ملقة ، ومنها امتدت الى آسيا الغربية والبلدان المحيطة بحوض البحر المتوسط ، ثم دخلت

أوروبا عن طريق العرب في الاندلس . وفي هذا العصر ظهرت مزارع قصب السكر ومعامل تصفيتها المشهورة في ساحل الشام على طراز المعروف منها في الجهة الجنوبية الغربية من فارس . ومن الشام اخذ الصليبيون قصب السكر وادخلوه مع السكر الى أوروبا . وهكذا تدرجت بطريقها الى اوروبا هذه السلعة الطيبة التي قد يرجع اصلها الى مقاطعة البنغال في الهند ، فأصبحت من العناصر التي لا يُستغنى عنها في مآكل الانسان المتمدن اليومية .

وكان دخل الدولة الرئيسي من طبقة الفلاحين ، وهم أكثرية الشعب واهل البلاد الاصليون ، وقد عُرفوا بأهل الذمة لانهم كانوا قد دخلوا في عهد الاسلام . أما العربي فاستنكف عن تعاطي الزراعة وحسبها دون مقامه. وكان أهل الكتاب في بادىء الامر ، وهم المعروفون بأهل الذمة ، يشملون النصارى واليهود والصابئة ثم ألحق بهم اتباع مذاهب اخرى. وأقام الذميّون في اريافهم ومزارعهم متمسكين بثقافاتهم الخاصة القديمة ومحافظين على لغاتهم الاصلية . وقد احترم المسلمون على وجه العموم وضع اهل الذمة هذا على الرغم مما عانوه في بعض الحقب من الاضطهاد الديني .

أما في المدن فقد تقلد النصارى واليهود مناصب سامية في دوائر الحكومة من مالية وكتابية وغيرها من المهن . فأثار هذا غيرة المسلمين وحسدهم مما أدى الى سن شرائع تميز بين المسلم والذمي . إلا ان هذه الشرائع بقيت « حبراً على ورق » ولم تُنفذ إلا في بعض الاحايين .

وكان عمر الثاني الخليفة الاموي المتدين أول من أمر النصارى واليهود أن يرتدوا ألبسة تميزهم من المسلمين، وحرمهم مناصب الدولة. والظاهر ان هذه الاحكام لم يعمل بها بعده، الى ان جاء هرون الرشيد فأمر بتنفيذ بعضهـــا. وقد بلغت المراسيم المتخذة ضد اهل الذمة أشدها في زمن المتوكل الذي أمر في سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ ان يضع النصارى واليهود على ابواب دورهم صور شياطين من خشب تفريقاً لمنازلهم عن منازل المسلمين، وأن يجعلوا قبورهم لا تعلو عن سطح الارض كي لا تشبه قبور المسلمين، وأن يلبسوا الطيالسة (جمع طيلسان) العسلية وان يلصقوا رقعتين على ماظهر من لباس مماليكهم تخالف لونهما لون الثوب الظاهر على ان تكون احداهما بين يدي المملوك عند صدره والاخرى على ظهره. ولم يرخص لهم بركوب غير البغال والحمير وباتخاذ السروج من الخشب وبتصبير كرتين على مؤخر السروج. وقد أطلق على الواحد من اهل الذمة لقب « الارقط » اعتباراً لهذا اللباس الذي أمروا باتخاذه. ومن أشد انواع الحيف التي أنزلت بالذميين ذلك المرسوم الذي أفتى به متشرعو الاسلام في هذه الحقبة وهو ان شهادة النصراني واليهودي لا تقوم على مسلم، مستندين الى ما جاء في القرآن من ان اليهود والنصارى حرفوا الاسفار المنزلة ولهذا لا يمكن الوثوق بهم. ولكن النصارى على الرغم من هذه القيود تمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية. ويشهد على ذلك ما تذكره المدونات من مناظرات بين دعاة النصرانية وبين دعاة

الاسلام في حضره بعض الخلفاء من الامويين والعباسيين ومن تقلّد بعض النصارى كرسي الوزارة في النصف الثاني من القرن التاسع . وكان كبار الموظفين من النصارى ينالون ما يناله زملاؤهم المسلمون من الاكرام والتبجيل . فنحن نقرأ مثلاً ان بعض المسلمين اعترض على تقبيل أيديهم . ومما يسترعي النظر والاعجاب ان النصرانية حازت في ظل الخلفاء من النشاط والحيوية قدراً كافياً اهاب بكنيستها الى التوسع وارسال المبشرين الى امصار بعيدة كالهند والصين . ولم يزل في مالابار بجوار مدراس الى اليوم كنيسة مسيحية تنتسب الى مار توما وترجع اصولها الى هذا العهد. وفي سيان فو من اعمال الصين اثر حجري نصب عام ٧٨١ يحمل اسماء ستة وسبعين مبشراً من الكنيسة السريانية .

ولقي اليهود ، وهم ممن دخلوا في عهد الاسلام، من حسن صنيع المسلمين فوق ما لقيه النصارى على الرغم مما جاء في بعض الآيات القرآنية من التنديد بهم . وكان منهم في ازمنة عدد من الخلفاء غير واحد تبوأ اسمى المناصب في الدولة كما كان لهم في بغداد نفسها مستعمرة كبيرة ظلت مزدهرة الى ان سقطت هذه المدينة في يد المغول . ويروي بنيامين التطيلي الذي زارها سنة ١١٧٠ انه وجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيساً أهمها كنيس مزدان بضروب الرخام ومجمّل بالذهب والفضة . وأفاض هذا الرحالة في وصف الاحترام الذي أصابه رئيس الحاخامين من المسلمين الذين اعتبروه سليل النبي

داود رئيس الملة اليهودية . وكان هذا الرئيس اذا خرج للمثول في مجلس الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء تشع بالجواهر . وأحاط به رهطٌ من الفرسان وسار أمامه ساعٍ يصيح بأعلى صوته « افسحوا درباً لسيدنا ابن داود » .

هذه هي صورة مصغرة لحياة الناس في عهد الخلافة وعلاقتهم بعضهم ببعض . وها نحن على عتبة المرحلة الثالثة في سلسلة الفتوحات العربية . كانت المرحلة الأولى هي المرحلةَ الحربية السياسية ، وكانت المرحلة الثانية هي المرحلة الدينية التي ابتدأت في القرن الأول من حكم العباسيين واعتنق خلالها السواد من سكان الامبراطورية الدين الاسلامي . أما المرحلة الثالثة التي سنبحثها في الفصول التالية فتمثل فوزَ اللغة العربية على لغات الشعوب المغلوبة . الا أن هذه المرحلة كانت أبطأ المراحل اذ أبدت فيها الشعوب المغلوبة أشد مقاومة ، مما يدل على انه اسهل على الناس التخلي عن كيانهم السياسي وعن دياناتهم اذا لزم الأمر من التخلي عن لغاتهم .

والواقع انه تسنى للعربية الانتصار كلغة علمٍ قبل أن تسنى لها الانتصار كلغة تخاطب . ولقد لاحظنا في الفصل السابق كيف تسربت مجاري التفكير في الثقافات اليونانية والفارسية والهندية الى بغداد في القرن التاسع فجاءت أساساً لظهور ثقافة جديدة . وبهذا أصبحت اللغة العربيـة أداة للتعبير عن المدنية العربية فكان ذلك بدء العصر الثقافي الذهبي في الاسلام .

العلوم والآداب

وصلنا الآن الى الحقبة التي أصبحت فيها اللغة العربية أداة للتعبير عن العلوم المستجدة كالطب والفلك والكيمياء والجغرافية والرياضيات فضلاً عن الفلسفة والتاريخ والأخلاق والأدب . ولقد ابتدأت هذه الحقبة في النصف الثاني من القرن التاسع على اثر عصر الترجمة الذي دام نحو قرن (٧٥٠—٨٥٠)، فجاءت طافحة بأعلام العلم والادب الذين نفحوا المدنية بالشيء الكثير من مبتكراتهم والذين لا يعرف الناس اليوم منهم الا نفراً معدودين .

لم يكتفِ العرب بالنقل والتقليد بل تعدوهما الى التكييف والتجديد . فهم لم يقنعوا باستيعاب تراث فارس الفني وتراث اليونان العلمي على ما كان عليه بل حوّروا التراثين بموجب حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم . وبعد أن طبعوا ما ترجموه

بطابع العقلية العربية في خلال قرون عدة انتهى أخيراً مع ما ابتكروه الى أوروبا ، عن طريق سورية واسبانيا وصقلية ، فصار أساس العرفان الذي دان له الفكر الأوروبي في القرون الوسطى . على ان نقل الأفكار والعلوم ليس في تاريخ الثقافة بأحط مقاماً من الابتكار . فلو أن أبحاث ارسطو وجالينوس وبطليموس فُقدت لافتقر العالم اليها وكأنها لم تكن قط . ويتعذر في غالب الأحيان وضع حد فاصل بين المترجم والمبتكر فمن المترجمين من كان مترجماً ومبتكراً في وقت معاً .

وكانت أهم مبتكرات العرب في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافية والكيمياء ، فضلاً عن التاريخ والشرع والأدب . واهتمام العرب بعلم الشفاء يدل عليه الحديث النبوي المشهور : « العلم علمان علم الأديان وعلم الابدان » . وقد جمع الطبيب العربي الى علمه بالطب المعرفة بما وراء الطبيعة وأصول الفلسفة والحكمة . وخطا العرب في هذا العصر خطوات واسعة في الاستدواء بشتى العقاقير . فهم أول من أوجد حوانيت لبيع الأدوية ، وأقدمُ من أسس مدرسة للصيدلة ، وصنّف في الاقراباذين رسائل . وكان يُفرض على الصيادلة والأطباء منذ زمن المأمون والمعتصم اجتياز امتحان خاص . وعلى إثر سوء تصرف جرى من احد الاطباء أوعز الخليفة المقتدر عام ۹۳۱ الى سنان بن ثابت بن قُرّة ، وهو طبيب مشهور ، أن يمتحن كل الاطباء ويعطي الأجازات الطبية لمن توفرت فيهم الأهلية فقط . فاجتاز الامتحان في بغداد ما ينيف على ثمانمائة وستين ،

وبذلك تخلصت العاصمة من الدجالين . ومما يدل على العناية بصحة أهل الريف ما أمر به عليّ بن عيسى الوزير في عهد المقتدر من ارسال بعثات من الأطباء تحمل الأدوية وتطوف أنحاء البلاد تعالج المرضى والمعوزين . وكانت بعثة من الأطباء تتفقد السجون يومياً . فمن هذه الحقائق يظهر لنا اهتمام أولياء الأمر بالصحة العامة وهو أمرٌ لم يكن معروفاً في باقي أقطار العالم آنذاك . وفي مطلع القرن التاسع أسس هرون الرشيد أول مستشفى في الاسلام على الطراز الفارسي . ولم يطل الوقت حتى نشأ في العالم الاسلامي مستشفيات أخرى بلغ عددها اربعة وثلاثين. ولقد شاهدت القاهرة أول مستشفياتها في أيام ابن طولون حوالى عام ٨٧٢ فبقي الى القرن الخامس عشر. أما المستوصفات السيارة فقد ظهرت أولاً في القرن الحادي عشر. وكانت في المستشفيات الاسلامية أجنحة خاصة بالنساء ، وكان لكل مستشفى مستوصف مخصوص به. وكانت بعضها مجهزة بمكتبات وتقوم بتدريس بعض الموضوعات الطبية .

وأشهر المؤلفين في الطب الذين ظهروا على اثر عصر الترجمة رجال فارسيو القومية عربيو اللغة . ولاثنين منهم ، هما الرازي وابن سينا ، اسمان تزدان بهما القاعة الكبرى في مدرسة الطب في باريس .

ولعلّ الرازي (٨٦٥ — ٩٢٥) أعظم الأطباء وأشدهم ابتكاراً وأكثرهم انتاجاً ليس في الاسلام فقط بل في القرون الوسطى قاطبةً . ومما يُروى أن الخليفة استشاره في الموضع الذي

يجب أن يُبنى فيه مستشفى بغداد العظيم الذي كان هو رئيس الطبابة فيه . فأمر ان يعلّق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغيّر ولم ينتن فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يُبنى المستشفى فيها . والى الرازي ينسب اختراع الفتيلة في الجراحة .ومن أهمّ ما وضعه في الكيمياء « كتاب الاسرار » الذي تداولته فيما بعد أيدي محررين عديدين . ولقد نقله الى اللاتينية جرارد الكرْمُوني Gerard of Cremona فظلّ مرجعاً رئيسياً لعلم الكيمياء حتى القرن الرابع عشر . واقتبس منه الفيلسوف الانكليزي المعروف روجر باكون Bacon ، أما رسائله فأشهرها رسالته في « الجُدَري والحصبة » وهي أقدم ما كتب في هذا الموضوع ، وتُعدّ تحفةً في علم الطب عند العرب . ولقد نشرها الدكتور فانديك في بيروت عام ١٨٧٢ .

بيد أن أشهر مؤلفاته على الاطلاق « الحاوي » وهو كتاب جامع نقله الى اللاتينية فرج بن سالم الاسرائيلي سنة ١٢٧٩ برعاية ملك صقليّة . وقد طبعت هذه الترجمة مرات أولها عام ١٤٨٦ في حين ظهرت طبعتها الخامسة في البندقية عام ١٥٤٢ . والكتاب كما يدل اسمه موضوعة طبية حوت خلاصة ما كان في حوزة العرب من المعارف المستقاة من المصادر اليونانية والفارسية والهندية مع ما جاء به العرب أنفسهم من الابتكارات الخاصة الطريفة . ولقد ظلت مؤلفات الرازي هذه – التي طبعت باللاتينية لما كانت صناعة الطباعة لا تزال في بدء عهدها – تسيطر على عقول اللاتين في الغرب قروناً عديدة .

وأشهر الأطباء العرب بعد الرازي ابن سينا ، وقد امتاز بمواهب باهرة فبرع في الطب والفلسفة والشعر والفقه . وألف كتباً ورسائل كثيرة في هذه العلوم وغيرها . ويقال ان مؤلفاته ورسائله بلغت تسعة وتسعين . أما مؤلفه الجليل « القانون في الطب » فقد كان موسوعة جامعة احتلت مقاماً سامياً في آداب ذلك العصر الطبية وأصبحت كتاباً مدرسياً تعتمد عليه دور العلم في أوروبا . وفي الثلاثين السنة الاخيرة من القرن الخامس عشر صدر « القانون » في خمس عشرة طبعة لاتينية وطبعة عبرانية واحدة . ولقد نُقل بعضه حديثاً الى اللغة الانكليزية . ومما يدل على سعة محتويات « القانون » ان قسماً منه يبحث في نحو سبعمائة وستين من العقاقير والأدوية . فلا عجب اذا ادرك هذا الكتاب تلك المنزلة التي أصبح فيها دليل طلاب العلوم الطبية في المشرق والمغرب حتى القرن السابع عشر . ولا يزال الناس في الشرق الاسلامي يستعينون به أحياناً .

وأول عمل خطير قام به العرب في علم الفلسفة هو التوفيق بين فلسفة اليونان والفكر الاسلامي . والفلسفة عند العرب هي معرفة مسببات الأمور كما هي على قدر ما تستطيع الوصول الى تحقيقه قوى الانسان العاقلة . وهذه النظرة الفلسفية يونانية في جوهرها أخذها العرب بعد أن كانت قد تحورت بمؤثرات الشعوب المغلوبة وسواها من الشعوب الشرقية . فطبقوها على ميول الاسلام العقلية ونشروها عن طريق اللغة العربية . وحسب العرب ان مؤلفات ارسطو حوت مجمل التراث الفلسفي اليوناني

كما حوت مؤلفات جالينوس مجمل تراث اليونان الطبي . واعتقدوا ان القرآن وعلم الألهيات الاسلامي حَوَيا مجمل الشرع والاختبار الديني . فشحذوا اذهانهم وأعملوها في الهامش المشترك بين الفلسفة وعلوم الدين وبين الفلسفة والطب ، فاتحفوا العالم بمبتكرات قيمة . ومما يخلد مجد الاسلام في القرون الوسطى ان اتباعه كانوا أول من نجح في تاريخ الفكر البشري في التوفيق بين فكرة التوحيد — الاعتقاد بالله واحد وهو أسمى ما جاد به العالم السامي القديم — وبين الفلسفة اليونانية التي كانت اسمى ما جاد به العالم الهندي الأوروبي القديم . وبذلك أرشد الاسلام أوروبا المسيحية الى النظرة الحديثة في العلم والدين .

وكان العلم في العصور المتوسطة ، ولا سيما في العالم الاسلامي ، اقل تجزئة واختصاصاً مما هو عليه اليوم. فالفيلسوف مثلاً ربما كان رياضياً وموسيقياً أيضاً والفلكي قد يكون شاعراً . ولعل القارىء الذي يعهد عمر الخيام مؤلف الرباعيات شاعراً فارسياً ومفكراً حراً يذهل اذا سمع ان عمر كان رياضياً بارعاً وفلكياً ممتازاً . والكندي الفيلسوف العربي المشهور لم يكن فيلسوفاً فقط بل كان عالماً بالتنجيم والكيمياء والبصريات وأصول الموسيقى أيضاً. وقد سعى ، شأن أصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، الى مزج آراء افلاطون وارسطو والتوفيق بينهما وحسب الرياضيات التي خلفتها مدرسة فيثاغورس المتأخرة أساس العلم على الاطلاق ، وقد نُسب الى الكندي ما لا يقل عن ٢٦٥ كتاباً أكثرها مفقود . ومن كتبه التي انتشرت في

الشرق والغرب مؤلّفه الفريد في علم البصريات وهو يستند الى مؤلف اقليدس في هذا العلم . وكان ممن تأثر بهذا الكتاب روجر باكون . ويستدل من رسائل الكندي في الموسيقى ان العرب عرفوا الأوزان الغنائية والقياسات الموسيقية قبلما عرفتها أوروبا المسيحية بقرون .

وبدأت دراسة الفلك العلمية في الاسلام تحت تأثير كتاب هندي (السِنْد هِنْد) أتى أحدهم به الى بغداد في عام ٧٧١ . وفي مطلع القرن التاسع تمت أول أرصاد منظمة استخدمت فيها آلات دقيقة الضبط صُنعت في جنديسابور (من أعمال فارس الجنوبية الغربية) . وقُبيل منتصف هذا القرن شاد الخليفة المأمون مرصداً في بغداد وآخر في ضواحي دمشق . وقد تجهزت المراصد في تلك الأيام بآلات منها مقياس الارتفاع والأسطرلاب وساعة شمسية (مِزْوَلة) وكرة . ولقد أجرى فلكيو الخليفة المأمون عمليةً من أدق العمليات الجغرافية وهي قياس طول الدرجة الأرضية ، ورموا بذلك الى تحديد حجم الارض ومحيطها على افتراض ان الأرض مدورة . والقياس الذي أجروه في سهل سنجار شمالي الفرات وكذلك بالقرب من تدمر أدى الى نتيجة جعلت درجة الطول ستة وخمسين ميلاً عربياً وثلثي الميل وهو رقم لا يزيد على الرقم الصحيح بسوى ٢٫٨٧٧ قدماً .

وكان على رأس العلماء الفلكيين الذين ساهموا في هذه العملية الخوارزمي ، وهو من أشهر رجال العلم في الاسلام ، وقد ترك أثراً بليغاً في الفكر الرياضي لم يتركه غيره في العصور

الوسطى . وفضلاً عما قام به من جمع تقويم فلكي (زيج) وتنسيقه فقد أنشأ أقدم كتاب في الحساب وآخر في الجبر «حساب الجبر والمقابلة» وكلاهما منقول الى اللاتينية . ولقد بقي مؤلفه هذا في الجبر كتاباً مدرسياً رئيسياً للرياضيات في جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر . وبواسطته تطرقت الى أوروبا مبادىء علم الجبر ومعه اسم هذا العلم الذي اقتبسته كل اللغات الأوروبية عن العربية . والى مصنفات الخوارزمي أيضاً يعود الفضل في نقل الارقام العربية (التي يسميها العرب الارقام الهندية دلالة على الاصل الذي اتخذوها منه) الى العرب .

وكان أعظم ما أسداه العرب الى العلم بعد الطب والفلك والرياضيات مآثرهم في علم الكيمياء الذي لم يزل يحتفظ باسمه العربي في جميع اللغات الاوروبية . ففي دراسة الكيمياء وسواها من العلوم الطبيعية أدخل العرب التجربة الموضوعية ، وهي خطوة تحسين راهن على تأملات اليونان الغامضة . الا انهم على الرغم من اقتدارهم على ملاحظة المظاهر العلمية وجدهم في جمع الحقائق وجدوا صعوبة في رسم النظريات السديدة واستخراج النتائج العلمية المحققة ، فكان هذا أضعف المواطن في طرق تفكيرهم .

وكان ابو الكيمياء العربية جابر بن حيان الذي لمع نجمه في الكوفة حوالى ٧٧٦ . وقد وجه جابر اهتمامه الى ما شغل به اسلافه في العلم من مصريين ويونان وهو حسبان ان المعادن السفلى مثل الحديد والنحاس يمكن تحويلها الى ذهب أو فضة

بواسطة مادة عجيبة جعل البحث عنها أمنيّته الكبرى . ولجابر الفضل في أنه أول الكيماويين الذين نادوا بأهمية البحث التجريبي وفي انه خطا خطوات واسعة في سبيل التقدم الكيماوي من وجهتَيه النظرية والعملية.وتنسب اليه الروايات الغربية التقليدية الكشف عن عدة مركّبات كيماوية لم تذكرها المصنّفات العربية الاثنان والعشرون الباقية من المؤلفات المنسوبة اليه . والظاهر ان أكثر الكتب المائة التي تحمل اسمه في اللغتين العربية واللاتينية ملفق . ومهما يكن الأمر فهذه الكتب المنسوبة اليه أصبحت بعد القرن الرابع عشر أشدكتب الكيمياء تأثيراً في أوروبا وآسيا . ومن المؤكد ان بعض أبحاثه العلمية تناولت التكليس (تحويل المعدن الى مسحوق أو رماد بواسطة الاحتراق) والتصفية . ولقد حسّن جابر في أساليب التبخُّر والتصعد والتصهير والتبلور. وعرف طريقة تحضير الحامض الكبريتي العكِر وحامض النيتريك العكِر وعوّل على احراج الماء الملكي (حامض نيترو هيدرو كلوريك) من خليطها الذي يمكن اذابة الذهب والفضة فيه . وعلى العموم فانه عدّل نظرية ارسطو في بسائط تركيب المعدن على أساس لم تُدخل عليه تغيرات كثيرة الى أوائل عصر الكيمياء الحديث في القرن الثامن عشر .

ومما أهاب بالعرب الى دراسة الجغرافية حوافز دينية . منها فريضة الحج وتوجيه القِبلة نحو مكة في بناء المساجد وضرورة تعيين القِبلة بالضبط كي يولي العابد عند الصلاة وجهه شطر الكعبة . كما ان علم التنجيم الذي يتطلب تعيين خطوط الطول

والعرض لكل موضع في الأرض حدا بأربابه على الاعتناء بالجغرافية . ثم ان تجار الاسلام كانوا قد بلغوا بين القرن السابع والتاسع الصين في الشرق براً وبحراً . وانتهوا الى جزيرة زنجبار وأقاصي شواطىء افريقيا جنوباً وتوغلوا في روسيا شمالاً ، ولم تصدهم في أسفارهم غرباً الا أمواج «بحر الظلمات» الاتلانتيكي. فكان للاخبار التي عادوا بها تأثيرها في اثارة اهتمام القوم للاطلاع على اسرار البلدان القصية والشعوب الغريبة . ونُقلت «جغرافية» بطليموس الى العربية مراراً من اليونانية مباشرة ومن الترجمات السريانية . وعليها اعتمد الخوارزمي الذائع الصيت في رسم خريطة دعاها « صورة الأرض » ساهم في رسمها تسعة وستون عالماً . وهي أول خريطة في الاسلام تُظهر السماوات والارضين. وكان أول جغرافيي العرب قد أخذوا عن الهند فكرة القول بأن للعالمين مركزاً أسموه أرين تحريفاً لكلمة أوجيني (اوزيني في جغرافية بطليموس) وهو اسم بلدة هندية قام فيها مرصد فلكي على خط طول قالوا ان قبة الأرض فيه ، وان أرين هذا انما هو على خط الاستواء بين طرفي الشرق والغرب . ومما اعتقدوه ان قمة خط الطول في الغرب انما هي على بعد تسعين درجة من هذه القبة الوهمية . واعتاد جغرافيو الاسلام عامة قياس خط الطول ابتداء من خط الطول الأول الذي عمل به بطليموس ، وموقعه في الجزائر المعروفة اليوم بجزائر الكناري .

وكما اعتمد كتّاب العرب على اصول الفلسفة والطب عند اليونان كذلك اعتمدوا على الاصول الفارسية في التاريخ والانشاء

الأدبي . أما أساليب التعبير فلم تخرج عن طريقة رواية الحديث الاسلامي . بمعنى ان كل حادثة كانت تُروى بلسان المحدّثين من شهود العيان والمعاصرين ثم يتناقلها الحفّاظ الى ان تصل الى راويها الاخير وهو المؤلف الذي يذكر سلسلة الأسانيد كلها . ولقد ساعد هذا على ضبط الحوادث وتعيين تواريخها بالشهر واليوم . الا ان مبلغ صحة الرواية كلها يقوم عندهم على مواصلة الأسانيد وعدم انقطاعها والثقة برواتها أكثر مما يقوم على نقد الواقعة ذاتها وتمحيصها . نعم ان المؤرخين تخيروا الثقات ورتبوا المدلولات غير ان اهتمامهم بتحليل هذه المدلولات ونقدها ومعارضتها وتمحيصها كان قليلاً .

ومع ان مؤرخي العرب ألفوا كثيراً في أحداث ذلك الزمن فان أفضل معالجتهم التاريخية انحصرت في الحديث أو علم التقاليد الدينية . وفي خلال القرنين والنصف التي عقبت وفاة محمد ازدادت الأقوال والأعمال المنسوبة الى النبي فتضخم المجموع منها وغزرت مادته . وكان كلما نشب خلاف في الاسلام بين فريق وفريق ، سواء أكان دينياً أو سياسياً أم اجتماعياً ، حاول كل من الفريقين أن يؤيد دعواه بكلمة قالها النبي أو حكم أصدره صحيحة كانت هذه الكلمة (أو هذا الحكم) أم ملفقة .

ولكلّ حديث قسمان : الاسناد والمتن . والمتن يتلو الاسناد ويتخذ شكل الاقتباس الحرفي : « حدثني فلان قال حدثنا فلان عن فلان عن فلان الخ قال ... » . وهذه الصيغة نفسها درّج

عليها المؤلفون في كتابة التاريخ والادب . وفي كل هذه الموضوعات كان النقد عادةً سطحياً مقصوراً على التثبت من صدق الرواة .

ولم يكن في القرون الوسطى بعد الرومان أحدٌ غير العرب عُنِيَ بعلم الشريعة فأنشأ لها نظاماً مستقلاً . والفقه عندهم مبني في الدرجة الأولى على القرآن والسُنة (أي الحديث) ولا شك في انه تأثر بالنظام اليوناني والروماني . وبواسطة الفقه اتصلت الشريعة ، أي أوامر الله المنزَلة في القرآن الموَضّحة في الحديث ، بالاجيال اللاحقة .

وفروض الشريعة الاسلامية تنظم للمسلم حياته من وجهاتها الدينية والسياسية والاجتماعية وتحدد علاقاته الزوجية والمدنية وشؤونه مع غير المسلمين . كذلك أدب السلوك يستمد التصديق والنهي من لدن الشريعة التي تقسم أعمال الانسان الى خمسة ضروب وهي (١) الفرض أي ما أوجبه الله بدليل قطعي يُجزى فاعله خيراً ويُعذب تاركه . (٢) المستَحب مما يجزى فعله ولا يلام تركه . (٣) الجائز المباح . (٤) المكروه الذي يستنكر ولو لم يعذب صاحبه . (٥) الحرام الذي يعذب فاعله .

والمؤلفات في علم الاخلاق المبنية على القرآن والحديث ، وان كثرت ، لا تستنفد كل ما في الآداب العربية مما يعنى بهذا العلم (الاخلاق) . وكانت هذه الفلسفات الاخلاقية جميعاً تحبذ فضائل معينة كالزهد في الدنيا والقناعة والتحمل ، وتحسب

الرذائل عللاً نفسية بحيث يتطلع الفرد المسلم الى فيلسوف الاخلاق تطلعه الى طبيب الجسم . أما ترتيب هذه العلل فقد قام على تحليل القوى النفسية واخراج ما لكل قوة من فضيلة أو رذيلة خاصة بها .

أما أدب اللغة العربية بمعناه الضيق فقد بلغ أوجه حوالى العام الألف للميلاد . واذ قد تأثر بالأدب الفارسي مال الى التعمل والتأنق . وهكذا زال الايجاز والاقتصاد اللفظي وبساطة العبارة التي اتصف بها أدب العصور الأولى وحل محلها أسلوب الزخرفة والأناقة والتبسط في المجاز والاقبال على السجع . ومن أدب هذه الحقبة انتقى الغرب كتاباً واحداً أولاه اهتمامه هو كتاب « الف ليلة وليلة » وأصله قصص فارسية قديمة نقلها الى العربية الجهشياري المتوفى عام ٩٤٢ . الا ان القصاصين المتعاقبين أضافوا اليه قصصاً أخرى كثيرة . كما أضافوا اسم بطلة هذه الروايات « شهرزاد » . وعلى تعاقب الاجيال الحقت بهذه المجموعة حكايات كثيرة جديدة من مصادر لا تحصى — هندية ويونانية وعبرانية ومصرية وشرقية مختلفة الصفات والالوان . وتطرّق اليها أيضاً نوادر ونكات وغراميات من بلاط هرون الرشيد . بيد ان المجموعة التامة لهذه القصص ، وهي المتداولة اليوم ، لم تتخذ شكلها الحاضر حتى القرن الرابع عشر ، والواقع ان الاقبال على هذا الكتاب هو في الغرب أكثر منه في الشرق .

وفي الوقت الذي وضع فيه كتاب « الف ليلة وليلة » في شكله العربي الناجز كان عصر الاسلام الذهبي في العلم والأدب

قد انقضى . ولم يقم العرب بعد العصر العباسي بتقدم ملحوظ في اي علم طبيعي . ولو اقتصر مسلمو عصرنا الحاضر على المؤلفات الاسلامية التي بين أيديهم لوجدوا أن ما عندهم منها أقل بكثير مما كان عند اسلافهم في القرن الحادي عشر . فكأن العرب وصلوا الى حد معين في علوم الطب والفلسفة والرياضيات والنبات وغيرها جمدت عنده قرائحهم ، وقعدوا منذ ذلك الحين لا يأتون بشيء غير المفاخرة بالماضي وتقاليده ، سواء في الدين أو العلم ، مما قيد الفكر العربي بقيود محكمة ، بيد ان العرب بدأوا يستيقظون في السنوات الأخيرة ويعملون على التفلت من هذه القيود .

الفنون الجميلة

ان شأن العربي في الفنون الجميلة كشأن سائر الساميين له في فنه وشعره عناية خاصة بالدقائق وتقديرٌ للتفاصيل واحاطة بما هو نفسي موضوعي ، ولكنه بعيدٌ عن المقدرة على موازنة الأجزاء المختلفة وضبطها وتنظيمها في كيان واحد شامل . وجهودهُ في الفنون كجهوده في العلوم انتهت باكراً الى حد من الارتقاء معلوم ، وذلك في القرن العاشر ، لم تتجاوزه فيما بعد باستثناء الهندسة المعمارية والتصوير والخط .

والعصر الأموي مُخلّدٌ في بناءَين يعدّان من أبدع ما أبقاه الفن الاسلامي وهما المسجد الأموي في دمشق وقبة الصخرة في بيت المقدس . ولكن صروح الابنية الرائعة التي ازدانت بها بغداد في العهد العباسي لم يبقَ لها اليوم من اثر خلا القصر العباسي وبناية المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة المستنصر

عام ١٢٣٤ وكانت مستودعاً للكمرك حتى عام ١٩٤٥ وفيها اليوم متحف للآثار . فالخراب الذي جرّته الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون والتدمير الذي أنزله بالعاصمة المغـول سنة ١٢٥٨ وعوامل الفناء الطبيعية قد مَحَت الاطـلال والعمارات وأصبح من المتعذّر اليوم تعين مواقع معظمها بالتأكيد .

أما في غير بغداد العاصمة فأطلال العباسيين لا يمكن إرجاع عهد أقدمها إلى ما قبل خلافة المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١) باني الجامع العظيم في سامرّا الذي بلغت نفقته سبعمائة الف دينار ، وهو قائم الزوايا تدل قناطر شرفاته المتعددة على تأثير هندي . والآثار العباسية الباقية في الرقة (من أعمال سورية الشمالية) التي ترجع إلى آخر القرن الثامن ، وفي سامرّا تمتّ الى التقليد الاسيوي بنسب ولا سيما هندسة البناء الفارسية ، بخلاف الأبنية الأموية التي تحمل آثار الفن البيزنطي السوري .

ولقد جاء التعليم القرآني شديد الاستنكار لمعاقرة الخمرة بيد أنه لم يستأصل عادة الشراب في المجتمع الاسلامي . كذلك فأن عداوة الفقهاء لأنواع الفن التصويري لم تحل دون ارتقاء هذا الفن على أساليب اسلامية . وقد قدّمنا ان الخليفة المنصور أقام على قبة قصره تمثال فارس ربما كانت الغاية منه الاستدلال على جهات الريح . وكانت للخليفة الامين حرّاقات ، على دجلة في شكل الأسُود والعقبان وفيَلة الماء . وكان للخليفة المقتدر دار فسيحة ذات بساتين فيها شجرة وسط حوض ماء

لها ثمانية عشر غصناً من الفضة والذهب . وكانت تقوم على كلّ جانب من هذا الحوض تماثيلُ خمسة عشر فارساً يلبسون الحرير المدبّج ويتقلدون رماحاً تتحرّك على الاستمرار كأنهم في وطيس معركة حربية . أما الخليفة المعتصم باني سامرّا فقد زين جدران قصره بنقوش تظهر فيها أجسام نساء عارية ومشاهد للصيد لعلّها من عمل الفنانين النصارى . وفي عهد الخليفة الثاني ، المتوكل ، بلغت هذه العاصمة الموقتة أوج مجدها . وقد استخدم المتوكل فنّانين بيزنطيين لتزويق جدران قصره فلم يتورّع هؤلاء عن إضافة صور الكنائس والرهبان الى هذه التزاويق .

إن الفنون الجميلة ، ومنها التصوير ، لم تستعمل في الديانة الاسلامية كما هي الحال في الديانتين المسيحية والبوذية .

فالاسلام قلما استخدم النحت والتصوير لمصلحته . وأقدم رسم يمثل النبي شاهده أحد السياح العرب في بلاط أحد أمراء الصين ، ولعله كان من رسم النساطرة . فهذا التصوير الاسلامي الديني المحدود لم يظهر كاملاً حتى أوائل القرن الرابع عشر . والظاهر انه مشتق من فن الكنائس الشرقية ، وبالاخص اليعقوبية والنسطورية ، ومُتَّبِعٌ نماذج الزخرفة في الكتب .

وبمساعي الفرس الذين كانوا منذ أقدم العصور سادة فن الزخرفة والتلوين بلغت فنون الاسلام الصناعية درجة راقية . فنمت حياكة السجاد ، وهي تعود بقدميّتها الى زمن الفراعنة ، وارتقت وخصّها المسلمون باظهار مشاهد الصيد والحدائق .

واستعملوا حجر الشب في الصباغ لتثبيت الألوان . وكانت المنسوجات الحريرية المزخرفة من صنع أنوال المسلمين اليدوية في مصر والشام موضوعَ إقبال أوروبا حتى ان الصليبيين وغيرهم من أهل الغرب اختاروها دون سواها لحفظ آثار قديسيهم .

وفي صناعة الفخّار ، وهي فن آخر يرجع بقدميته الى عصور مصر القديمة وعصور سوسا ، أعاد المسلمون ثانية تمثيل صور الجسد البشري والحيوانات والنباتات والاشكال الهندسية والكتابية فبلغ هذا الفن أعلى درجة في الجمال بين الفنون الاسلامية . والآجر القاشاني المزوّق بأنواع الزهور المألوف استعمالها دخـــل دمشق عن طريق فارس ، فذاع أمره وانتشر كما انتشر استعمال الفسيفساء في زخرفة الابنية من الداخل والخارج . وقد امتازت الحروف العربية بقابليتها للزخرفة فأصبحت عاملاً كبيراً في الفن الاسلامي . وأتقن طلي الزجاج بالميناء وتغطيته بالذهب ولا سيما في انطاكيـة وحلب ودمشق وبعض المدن الفينيقية القديمة كصور . وفي خزائن متحف اللوفر والمتحف البريطاني والمتحف العربي في القاهرة قطع فنّية من سامرّا والفسطاط فيها الصحون والاقداح والمزهريات والاباريق والقناديل المستعملة في المنازل والمساجد مطلية طلياً زاهياً براقـاً أو مصقولة بمواد معدنية بهيئة تماوج فيها ألوان قوس قُزَح .

وظهر فن الخط الذي يؤيده النص القرآني في القرن الهجري

الثاني أو الثالث . ولقد استمدّ هذا الفن مكانته من نزوع أربابه الى تخليد كلام الله فأصبح فناً معززاً مرغوباً فيه . وهو فنّ اسلامي خالص ينشد فيه المسلم واسطة للتعبير عما انطبع عليه من تذوق الجمال الذي حُظر عليه التعبير عنه بواسطة التصوير. وقد كان للخطاط مكانة وكرامة لم يتمتع بهما المصور حتى ان الحكام أنفسهم سعَوا الى الحظوة الدينية بواسطة نسخ القرآن . ولقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب العربية أسماء عدد من الخطاطين وأغدقت عليهم النعوت الطيبة بخلاف المهندسين المعماريين والمصورين وصنّاع الأواني المعدنية الذين سكتت هذه الكتب عن ذكرهم . ولعل فنّ الخط هو الفنّ العربي الوحيد الذي ظل مزدهراً الى يومنا هذا ، وله ممثلون من مسيحيين ومسلمين في القسطنطينية والقاهرة وبيروت ودمشق جاءوا بمنتجات تفوق في جمالها وأناقتها أحسن ما أخرجه الاقدمون .

وفن الخط وغيره من فنون الزخرف والتلوين وصناعة تجليد الكتب اجمالاً يعود الفضل في نشوئها وازدهارها الى علاقتها بكتاب الله . وقد وُلد فنّ زخرفة الكتب وتزيين المصاحف في عهد العباسيين وبلغ ذروته في القرن الخامس عشر.

ولم يحُل استنكار أهل الشرع لفنّ الموسيقى سواء أكان ذلك في دمشق أم بغداد دون انتشاره . وكان بلاط هرون الرشيد الزاهي شديد الاهتمام بهذا الفن ، شأنه في العلم والأدب ، فاجتمعت في جوه كواكب الموسيقى المتألقة . وقد زها في

كنفه نفر من أقطاب الموسيقى أجريت عليهم الأرزاق بساعدهم عدد كبير من الجواري والعبيد . وقد كان لهذه الفئة الراقية من أهل الفنّ آثار لامعة من النوادر والقصص المبالغ فيها مما تخلده صفحات « الف ليلة وليلة » . وفي الاخبار انه اشترك في مهرجان موسيقيّ الفان من هؤلاء المغنين والمغنيات تحت رعاية الخليفة الرشيد . أما ابنه الأمين فقد أحيا مرةّ ليلة لهو رقص فيها أهل البلاط ذكوراً واناثاً حتى مطلع الفجر .

ومن الذين خصّهم الرشيد برعايته المغني مُخارق الذي اشترته أول امره احدى المغنيات إذ سمعته ينادي بصوته القوي العذب على اللحم الذي كان يبيعه أبوه فأعجبت بصوته . ثم صار الى حوزة الرشيد فاعتقه ووصله بمائة الف دينار وأدناه من مجلسه . ذكروا انه توسّط في احدى الليالي دجلة واندفع يغني بأعلى صوته فما بقي أحد من سامعيه إلا بكى. وظهرت الشموع والسرج من جانبي دجلة في صحون القصور والدّور تتساعى بين أيدي أهلها يستمعون غناءه .

وكان مُخارق وسواه من أرباب فنّ الموسيقى في تلك الأيام السعيدة من ندماء الخلفاء الذين خُلدت أسماؤهم . فقد حبتهم الطبيعة فضلاً عن الفن سرعة الخاطر وقوة الذاكرة فاستظهروا الكثير مما رق من الاشعار ولذّ من النوادر والفكاهات. فهم إذاً مغنّون ونظّامون وشعراء ورجال علم على السواء. ويقع دون مرتبتهم الآلاتيّون الذين فضلوا العود على غيره ، ثم اولئك الذين استعملوا الرّباب . وتلت هؤلاء طبقة المغنيات

اللواتي لعبن أدوارهن في الخفاء وراء الستار فأصبحن من لوازم الزينة في بيوت الحريم ، وغدا لتربيتهن وتثقيفهن صناعة هامة رائجة . وقد ربّى أحدهم جارية حتى برعت فجاءه رسول صاحب مصر فبذل فيها عشرة آلاف دينار . وساومه رسول امبراطور الروم عليها بثلاثين الفاً . ثم اوصلها رسول صاحب خراسان إلى اربعين الفاً ، فما كان من مولاها إلا أن أعتقها وتزوجها . .

ومن الكتب الكثيرة التي نقلت في العصر العباسي الذهبي طائفة عُنيت بتاريخ الموسيقى النظرية . ومن هذه استمدّ الكتّاب العرب آراءهم العلمية الاولى في الموسيقى فنشأت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مبادىء نظرية الصوت الطبيعية والفسيولوجية. أما من الناحية العملية فان نماذجها عربية بحتة . وفي هذه البرهة اقتبس العرب عن اليونان لفظة موسيقي (وتُكتَب الآن موسيقى) فأطلقت على مناحي هذا العلم النظرية . وخُصّصت لفظة الغناء القديمة — وقد كانت الى ذلك العهد تفيد الغناء والموسيقى — للفن العملي . أما لفظة « قيثار » و « أرغن » وغيرهما من التعابير الفنية فهي من أصل يوناني . والمعلوم ان الارغن جيء به من بلاد البيزنطيين .

ومما يؤسف له ان معظم هذه الرسائل الفنية فُقدت في لغتها الأصلية . والموسيقى العربية بعلاماتها وعُنصريها المكوّنين لها ، النغم والايقاع ، كانت تُنقل من جيل الى جيل شفهياً الى ان تلاشى أمرها . فالاغاني العربية فقيرة بالأنغام غنية

بالايقاع . وليس بين ارباب الموسيقى العربية الحديثة مَن يستطيع شرح الكتب القليلة الباقيـة في موضوع الموسيقى الكلاسيكية شرحاً وافياً وتفهـّم ما قصده السّلف بعلامات إيقاعهم أو تعابيرهم العلمية . وفي مقدمة هذه الكتب « كتاب الموسيقى الكبير » للفارابي التركي الاصل المتوفى بدمشق عام ٩٥٠ .

قرطبة جوهرة العالم

وفيما كان القسم الشرقي من الامبراطوية الاسلامية ينعم بعصره الذهبي كان القسم الغربي منها في الاندلس يتمتع بما لا يقل عن ذلك اشراقاً وقيمةً . وهذا العهد الاندلسي يهمنا لأن الثقافة العربية تقدمت في اسبانيا المسلمه تقدماً لا مثيل له وتخللت الثقافةَ المسيحية في أوائل العصور الوسطى . فكان من نتيجة ذلك النهضةُ الأوروبية الحديثة التي لم يزل أبناء الغرب ينعمون ببركاتها الى اليوم . وقد ازدهرت المدنية الاسلامية في الغرب وبلغت ذروة مجدها ما بين القرن التاسع والحادي عشر . وعلينا قبل ان نسبر غور هذه المدنية ان نعود بقصتنا هذه الى عام سبعمائة وخمسين .

في ذلك العام كما اشرنا آنفاً قضى العباسيون على الدولة الاموية في دمشق . وما كاد يتربع هؤلاء في كرسي الخلافة

حتى أخذوا يطاردون أعضاء البيت الأموي ويُعدمون كل من استطاعت أيديهم الوصول اليه .

وكان من الافراد القلائل الذين نجوا بأرواحهم عبد الرحمن ابن معاوية حفيد هشام عاشر خلفاء دمشق . وكان عمره عشرين عاماً وهو شاب طويل القامة نحيف الجسم اقنى الانف بارزه خفيف العارضين أحمر الشعر يزدان بصفات الحزم والاقدام والطموح . تدرج بطريقه الى اسبانيا متغلباً على الصعاب ، وحارب من فيها الى ان اصبح سيدها المطـاع . فاحتفظ هنالك بسلطة السلالة الاموية التي كان قد قضي عليها في الشرق.

وقصة نجاة عبد الرحمن من الموت تمثل دوراً روائياً رائعاً. كان في أحد الايام مختبئاً في مضرب خيام للبدو على ضفة الفرات وإذا بفوارس العباسيين يحملون الرايات السود ويقتربون من المكان ففرّ للحال ورمى بنفسه الى النهر واجتازه . أما أخوه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فعجز في نصف الفرات عن السباحة وعاد إلى مُطارديه مغروراً بالأمان . فأمسكوه وقتلوه وعبد الرحمن ينظر اليهم . ثم توارى في غيضة حتى انقطع عن النظر .

هام عبد الرحمن على وجهه متنكراً دون مال أو اصدقاء. وسار مترجلاً جنوباً إلى أن وصل فلسطين بعد صعوبات جمة . وهناك لحق به بدر مولاه الوفي القدير فتوجه كلاهما غرباً حتى وصلا شمالي افريقيا . وألح عامل افريقيا في طلبه فهرب منه غريباً معدماً يتنقل مع بدر من قبيلة الى اخرى

وجواسيس الدولة الجديدة تجدّ في طلبه الى ان وصل سبته بعد خمسة أعوام . وكان أخواله وهم من البربر يقيمون في تلك الانحاء . فلجأ اليهم فأحسنوا وفادته .

واتصل عبد الرحمن بالجيوش السورية المقيمة في الجهة الجنوبية من الاندلس عبر المضيق في الجهة المقابلة لسبتة ، فبايعوه بالزعامة . وسار على رأسهم متوغلاً في البلاد فأخذت المدن الواحدة بعد الاخرى تسقط في يديه . وثابر على الجهاد بضع سنوات قبل ان خضعت له اسبانيا المسلمة كلها .

وفي وطيس إحدى المعارك عرَفَ شرلمان ملك الفرنجة بما اتصف به عدوه الجبار عبد الرحمن من شدة ومقدرة . وكان شرلمان هذا بمثابة حليف للخليفة العباسي وعدو طبيعي لعبد الرحمن الامير الجديد المتغلّب في اسبانيا . فبعث شرلمان بجيشه في عام ٧٧٨ قاطعاً تخوم اسبانيا وتوغل في الجهة الشمالية من البلاد حتى وصل سَرَقُسطة. إلا ان الجيش اضطر الى الانسحاب عندما اغلقت هذه المدينة أبوابها في وجهه وهدّد اعداء امبراطوريته الداخليون سلطة شرلمان في بلاده . وقد هاجم مؤخرةَ جيشه المتراجع في مضايق البرانس اهالي بلاد البشكنش Besques وغيرهم من الجبليين فأصيب جيش الفرنجة بخسائر فادحة في الرجال والمتاع . ومن القواد الذين قُتلوا رولان الخالد الذكر في الاشعار المعروفة بأغنية رولان Chanson de Roland وهي أول ملحمة في الادب الفرنسي بل في آداب الاجيال المتوسطة الأوروبية .

ولكي يضرب على أيدي مناوئيه اضطر عبد الرحمن الى انشاء جيش منظم مدرّب قِوامه أكثر من أربعين الفاً من البربر المرتزقة . وقد تمكن من الاحتفاظ بولاء هذا الجيش بما كان يغدقه بسخاء على افراده من الاعطية . وفي سنة ٧٥٧ أبطل الخُطبة باسم الخليفة العباسي ولكنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة . وقد اكتفى هو ومن خلفه الى ايام عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) بلقب أمير أو سلطان ولكنهم حكموا مستقلين ، وكانت الأندلس في عهد عبد الرحمن الأول أول الامصار التي خرجت على سلطة خليفة المسلمين .

وبعد ان وحّد عبد الرحمن مملكته ونشر لواء السلام الموقت عليها وجّه اهتمامه نحو السلم حيث اظهر مقدرة تعادل مقدرته في الحرب . فجمّل مدن مملكته وابتنى للماء العذب قناة تحمله الى العاصمة التي أحاطها بسور . وشيّد داره (فيلا) الرّصافة في ظاهر قُرطبة على نمط القصر الذي كان سلفه هشام قد بناه في الشمال الشرقي من الشام، وجر المـاء الى هذه الجنة الغناء وأدخل فيها النباتات كالدراق والرمان . ورُوي انه جاء بنخلة من الشام فلما رآها منفردة بالرصافة أنشد من نظمه :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بني وعن اهلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل

وأسس عبد الرحمن قبل وفاته سنة ٧٨٨ بعامين جامع

قرطبة العظيم مُضارعاً به جامعي الاسلام الكبيرين في بيت المقدس ومكّة . فأصبح هذا الجامع بعد ان أنجزه خلفاؤه ووسعوه قبلة المسلمين في الغرب . وفي عام ١٢٣٦ تحول هذا الأثر الرائع بأعمدته القائمة المصطفة بتلاحق وتناسق كأنها غابة كثيفة وبهوه الخارجي الفسيح الفخم الى كاتدرائية مسيحية لا تزال باقية الى يومنا هذا باسم « لا مسكيتا » La Mezquits تحريفاً للفظة « المسجد » . وفاخرت قرطبة عواصم العالم بهذا الجامع وبجسر قائم على الوادي الكبير جرى توسيعه من بعد فصار يقـوم على سبع عشرة قنطرة . ولم تنحصر جهود مؤسس الدولة الأموية في الأندلس في مصالح رعيته المادية بل تعدتها الى المعنويات . فعبد الرحمن بذل قصارى جهده محاولاً تشكيل أمة واحدة من مختلف عناصر الدولة من العرب والسوريين والبربر والنوميديين والعرب والاسبانيين والقوط . إلا انها كانت محاولة عسيرة بعيدة التحقيق . والحق ان الفضل يعود اليه من وجوه كثيرة في نشوء الحركة الفكرية التي جعلت اسبانيا من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر أحد المركزين الهامين في الثقافة العالمية .

وكان البلاط الخليفي في ايام عبد الرحمن الثالث ، وهو الشخصية الثانية البارزة في السلالة الأموية في الأندلس، من أفخم ما عرفته أوروبا . فقد جاءت اليه رُسل امبراطور بيزنطية وسفراء ملوك المانيا وايطاليا وفرنسا . وبلغ عدد سكان العاصمة قرطبة نصف المليون . وكان فيها سبعمائة مسجد وثلاثمائة من

الحمامات العمومية . ولم يكن يفوتها في الفخامة من المدن سوى بغداد والقسطنطينية . وكان قصر الخليفة فيها يضم بين جدرانه اربعمائة غرفة ومقصورة يسكنها الوف الرقيق والحرس. وهو قائم في الشمال الغربي من المدينة على إحدى هضاب جبل الشارات (سييرًا مورينا) المشرف على الوادي الكبير. وكان عبد الرحمن قد شرع في بنائه عام ٩٣٦ بمال خلّفته، على ما تقول الاساطير، احدى جواريه التي أوصت أن يُنفق هذا المال لافتداء الأسرى من أيدى النصارى . ولما لم يجد عبد الرحمن منهم أحداً عمل بنصيحة جارية أخرى اسمها الزهراء وابتنى هذا الصرح وسماه باسمها وجاء بالرخام له من نوميديا وقرطجنة . أما الاعمدة والاحواض المزدانة بالتماثيل المذهبة فقد استجلب بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاءه هدية من امبراطورها . واشتغل في بناء الزهراء عشرة آلاف صانع والف وخمسمائة دابة مدة عشرين سنة . وقام الخلفاء الذين جاءوا بعد المنصور فوسّعوا الزهراء وحسنوها حتى أصبحت نواة لضاحية ملكية عامرة لم تزل آثارها ماثلة الى الآن . وقد اجريت الحفريات في قسم منها عام ١٩١٠ وفيما بعده .

وفي الزهراء هذه احاط الخليفة نفسه بحرس من الصقالبة عدده ٣٧٥٠ رجلاً يقومون على رأس جيش نظامي يبلغ مائة الف . وكان هؤلاء الصقالبة في اول الأمر أسرى من قبائل السلاف قبض عليهم الألمان وسواهم فباعوهم من العرب . ثم أطلق هذا الاسم على جميع الاجانب الذين اشتراهم العرب

سواء أكانوا مـن الفرنجة أم من الجليقيين أو اللامبارديين وكانوا عادة يؤخذون أحداثاً ثم يستعربون . وبمساعدة هؤلاء « الانكشارية » أو « المماليك » في اسبانيـا استطـاع الخليفة القضاء على الخونة وقطاع الطرق واضعاف نفوذ الارستقراطية العربية القديمة . لذلك زهت سوق التجارة والزراعة وتضاعفت موارد الدولة فبلغ دخل خزانة الخليفة ٦,٢٤٥,٠٠٠ دينار . فكان ثلث هذا المال يُنفق على الجيش وثلثه على المشاريع العامة وثلثه الاخير يدخر رصيداً احتياطياً . ولم تعرف قرطبة من قبل مثل هذا الرخاء . ولم تحز الاندلس قط مثل هذه الثروة . ويعود معظم الفضل في ذلك كله الى مقدرة رجل فرد عاش ثلاثاً وسبعين سنة وصرّح في أيامه انه لم يصفُ له من الدنيا إلا اربعة عشر يوماً .

كانت السلطة في العالم الاسلامي في عهد كلٍ من دولهِ متقلقلة متزعزعة . ففي اسبانيا احتفظت الدولة الاموية بالسلطة الرسمية منذ فرضها عليها عبد الرحمن الاول — غير انه لما ارتقى العرش عبد الرحمن الثالث عام ٩١٢ كانت الاضطرابات الاهلية والثورات القَبَلية وعدم كفاءة الامراء في السياسة العامة قد فعلت مفعولها في هذه الدولة فتقلصت ولم يبق منها إلا قرطبة وضواحيها .

وخلف عبدُ الرحمن الثالث هذا جدّه عبد الله ، وعمره ثلاثة وعشرون عاماً . وكان كسلفه ذا عزم ومضاء وفطنة . فنشط لاسترداد الضائع من الامصار فأخضع المقاطعة بعد

الاخرى وأدار الشؤون بحنكة ومقدرة . ودام حكمه نصف قرن (٩١٢ – ٩٦١) وهو من أطول مدات الحكم في تاريخ الخلافة. وكان أهم حادثة سياسية في اوائل عهده إصداره امراً بأن تكون الخطبة ابتداء من يوم الجمعة في ١٦ كانون الثاني سنة ٩٢٩ باسمه خليفةً واميراً للمؤمنين لا باسم الخليفة العباسي . وبه ابتدأت الخلافة الأموية في اسبانيا . وفي عهده وعهد خلفه الحَكَم الثاني (٩٦١ – ٩٧٦) وتحت ادارة حاجب المملكة الملقب بالمنصور (٩٧٧ – ١٠٠٢) بلغت السلطة الاسلامية في الغرب اوج مجدها . وفي هذه الحقبة تسنّمت العاصمة الاموية قرطبة مركزاً سامياً جعلها اعظم مدن اوروبا ثقافةً ، فأصبحت مع القسطنطينية وبغداد احد المراكز الثلاثة للثقافة العالمية واعتزت بما احتوته إذ كان فيها مائة وثلاثة عشر الف دار ، وواحد وعشرون رَبَضاً (ضاحية) وسبعون مكتبة ، وحوانيت شتّى تباع فيها الكتب ، ومساجد وقصور . فحازت بذلك شهرة عالمية ، واخذت من اهل الاسفار بمجامع القلوب ، ونعمت بشوارع طولها اميال مضاءة بقناديل المنازل المحاذية ،في حين ان لندن لم يكن فيها قنديل واحد عمومي الى بعد سبعمائة سنة . اما باريس فظلت قروناً بعد ذلك كان الذي يتخطى فيها عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن من الخوض في لجّة من الوحل .

اما وجهة نظر العرب الى الاوروبيين في الشمال – الجرمان النورديين – وغالبهم همج – فيمكن الاستدلال عليها مما قاله صاعد بن احمد القاضي الطُلَيْطلي المتوفى عام ١٠٧٠ :

« فافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد هوائهم وكثف جوهر فصارت لذلك امزجتهم باردة واخلاطهم فجة ، فعظمت ابدانهم وابيضّ الوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة . »

وكان أمراء ليون او نافارا وبرشلونة إذا احتاجوا جرّاحاً أو مهندساً او مغنياً او خياطة ولّوا وجوههم شطر قرطبة فذاع صيت العاصمة الاسلامية حتى اقاصي المانيا حيث وصف راهبة سكسونية قرطبة بأنها « جوهرة العالم » .

وكانت اسبانيا في عهد الخلافة أوفر بلدان اوروبا ثرو وأشدها ازدحاماً بالسكان . وتباهت العاصمة بنحو ثلاثة عش الف حائك وبصناعة راقية للجلود . ومن اسبانيا سرت صنا صبغ الجلود وتزيينها بنقوش بارزة الى مراكش ، ومن هذ القطرين انتقلت هذه الصناعة الى فرنسا وانكلترا . اما الحر والصوف فكانت الانسجة تحاك منها ليس في قُرطبة فقط في مالَقَة وألمَرِية وسواهما من العواصم . وكان اهل الصين احتكروا صناعة الحرير الى ان أدخل المسلمون الى اسبانيا صنا تربية دود القزّ حيث زهت وازدهرت وكانت ألمريّة تُنْ الأواني الزجاجية والنحاسية . أما موطن صناعة الخزف فكان باترْنا من أعمال بَلَنسية . واشتهرت جيان والغرب بمعا الذهب والفضة كما اشتهرت قُرطبة بالحديد والرصاص ومالَ بالياقوت . وكانت طُلَيْطُلَة كدمشق معروفة في كل أقط المعمور بسيوفها . أما فن ترصيع الفولاذ وسواه من المعا

بالذهب والفضة وترويقها بصور على شكل الزهر ، وهو فن منقول من دمشق ، فقد زها في بضعة مراكز اسبانية وأوروبية وترك أثراً في اللغة تدل عليه الفاظ في اللغات الأوروبية الحديثة محرّفة عن لفظة دمشق .

ولقد أدخل العرب الى اسبانيا الاساليبَ الزراعية المتعارّفة في آسيا الغربية . فاحتفروا التّرع وأدخلوا أجناساً جديدة من العنب وجاؤوا بنباتات وأثمار منها الارز والبرقوق (المشمش) والفِرسِكْ (الدراق) والرمان والبرتقال وقصب السكر والقطن والزعفران . وكانت سهول الجنوب الشرقي من اسبانيا قد خصتها الطبيعة بأقليم معتدل وتربة صالحة ، فنشأت فيها مراكز هامة للزراعة في المدن والأرياف . ونمت فيها كل أنواع الحبوب وكذلك الزيتون وأنواع الفاكهة بعهدة الفلاحين الذين قاموا على جني الأرض مقابل حصص يتقاضونها من الملاكين .

ويُعَدّ هذا الرقي الزراعي من مفاخر الاندلس . ومن آثار العرب الخالدة في الأراضي الاسبانية الحدائق التي لا تزال الى يومنا هذا محافظة على الصبغة العربية . ومن أشهر الحدائق (جنة العريف) وهي من آثار الدولة النصرية في أواخر القرن الثالث عشر وكانت ملحقة بدار فخمة في أطراف الحمراء . وكانت هذه الجنّة على ما وصفها ابن الخطيب « المثل المضروب في الظلّ الممدود والماء المسكوب والنسيم البليل » . وقد ترتبت أقسامها شرفات فظهرت كأنها مُدَرّج (أمفيثياتر) بديع التنسيق ترويها مياه الجداول التي تتساقط في عدة شلاّلات ثم

تتوارى بين الزهور والادغال والاشجار . وهي لا تزال الى اليوم عبارة عن مجموعة باذخة من السرو والآس .

وفاضت حاصلات الاندلس الصناعية والزراعية عن حاجة البلاد . فكانت إشبيلية ، وهي من أهم الموانىء النهرية ، تصدر القطن والزيتون والزيت وتستورد الاقمشة والرقيق من مصر والقيان من أوروبا وآسيا . وشملت صادرات مالقة وجيان الزعفرانَ والتين والرخام والسكر . وسارت حاصلات اسبانيا بطريق الاسكندرية والقسطنطينية حتى بلغت أقصى أسواق الهند وآسيا الوسطى . واتسع نطاق التجارة مع دمشق وبغداد ومكة بوجه خاص . وفي الالفاظ التي تُعرب بها لغات أوروبا الحديثة عن الصناعة البحرية ما يشير الى سيادة العرب الماضية في البحار كـ « أميرال » admiral (أمير البحر) و « أرسنال » arsenal (دار الصناعة) . و « كابل » cable (حَبْل) .

وتولّت الحكومة تنظيم البريد وسكّت النقود متّبعة فيها النماذج الشرقية . فكان الدينار أساس التعامل في الذهب والدرهم في الفضة . ودرجت المسكوكات العربية في ممالك النصارى شمالاً ، وظلت هذه البلدان طيلة اربعمائة سنة وليس لها من المسكوكات الا العربية والفرنسية .

على ان مجد هذه الحقبة لم يكن في حلبة السياسة بل في الثقافة . فكان الحكَم نفسه خلف عبد الرحمن الثالث عالماً يعمل على تشجيع العلم ونشره . فأجرى على العلماء المرتبات وابتنى في العاصمة سبعاً وعشرين مدرسة مجانية . وفي عهده ازدهرت

جامعة قُرطُبة التي أسسها سلفه في المسجد الكبير والتي أصبحت من معاهد العلم البارزة في العالم ، فسبقت تأسيسها الأزهر في القاهرة والنظامية في بغداد . وأخذ يؤمها الطلاب من نصارى ومسلمين ليس من اسبانيا فقط بل من بلدان أوروبية أخرى ومن افريقيا وآسيا . ووسع الحكَم نطاق المسجد الذي قامت الجامعة بين جدرانه وأجرى اليه الماء في أنابيب الرصاص وزينه بالفسيفساء التي جاء بها مَهَرة الصناع البيزنطيين . واستدعى الى هذه الجامعة أساتذة من الشرق ووقف أموالاً خاصة ينفق ريعها على مرتباتهم .

وضمت العاصمة ـ عدا الجامعة ـ مكتبة من الدرجة الأولى في سعتها ، وكان الحكَم من غواة الكتب فتفقد عمالهُ مكاتب الاسكندرية ودمشق وبغداد قصدَ ابتياع المخطوطات أو نَسْخها وجلبوا منها الى الأندلس الشيء الكثير فبلغ عدد المجموع من الكتب اربعمائة الف ، حتى كان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعين مجلداً في كل مجلد عشرون ورقة فيها أسماء الدواوين الشعرية . واستوعب الحكَم ، ولعله أعظم عالم بين خلفاء الاسلام قاطبة ، عدة من هذه الكتب علّق عليها في الحواشي ملاحظات زادتْها قيمةً لدى هواة الكتب في العهود المتأخرة . وبذل في « كتاب الاغاني » لمصنّفه أبي الفرج الاصفهاني الأموي الأصل الفَ دينار فأرسل اليه بنسخة منه قبل أن يخرجه في العراق . وبلغت درجة الثقافة في الاندلس مستوى عالياً في هذا الوقت حدا العالِم الهولاندي الكبير دوزي Dozy

الى القول ان « كل فرد تقريباً (من أهل الأندلس) كان يحسن القراءة والكتابة » . كل هذا بينا كانت أوروبا المسيحية لا تعرف من العلوم الا مبادىء بسيطة أكثرها في حوزة عدد قليل من رجال الدين .

فضل العرب على المدنية الغربية

يُستدل على اهتمام العرب بالعلم والثقافة والأدب من العبارة التي كانت تظهر منقوشة على أبواب معاهد العلم في الاندلس «العالَمُ يقوم على أربعة أركان: معرفة الحكيم وعدالة العظيم وصلاة التقي وبسالة الشجاع.» ومما يلفت النظر ان المعرفة جاءت في هذه العبارة، التي تصف المُثُل العليا الاسلامية في أوروبا، في المقدّمة.

ولقد كان لقوّة العرب الحربية أثرها الفعّال في العالم العربي ولكنه أثر لم يدم. والدين الاسلامي لم يستهو خيال الأوروبيين كثيراً. على ان العدل العربي ترك وراءه سوابقَ يستشهد بها الأوروبيون. أما العالم الاسلامي فقد دخل الفكر الاوروبي من نواحٍ عدّة. ذلك بأن الاندلس سطرت فصلاً رائعاً في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الأوروبية. فبين

منتصف القرن الثامن ومطلع القرن الثالث عشر حسبما تقدم كانت الشعوب العربية اللسان في مقدمة من حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبة . وبواسطة جهود هذه الشعوب أيضاً تسنى لعلوم الاقدمين وفلسفتهم ان تعود الى أوروبا مشروحة ومضافاً اليها . فسهّل هذا السبيل لنشوء عصر النهضة في أوروبا الغربية . ولعل أعظم علماء الأندلس وأكثرهم ابتكاراً علي ابن حزم (٩٩٤ — ١٠٦٤) وهو احد الاثنين أو الثلاثة الذين يعتبرون أخصب مؤلفي الاسلام وأغزرهم مادة . وقد نسب اليه ابن خلكان والقِفْطي اربعمائة مجلد في التاريخ والدينيات والحديث والمنطق والشعر وغيرها من العلوم . أما أنفس كتبه الباقية الى الآن وأفيدها فهو « الفصل في الملل والأهواء والنِحَل » الذي يؤهّل مؤلفه لاحتلال مركز الأولية بين العلماء الذين عنوا بدرس الأديان على سبيل النقد والمعارضة . وفي هذا الكتاب لفت ابن حَزْم الانظار الى بعض مشاكل في قصص التوراة لم يتنبّه لها فكر احد من العلماء حتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمي في القرن السادس عشر .

أما في النثر فالحكايات والروايات والقصص الأدبية التي أخذت تزدهر في أوروبا الغربية خلال القرن الثالث عشر يظهر فيها بلا ريب تأثير الكتب العربية السابقة سواء أكانت هندية أم فارسية الاصل . أما حكايات « كليلة ودمنة » الممتعة فقد نُقلت الى الاسبانية برعاية ألفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٢٨٢) . ولم تلبث ان نُقلت الى اللاتينية

بقلم يهودي متنصّر . ثم أصبحت ترجمتها الفارسية عن طريق الافرنسية احد مصادر لافونتين حسبما أقرّ لافونتين نفسه . وتمتّ القصة الاسبانية الساخرة (بيكارسك picaresque) بنسب واضح الى المقامة العربية وما اتصفت به من السجع وتضمنته من ضروب التزويق اللفظي وما رمت اليه من مغزى أدبي يستخرج من سرد مجازفات بطل القصة المغوار . وكان اول من وضع المقامة في العربية بديع الزماني الهمذاني (٩٦٩ — ١٠٠٨) وتبعه الحريري (١٠٥٤ — ١١٢٢) . وظلت هذه المقامات نحو سبعة قرون اروع مثال في الادب العربي بعد القرآن . الا ان اعظم فضل للغة العربية على أدب العصور الوسطى الأوروبية كان في اسلوبها الذي ساعد على تحرير المخيّلة الغربية من الانظمة الضيقة الجامدة التي قضى بها التقليد الموروث . وينمّ الأدب الاسباني بما فيه من خيال وافر عن نماذج عربية تدل عليها النكتة في كتاب « دون كيخوته » Don Quixote الذي قضى مؤلفه سرفنتيس Cervantes في الجزائر ردحاً من الزمن سجيناً وادعى على سبيل الدُعابة ان كتابه يرجع الى أصل عربي .

وحيثما حلّت اللغة العربية وفي أي عصر انتشرت كان ولع ابنائها في الانشاء الشعري فيها شديداً وتناقل متكلموها على الالسن أبياتاً منها لا تحصى أصبح بعضها موضوع اعجاب الرفيع منهم والوضيع . وهذا الطرب الشعري الذي يستملك شعور الناطقين بالضاد بفضل عذوبة الالفاظ وحسن السبك وبديع المعاني تجلّى في الاندلس . فقد كان الامير الأموي

الأول عبد الرحمن شاعراً ومثله عدد من خلفائه . وكان لأكثر هؤلاء الامراء شعراء ممتازون في بلاطاتهم اصطحبوهم في أسفارهم وحملاتهم الحربية . وفاخرت إشبيلية بأكبر عدد من الشعراء الظرفاء الملهمين مع ان آلهة الشعر كانت استقرت لزمن طويل قبل هذا في قُرطُبة وانتقلت الى غَرْناطة لما كانت هذه حصناً للاسلام .

ومن أفذاذ الشعراء ابو الوليد أحمد بن زيدون (١٠٠٣ — ١٠٧١) الذي ينتمي الى بني مخزوم ، وهم فرع من قريش . ويعدّه بعضهم أعظم شعراء الاندلس . وكان ابن زيدون في أول أمره يقوم على خدامة ابن جهْوَر رأس حكومة قُرْطُبَة الى ان غضب عليه . والسبب الراجح في ذلك عشقُ ابن زيدون للشاعرة ولاّدة بنت الخليفة المستكفي . فقضى الشاعر عدة سنين في السجن والمنفى الى ان انتدبه المعتضد العبّادي لرئاسة الوزارة وإمارة الجيش فسمّي بذي الوزارتين — وزارة السيف ووزارة القلم . وكانت ولاّدة هذه المتوفاة عام ١٠٨٧ أديبة شاعرة بالغةً الغايةَ في الظرف وحسن المنظر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار العصر . ولقد أظهرت نساء الاندلس العربيات ميلاً خاصاً للشعر والادب. فخصّ المَقّري جانباً كاملاً من كتابه « نفح الطيب » بالنساء الشهيرات في الاندلس « كي يُعْلَم ان البراعة في أهل الاندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم » .

وتحرّر الشعر العربي الاندلسي الى حدّ معلوم من قيود

التقليد فنشأت له أوزان جديدة واكتسب ذوقاً في تحسس الجمال في الطبيعة بصورة تكاد تكون حديثة . وتجلّت في أغانيه الشعبية وأناشيده الغرامية عواطف الجمال التي سبقت عصر الفروسية في القرون الوسطى . وفي الاندلس ، كما في كل مكان وزمان ، وبقيت أواصر الارتباط وثيقة بين الموسيقى والشعر .

واستثار الشعر العربي عامة والغنائي منه خاصة إعجاب النصارى والاندلسيين ، فأصبح من العوامل الفعّالة في طبعهم بطابع المدنية العربية . ومن الزجَل والموشح نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي استخدمه المسيحيون كثيراً في أناشيدهم الدينية ومن بينها أغاني عيد الميلاد . ولم يزل الى الآن في لبنان شعراء عاميون يرتجلون ما يسمونه زجلاً وموشحاً .

ومن مآثر الشعر العـــربي ما ظهر في الشعر الاسباني العُذْري ، باكراً في القرن الثامن ، من اسلوب خاص تتجلّى فيه مؤثرات الشعر العربي . وفي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال على أتم النضج حتى أواخر القرن الحادي عشر فاذا بقصائدهم فياضة بالحب الخافق تعبر عن لغة مترعة بالمجاز المعنوي والخيال البعيد . وقلّدت جماعة التروبادور التي زهت في القرن الثاني عشر معاصريها الجنوبيين من منشدي الزجل . واتّباعاً للانموذج العربي أصبح التغزل بالمرأة شعراً ، أمراً مألوفاً في أوروبا الجنوبية والغربية . أما « أغنية رولان » وهي أنبل تراث في الأدب الأوروبي القديم ، فقد ظهرت قبل سنة

١٠٨٠ مؤذنةً بطلوع شمس مدنية جديدة — مدنية أوروبا الغربية — والأغنية مدينة بظهورها لمعركة بين مسيحيي فرنسا ومسلمي اسبانيا .

ولقد قام التعليم الابتدائي في البلدان الاسلامية وانتشر ، كما أسلفنا ، على أساس الكتابة والقراءة من القرآن وعلى تعلّم الصرف والنحو والشعر . ومقام المرأة في الحياة العلمية يبرهن على ان الاندلس قلما أعارت أذناً مصغية للأقوال والاحاديث التي نهت عن تعليم المرأة . أما التعليم العالي فانه قام على تفسير القرآن والدينيات الفلسفية وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية . وازدانت بعض المدن الرئيسية بمدارس تصحّ تسميتها بالجامعات وفي طليعتها قرطبة وإشبيلية ومالَقَة وغَرناطة . ومن دوائر التدريس التي تضمنتها جامعة قرطبة دائرة للفلك وغيرها للرياضيات والطب والعلوم الدينية والشرعية . ولعل عدد الطلاب الذين أمّوها بلغ الآلاف . وكانت شهاداتهم من أهم المؤهلات لشغل أوفر مناصب الدولة دخلاً . وشمل منهاج الدراسة في جامعة غَرناطة علوم الدين والفقه والطب والكيمياء والفلسفة والفلك . ولقد أمّ هذه الجامعة الطلاب من قشتالة وسواها من الاقطار الاجنبية .

ونشأت الى جانب الجامعات خزائن للكتب منها خزانة قُرطُبة الملكية ، أوسع المكاتب وأفضلها . وكان لبعض مشاهير الأمّة ونسائها البارزات مجموعات كتب خاصة . واذ لم يعرف المسلمون هذه المحافل السياسية ودور التمثيل التي امتازت بها

بلاد اليونان وروما ، فقد اقتضت الحياة الاسلامية ان تكون الكتب الواسطة الوحيدة لتحصيل المعرفة .

ولولا صناعة الورق البلدية في الأندلس ، وهي من أهم ما أسداه الاسلام الى اوروبا ، لما راجت سوق الكتب الى هذا الحد كما لاحظنا في درسنا لبغداد . ومن مراكش التي أدخلت اليها هذه الصناعةمن الشرق انتقلت الى اسبانيا في منتصف القرن الثاني عشر . ومن الالفاظ التي تُذكرنا بهذه الحقيقة « رزمة » العربية التي دخلت محرفة الى لغات أوروبية كثيرة . ثم تطرق فنّ صنع الورق الى ايطاليا نحو سنة ١٢٧٠ ، بفضل تأثير المسلمين في صقلية على الراجح. أما في فرنسا فالفضل الأول في ظهور مصانع الورق يعود الى تأثير اسبانيا لا الى تأثير الصليبيين العائدين كما ادّعى بعضهم . ومن هذه البلدان انتشرت هذه الصناعة الى سائر أنحاء أوروبا . وكان لعبد الرحمن كاتب اعتاد انشاء الرسائل الرسمية في منزله ثم انفاذها الى ديوان خاص يصير فيه « طبعها (على الحجر) » في نسخ عدة توزع على عمال الدولة .

وعقب تقلّص السلطة الاسلامية عن اسبانيا انقرضت معظم الكتب العربية فيها ولم يبقَ منها سوى الالفين من المجلدات ، فقام الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ — ١٥٩٨) وخلفاؤه في جمعها من مختلف مخازن الكتب العربية . فغدت هذه المجموعة نواة مكتبة الاسكُوْريال Escurial التي لا تزال قائمة بظاهر مدريد . وحدث في القسم الأول من القرن السابع عشر ان الشريف زيدان

سلطان مراكش ارسل خزانة كتبه على ظهر سفينة ، وكان هارباً من عاصمته ، فأبى الربان ان يوصل هذه الكتب الى المكان المقصود لأنه لم يستلم اجرته بكاملهـا سلفاً . وبينا السفينة في طريقها الى مرسيليا اذا بها تقع في أيدي قرصان البحر الاسبانيين فيأمر فيليب الثالث بايداع هذه الغنيمة من الكتب المتراوح عددها بين الثلاثة والاربعة آلاف في مكتبة الاسكُورْيال ، وبذلك أصبحت هذه المكتبة من أغنى المكاتب الأوروبية بالمخطوطات العربية .

وليس بين كتّاب العصر الاندلسي من كان أغزر مادة في التاريخ من الصديقين ابن الخطيب وابن خلدون .

كان لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ — ١٣٧٤) متحدراً من أسرة عربية هجرت الشام فنزلت اسبانيا . وفي زمن سابع سلاطين بني نصر ، يوسف ابي الحجاج ، وابنه محمد ، أطلق عليه لقب « ذي الوزارتين » . وفي سنة ١٣٧١ فرّ من غرناطة بسبب الدسائس في البلاط فلم تطل نجاته لأنه مات خنقاً بعد ثلاث سنين في مدينة فاس بيد بعض أعدائه . وبموته خسرت غرناطة ، ان لم تقل الاندلس كلها ، آخر من قام فيها من جهابذة التأليف والشعر والسياسة . ولم يبق من الكتب الستين التي صنفها ابن الخطيب — وأكثرها في الشعر والتاريخ والجغرافية والطب والفلسفة — الا نحو ثلثها . وأهم ما يعنينا من هذه التـآليف كتابهُ « الاحاطة في تاريخ غرناطة » .

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) فقد وُلد

في تونس من اسرة اسبانية عربية ربطت نفسها بقبيلة كِنْدة . وكان مؤسس هذه الاسرة قد هجر اليمن في القرن التاسع فنزل اسبانيا . وزهت ذرّيته في إشبيلية حتى القرن الثالث عشر . وتقلب عبد الرحمن في مناصب عدة رفيعة في فاس قبل ان غضب عليه وليّ الأمر فيها . وفي عام ١٣٦١ اتصل بلسان غرناطة محمد السادس فاحتلّ وظائف مختلفة ولعب دوراً سياسياً هاماً الى ان ثارت عليه عواصف الحساد فاعتزل الوظائف وعكف على التأليف . الا أن شهرة ابن خلدون الواسعة ترتكز على مقدمته اذ فيها وردت لأول مرة نظرية النشوء التاريخي المبنيّة على الاخذ بحقائق الاقاليم والجغرافية فضلاً عن الحقائق الاخلاقية والروحية . ويمكن اعتبار ابن خلدون من حيث بحثُه عن قوانين التقدم والانحلال القومي ومحاولته ان يضع قواعد لها مكتشفاً لطريقة جديدة — هكذا قال هو عن نفسه — في علم التاريخ والعمران . وأقل ما يمكن ان يقال عنه انه مؤسس علم الاجتماعيات . والحق انه ليس من كاتب أوروبي أو غربي نظر قبلهُ الى التاريخ نظرةً تعادل نظرته شمولاً واطّلاعاً فلسفياً . ويُعدّ ابن خلدون باجماع الآراء بين النقدة أعظم فيلسوف تاريخي اسلامي ، ومن أعظم فلاسفة التاريخ في العالم .

لم يكن لدراسة العرب الجغرافية الا أثر محدود في الغرب كان من نتائجه ابقاء الفكرة القديمة القائلة بكروية الأرض حيّةً . وقد أشرنا سابقاً الى الفكرة الهندية القائلة بأن نصف الكرة

الأرضية المعروف انما كان له مركز أو قبّة على أبعاد متساوية من الخوافق الاربعة . هذه هي نظرية آرين التي وصلت الى مصنّف لاتيني صدر سنة ١٤١٠ فاتخذ كولمبس عنه مذهبه الذي قاده الى الاعتقاد بأن شكل الأرض يشبه الاجاصة وان في نصفها الغربي الذي يقابل آرين مركزاً آخر مرتفعاً ومماثلاً .

والحق ان العرب أتحفوا الغرب بعدة آراء جديدة ومعلومات واسعة النطاق في الجغرافية الفلكية والرياضيات . ففي اسبانيا عظم الاقبال على العلوم الفلكية بعد منتصف القرن العاشر . وخصّ امراء قُرطُبة وطُليْطُلة وإشبيلية هذه العلوم برعاية وعناية . وكان معظم الفلكيين الاندلسيين يؤمنون بأن علل أكثر الحوادث التي تحدث للانسان ما بين ولادته وموته انما ترجع الى تأثير النجوم . واقتضت دراسة هذا التأثير الفلكي — علم التنجيم — تحديدَ الاماكن في الأرض ووضع مقاييس الطول والعرض لها . ثم تطرّقت هذه المؤثرات الشرقية بواسطة اسبانيا الى الغرب اللاتيني فأهابت به الى دراسة الفلك والتنجيم . ونُقلت معظم كتب الفلك الاسلامية في اسبانيا الى اللاتينية . وما جداول الفلك الألفونسية التي وضعها الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر الا أمثلة لمؤثرات علم الفلك العربي . ومن دراسات العرب للنجوم جاءتنا أسس علم المثلثات الكروية والاستوائية . فالعرب هم الذين وضعوا علم المثلثات كما وضعوا علمي الجبر والهندسة التحليلية . ومن يطالع أسماء النجوم التي تتحلى بها القبة الزرقاء يدرك حالاً ان الفلكيين العرب تركوا

آثاراً خالدة تنطق بمقدرتهم واجتهادهم . وليست جمهرة أسماء النجوم في اللغات الأوروبية عربية الأصل فقط أمثال «العقرب» Acrab و « الجدي » Algedi و « الطائر » Altair و « الفرقد » Pherkad بل ان كثيراً من مصطلحاتها الفلكية يرجع الى الفاظ عربية أمثال « السّموت » Azimuth و « النظير » Nadir و « السّمت » Zenith . وما هذا غير قليل من كثير مما اتحف به الاسلامُ أوروبا المسيحية .

ومن أمتع المفردات الرياضية وأفيدها لفظة «صفر» التي استعارتها اللغات الأوروبية من العربية. نعم ان العرب لم يخترعوا الصفر ولكنهم هم الذين أدخلوهُ مع الارقام الى أوروبا فعلّموا الغربيين طريقة استخدامها . وبذلك سهّلوا استعمال الحساب في أمور الحياة اليومية . وهذه الأرقام سمّاها العرب هندية لأنهم اقتبسوها عن الهنود ، وسماها الأوروبيون عربيةً لأنهم اتخذوها عن العرب .

على ان انتشار الارقام الهندية في أوروبا غير المسلمة كان بطيئاً جداً . فقد بقي علماء الحساب المسيحيون طيلة القرن الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر يستعملون الارقام الرومانية القديمة القائمة على بعض حروف الهجاء . واستخدمت هذه الأرقام لمقاصد علمية لأول مرة في ايطاليا . ففي سنة ١٢٠٢ رحل ليوناردو فيبوناتشي من أهالي بيزا – بعد أن درس على استاذ مسلم – في طلب العلم الى شمالي افريقيا . فنشر كتاباً كان المَعْلَمَ الرئيسي في تعريف الارقام الهندية الى

أوروبا. زد على ذلك انه بهذا الكتاب تعيّنت بداية علم الرياضيات في أوروبا . ولو بقيت الارقام القديمة المبنية على الحروف سائدةً لتعذر ارتقاء علم الحساب في بعض فروعه . ولا مبالغة في القول إن علامة الصفر والارقام الهندية هي أساس علم الحساب على ما نعرفهُ اليوم .

وفي موضوع التاريخ الطبيعي ، ولا سيا علم النبات ، كما في الفلك والرياضيات زادت بحوث المسلمين الغربيين في ثروة العالم . فالعلماء العرب أبدوا ملاحظات صائبة في موضوع الفرق الجنسي والتناسلي بين النخيل والقُنّب ، ورتّبوا النباتات على مبدأ ما ينمو منها من الفسائل وما ينمو من البذور وما ينمو من تلقاء نفسه . وحوالى نهاية القرن الثاني عشر وضع ابن العوّام رسالة في الزراعة هي أهم ما صنّفه المسلمون في هذا الموضوع بل أهم مؤلفات العصور الوسطى فيه . وهذا الكتاب الذي اقتبست بعض مواده عن اليونان القدماء وعن مصادر عربية وجاء باقيها نتيجةً لاختبارات المزارعين في اسبانيا انما يعالج ٥٨٥ نبتةً ويشرح طريقة تربية أكثر من خمسين شجرة مثمرة ويورد ملاحظات جديدة في موضوع التطعيم وفي خصائص التربة والسماد ويبحث في اعراض عدة من امراض الاشجار والكرمة مع اوصاف طرق معالجتها .

وكان اشهر علماء النبات والصيادلة في الاندلس بل في العالم الاسلامي عبد الله بن أحمد البيطار الذي توفي في دمشق سنة ١٢٤٨ تاركاً وراءه أعظم رسائل العصور الوسطى في العلاجات

البسيطة بعنوان « الجامع في الادوية المُفرَدَة » .

وكان معظم الذين انصرفوا الى صناعة الطب من عرب الاندلس يتخذونها مهنة كمالية الى جانب عمل يتعاطونه . فابن رشد وابن ميمون وابن باجّة وابن طُفَيْل كانوا في الدرجة الأولى فلاسفة . اما ابن الخطيب كما قدمنا فكان منشئاً ومؤرخاً تقلد منصب الوزارة شأن غيره من الأطباء . وبمناسبة انتشار مرض الطاعون الهائل في اوروبا في منتصف القرن الرابع عشر ووقوف النصارى حياله مكتوفي الأيدي حاسبينه قضاءً وقدراً وضع هذا الطبيب الغرْناطي المسلم رسالةً دافع فيها عن نظرية العدوى حسبما يُستدَلّ من الفقرة التالية :

« فان قيل كيف نسلم بدعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة . وهذه مواد البرهان . وغير خفي عمن نظر في هذا الامر وأدركه هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالباً وسلامة من لا يباشره . كذلك ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب او آنية حتى ان القرط اتلف من علق باذنه وأباد البيت بأسره . ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتماله منها في افذاذ المباشرين ثم في جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق . وفي مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى ان يحل بها في البحر من عدوة أخرى قد شاع عنها خبر الوبا ... »)

وكانت الثقافة الشرقية ، في القرون الاولى من الحكم الاسلامي للاندلس ، تنتشر في اسبانيا على مستوى عال . فأخذ علماء الاندلس يرحلون في طلب الاستزادة من العلم الى مصر وسورية والعراق وفارس والى ما وراء النهر (سيحون) والصين . حتى اذا كان القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة

انعكست الآية ، وخصوصاً في القرن الثاني عشر ، حين بلغت المعارف الاندلسية أشدها وبلغت من الغزارة حداً طما معه سيلها على اوروبا . وفي نقل الطب العربي الى اوروبا لعبت افريقيا الشمالية الغربية واسبانيا لا سيما طُلَيْطُلة ، حيث عاش جيرارد الكرْموني وميخائيل سكوت Scot دوراً هاماً . وهكذا تسنّى اخيراً للتقاليـــد الطبية الثلاثة الاسلامية واليهودية والنصرانية ان تلتقي في مركز واحد فتندمج . وبواسطة الترجمات انتقلت الى اللغات الاوروبية الفاظ عربية فنية كثيرة محرّفة عن مفردات هذه اللغات .

بيد أن أسمى درجات الرقي التي بلغها الفكر العربي في الاندلس إنما تمّت في حقل الفلسفة . فههنا أحكَمَ العرب آخر الحلقات وأمتنها في تلك السلسلة التي نقلت فلسفة اليونان الى الغرب اللاتيني بعد ان طبعها العرب في الشرق والغرب بطابعهم الخاص وألبسوها ثوباً قشيباً . وكان أهم ما اتحفوا به الفلسفة هو توفيقهم بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . فقد اعتبر مفكّرو الاسلام ان تعاليم ارسطو وتعاليم افلاطون وتعاليم القرآن كلها تعاليم صادقة . وآمنوا بأن الصدق واحد لا يتجزأ واذاً فلا بدّ من التوفيق بين هذه التعاليم الثلاثة وادماجها في نظام موحّد . لهذا وجه علماء الاسلام جهودهم الى معالجة هذه المعضلة . ولقد واجه فلاسفة النصارى المدرسيّون (السكولاستيك) المعضلة نفسها ، إلا ان مهمتهم كانت أصعب لما حواه اللاهوت عندهم من متراكم الطقوس والاسرار

الكنسية . والحق ان الفلسفة كما وضعها اليونان وديانة التوحيد التي انشأها انبياء العبرانيين كانتا ، حسبما اشرنا سابقاً ، أثمن ما للغرب القديم والشرق القديم من تراث وانبله .

وإنما تتعين نهاية العصور المظلمة وفجر الحقبة المدرسية بتدفّق الأفكار الجديدة عن طريق الأندلس الى اوروبا الغربية ، لا سيما في الفلسفة والطب . فالواقع ان هذا الاحتكاك بالفكر العربي والفلسفة اليونانية عن طريق العربية أحيا الفكر وأنعش الروح العلمية والفلسفية في اوروبا وقادها سراعاً الى حياة فكرية خاصة مستقلة أدت الى النهضة الفكرية الحديثة التي لا نزال نجني الى اليوم ، ثمراتها .

ولا يمكننا ان نذكر في هذه العجالة الا بعضاً من اعلام الفلسفة في الاندلس . منهم ابن طُفَيل الذي توفي سنة ١١٨٥ وأهم نفثاته رواية فلسفية مبتكرة عنوانها « حَيّ بن يَقْظان » . وتقوم الفكرة الاساسية في هذه الرواية على ان المقدرة الانسانية تكفي ، دون مساعدة خارجية ، للتوصل الى معرفة العالَم العلوي وان في وسعها الوقوف تدريجياً على ضرورة اتكالها على الكائن الأعلى . وقد نُقِلت هذه الطُرفة التي تُعدّ من أمتع ما في أدب العصور الوسطى وأشدّه ابتكاراً الى اللاتينية سنة ١٦٧١ . ثم نُقِلت الى معظم لغات اوروبا بما فيها الهولاندية (١٦٧٢) والروسية (١٩٢٠) والاسبانية (١٩٣٤) . وقد حاول بعضهم ان يجد فيها مصدراً لقصة روبنصن كُروزو Robinson Crusoe الانكليزية المعروفة .

أما أعظم فلاسفة الاسلام باعتبار تأثيره في الغرب فالطبيب الفلكي الاسباني العربي ابن رشد شارح ارسطو . وُلد ابن رشد في قرطبة سنة ١١٢٦ وكان أهم ما اتحف به علمَ الطب مؤلفه « الكليات في الطب » أثبت فيه ان الجدري لا يصيب المرء مرتين، وأوضح بدقة وظيفة شبكة العين . اما في العالمين اليهودي والنصراني فان شهرته قامت في الدرجة الاولى على مكانتــه كشارح لارسطو . ويجب ان نذكر ان عمل الشارح في العصور الوسطى انما كان ينطوي على وضع مؤلف علمي او فلسفي معتمداً فيه على كتاب قديم كأساس وإطار . وإذاً فشروح ابن رشد سلسلة رسائل تحمل عناوين كتب ارسطو مع تأويل محتوياتها. والحقيقة ان ابن رشد ينتمي الى اوروبا النصرانية أكثر منه الى آسيا وافريقيا الاسلامية . فقد عرفه الغرب من بعد بلقب « الشارح » كما عرف ارسطو بلقب « المعلّم » . وليس من كتابات حرّكت عقول فلاسفة النصارى في العصور الوسطى بقدر ما حرّكتها كتابات ارسطو على ما شرحها ابن رشد . وظلّت فلسفة ابن رشد من اواخر القرن الثاني عشر الى آخر القرن السادس عشر سائدةً عالم الفكر على الرغم من ردّ الفعل الذي احدثته بين المسلمين في اسبانيا اولاً والتلموديين ثانياً والاكليروس ثالثاً . وكان ابن رشد من القائلين بوجوب تحكيم العقل في جميع الامور الا في عقائد الايمان المنزلة . ولكنه لم يكن كما اعتقد الكثيرون ابا الفكر الحرّ والالحاد وعدو الايمان.

وكان اتباع ارسطو من المسلمين الباكرين قد حسبوا بعض

الكتب الملفقة ومنها بعض مؤلفات المدرسة الافلاطونية الجديدة من وضع ارسطو نفسه . اما الآن فقد جاءت فلسفة ابن رشد داعية الى التعويل على فلسفة ارسطو العلمية الصحيحة غير المزيفة وبعد ان غربل رجال السلطة من الاكليروس كتابات ابن رشد وحذفوا منها المواد غير المرغوب فيها اصبحت كتباً للتدريس في جامعة باريس وسواها من معاهد العلم العالي . والحق ان الحركة الفكرية التي اوجدها ابن رشد بما فيها من محاسن وما أضيف اليها من اوهام بقيت عاملاً حياً في الفكر الأوروبي حتى مولد العلم التجريبي الحديث .

وكان المقام الأول بين فلاسفة هذا العصر بعد ابن رشد لمعاصره اليهودي ومواطنه الاسباني ابن ميمون ، أشهر أطباء اليهود وفلاسفتهم طوال هذه الحقبة العربية . ولد ابن ميمون في قرطبة سنة ١١٣٥ ولكن اسرته هجرت الاندلس بسبب الاضطهاد الذي أثاره الموحّدون فنزلت القاهرة حوالي سنة ١١٦٥ . أما زعم القفطي وابن أبي اصيبعة ان ابن ميمون كان في الاندلس يدّعي الاسلام علانية ويمارس اليهودية سراً فقد تعرّض مؤخراً لنقد صارم . وفي القاهرة اصبح ابن ميمون طبيب البلاط في عهد صلاح الدين وعهد ابنه الملك العزيز . ومن سنة ١١٧٧ فما بعد شغل ابن ميمون رئاسة الملة اليهودية في القاهرة وفيها مات عام ١٢٠٤ . وعملاً بوصيته حمل أتباعه جثمانه على الاكف على الطريق التي سلكها النبي موسى قبلاً فدفن في طبرية من أعمال فلسطين حيث لا يزال ضريحه الوضيع

مقصداً لجماهير الحجاج . والى اليوم ترى ذوي الحاجة من مرضى يهود مصر يطلبون الشفاء بالاقامة ليلاً في دهليز الكنيس المسمى باسمه في القاهرة .

كان ابن ميمون فلكياً ولاهوتياً وطبيباً ممتازاً . وكان فوق ذلك كله فيلسوفاً . ففي علم الطب حسّن طريقة الختان ونسب علة البواسير الى الامساك فوصف لها علاجاً الطعامَ الخفيف المؤلف اكثره من الخضر . كذلك اعتنق أفكاراً راقيـة بشأن حفظ الصحة . واشهر كتبه الطبية « الفصول في الطب » . وفي مؤلفه الرئيسي في الفلسفة « دلالة الحائرين » حاول ان يوفّق بين اللاهوت اليهودي وفلسفة ارسطو المعروفة عند العرب . وبكلمة اخرى سعى الى التوفيق بين الايمان والعقل . وأما الرؤى النبوية في الاسفار المنزلة فقد عللها كاختبارات ذاتية نفسانية . وبذلك وقف موقف المدافع عن الفكرة العلمية الحرة ضد فكرة التوراة المحافظة فأثار غضب اللاهوتيين المحافظين الذين سموا كتابه « ضلالة» . أما آراؤه الفلسفية المعبّر عنها في هذا المصنّف وسواهُ فتَطَّبِّع على غرار مصنّفات ابن رشد مع انه لم يعتمد على تلك في وضعها . وابن ميمون كابن رشد لم يعرف اليونانية بل اعتمد على الترجمات العربية . أما نظرية الخليقة التي بسطها وان لم يؤمن بها فانها نظرية الجوهر الفرد التي تختلف عن النظريتين الاخريين اللتين نادى بهما مفكرو العرب أي نظريـة الأسفار المقدسة التي قالت بأن الله خلق كل شيء والنظريـة الفلسفية التي قال بها اتباع الافلاطونية الجديدة واتباع ارسطو .

أما كتبه فقد وُضعت كلها بالعربية باستثناء واحد منها، ولكن بحروف عبرانية . ثم ما لبثت ان نُقلت الى العربية وبعد ذلك بزمن الى اللاتينية . وظل تأثيرها على تراوح الزمن وتباعد الأقطار أشد ما يكون في اليهود والنصارى . وبقيت كتبه حتى القرن الثامن عشر الواسطة الوحيدة التي اوصلت الفكر اليهودي الى الاوساط غير اليهودية . والنقدة المحدثون يرون في تآليف سبينوزا Spinoza وكانت Kant وفي تعاليم بعض الدومينيكيين الكاثوليك كألبرتوس ماغنوس Albertos Magnus ما يثبت اثر ابن ميمون .

أما في التصوف فكان إمام هذا العصر قاطبة محيي الدين ابن عربي ، أعظم النظريين من ارباب التصوف الاسلامي . وقد لمع نجم ابن عربي ، في اشبيلية ومات في دمشق سنة ١٢٤٠ ولا يزال ضريحه قائماً في احد مساجدها. وفي كتاب « الاسرا إلى مقام الأسرى » شرح ابن عربي مفصلاً قصة الاسراء بمحمد وصعوده إلى السماء السابعة ووضع بذلك مثالاً احتذاه ، على ما يظن بعضهم ، دانتي اعظم شاعر ايطالي .

وفي ختام القرن الثالث عشر كان قد تم نقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اوروبا ، بعد ان شقت التيارات الفكرية الممتدة من ابواب طليطلة طريقها عبر جبال البرنس وعرجت حتى بلغت بروفانس ومضايق الألب ثم اجتازتهما إلى اللورين فألمانيا واوروبا الوسطى وعبرت الخليج الى انكلترا . واصبحت مرسيليا وتولوز وأربونة ومنتبيليه من مدن فرنسا الجنوبية

مراكز هامة للفكر العربي . اما في شرقي فرنسا فان بلدة كلوني التي آوت في ديرها الشهير عدداً من الرهبان الاسبان كانت في القرن الثاني عشر مركزاً هاماً لنشر العلوم العربية . وفيها تعهد بطرس الفرابل (١١٤١ – ١١٤٣) اول ترجمة للقرآن الى اللاتينية ووضع عدّة كرّاسات ناقش فيها عقائد الاسلام . وباتصال العلم العربي باللورين في القرن العاشر أصبحت تلك الناحية مركزاً علمياً طوال القرنين اللاحقين . وغدت لياج وغورز وكولون وسواها من مدن اللورين اخصب تربة لنمو العلوم العربية . ومن اللورين سرت موجة الدراسات العربية الى سائر انحاء المانيا ، ومنها انتقلت الى انكلترا النورمندية بواسطة علماء وُلدوا وتهذبوا في اللورين . وهكذا تخلّلت العلوم العربية الاندلسية سائر أنحاء اوروبا الغربية .

أفول نجم العروبة في الشرق والغرب

ان كان ثمة ما يضارع السرعة المدهشة التي افتتح بها أبناء البادية العربية معظم العالم المتمدن في القرن الاسلامي الأول فهو سرعة انحطاط السلطة العربية ما بين منتصف القرن الثالث والرابع من بعد محمد . فحوالى سنة ٨٢٠ كان قد استقام لخليفة بغداد من السلطة الواسعة ما لم يستقم لعاهل آخر في تلك العصور . حتى اذا كانت سنة ٩٢٠ كان الخليفة قد أضاع كل سلطته حتى في بغداد نفسها . وما وافت سنة ١٢٥٨ حتى سقطت بغداد وأصبحت خراباً . وبسقوطها زال السؤدد العربي واضمحلت الزعامة العربية وانتهى تاريخ الخلافة العربية الشاملة .

واذا بحثنا الاسباب المؤدية الى هذا الانحطاط والسقوط وجدنا ان هجمات القبائل البربرية من مغول وتتر على كثرتها

وشدتها كانت في الواقع ثانوية . كذلك نشوء الدول العديدة والامارات المستقلة في قلب الخلافة وعلى اطراف مناطقها ما كان إلاّ عرَضاً من اعراض داء الخلافة لا سبباً من أسبابه . ومثّل الخلافة في ذلك مثّل الامبراطورية الرومانية الغربية من قبل التي اصبحت بمثابة رجل عليل على فراش الموت فانتهز اللصوص فرصة مرضه فسطوا على بيته ونهبوا حصتهم من ميراثه .

اما العوامل الداخلية في سقوط الخلافة فأهمّ من العوامل الخارجية . وان القارىء الذي تتبع الفصول السابقة لا ريب أدرك الاسباب الحقيقية ولاحظ مفعولها خلال القرون . فالكثير من الفتوحات الاسلامية الاولى لم يكن إلا اسمياً . ولم تكن طريقة الحكم بما رافقها من الاستهتار بحقوق الشعب واستغلاله وجباية الخراج مما يعين على الاستقرار والدوام . ولقد ظلت الفوارق الجنسية والدينية بين العرب وغير العرب وبين المسلمين وأهل الذمة تفعل مفعولها حتى في الجماعة العربية نفسها . فالعداوة القديمة بين أهل الشمال وأهل الجنوب بقيت مستحكمة . ولم يكن هنالك امتزاج كاف بين الفرس الايرانيين والترك الطورانيين والبربر الحاميين وبين العرب الساميين لتتكوّن منهم امة متجانسة موحدة بل ظلت هذه العناصر المختلفة بلا رابطة متينة تُحكم الوثاق بينها . فأبناء ايران لم ينسوا قط مجدهم الشعبي القديم ولم يرضوا بالنظام الجديد رضى تاماً . أما معاشر البربر فلا أدلّ على شعورهم القبليّ وكثرة اختلافاتهم

من انضمامهم الى مختلف الفرق الاسلامية غير السنيّة . كان اهل الشام لا يفتأون يترقبون ظهور زعيم سُفياني يرفع عن كواهلهم كابوس النير العباسي . ولقد ظهر ضمن نطاق الدين نفسه من النزعات المتنافرة ما لا يقلّ أثراً عن فعل الاحزاب السياسية في تمزيق الاواصر . ومن هذه النزعات نشأت الشيعة والقرامطة والاسماعيلية وجماعة الحشاشين وغيرهم . الا ان هذه الفرق لم تقصر همها على الدين وحده . فالقرامطة فاجأوا الجانب الشرقي من الامبراطوريــة بضربات قاصمة . وما طال أمر الفاطميين حتى استولوا على الامصار الغربية . والواقع ان الاسلام عجز عن ادماج اتباعه في وحدة متراصّة كما عجزت الخلافة عن ربط الاراضي المتاخمة للبحر المتوسط بأراضي آسيا وجعلها كلها دولة واحدة منيعة .

وهنالك عوامل اجتماعية واخلاقية كان لها مفعولها في تفكيك عرى الدولة وتجزئتها . فاختلاط دم العرب الفاتحين على كرّ الأجيال بدم الموالي افقدهُ خصائصه الذاتية وأدّى الى ضياع سلطة الغالب . وبانحطاط الحياة القوميــة العربية وهنت قوى العرب وضعفت معنوياتهم فأخذت السيادة تنتقل تدريجياً الى ايدي الاقوام المغلوبة حتى صارت لهم بكاملها . وكان للتسرّي بما فيه منشآت الحريم والخصيان ضلع في تقويض معنويات الامة . ورافق ذلك اقتناء الجواري والغلمان فأدّى هذا كله الى انحطاط مقام المرأة وفساد اخلاق الرجل . وبالسراري المتعددات تكاثر الابناء المولودون من أمهات مختلفات في بلاط الخلافة

واتسع المجال للتحاسد والفتن . وعظم الترف والبذخ بما فيه الاسراف في الشرب والغناء . فكل هذه العوامل وما يماثلها امتصت حيوية الاسرة المالكة فنتج عن ذلك ظهور اولياء عهد ضعفاء الاجسام والنفوس . ومما زاد في الاضطراب ان حق التعاقب في الخلافة لم يكن منصوصاً عليه بصراحة .

كذلك كان للعوامل الاقتصادية أثرها . فالخراج المرهق وتقسيم البلاد الى مقاطعات تحكمها الطبقات الآمرة لمصلحتها الخاصة أوهن الحياتين الزراعية والصناعية . فكان الشعب يزداد فقراً كلما ازداد الحكام غنىً . وقامت دويلات ضمن دول ابتزّ اولياء الأمر فيها أموال الرعية . وقضت الحروب المتواصلة بانقاص عدد الرجال فغدت المزارع مهجورة خربة . وزاد تكرر الفيضان في أنجاد العراق الجنوبية والمجاعات في مختلف أنحاء الامبراطورية في مصائب القوم وشقائهم . وانتشرت الاوبئة من طاعون وجدري وملاريا وسواها من الحميات التي وقف الانسان حيالها في العصور الوسطى مكتوف اليديـن ففتكت في السكان فتكاً ذريعاً . وقد سجلت المدوّنات العربية للقرون الاربعة الاولى من التاريخ الاسلامي ما لا يقلّ عن أربعين وباء كبيراً .

أما أسباب انحطاط السيادة الاسلامية في اسبانيا وغيرها من الاقطار الاوروبية فكانت على وجه العموم من نوع الاسباب التي أدّت الى سقوط الخلافة في الناحية الشرقية والوسطى من الامبراطورية . إلا ان الضربة القاضية هنـا جاءت على يد

المسيحيين لا المُغُول . فعلى اطلال الخلافة الاموية في قرطبة التي سقطت سنة ١٠٣١ نشأت مجموعة من دويلات اسلامية صغيرة انهكت قواها في الخصومات . فشهد النصف الأول من القرن الحادي عشر ما لا يقل عن عشرين دويلة قامت في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة وساسها زعماء وأمراء يُعرفون بـ « ملوك الطوائف » . واستتبّت الزعامة الأولية في البداية لاشبيلية التي تمتع بلاطها بحقبة من الازدهار لم تبزّها فيه غير قرطبة . وقبل اختتام القرن وقعت دولة إشبيلية مثل غيرها فريسة لدولة من بربر مراكش . ومن هنا ابتدأت زعامة البربر في اسبانيا .

وعُرفت دولة البربر التي حكمت افريقيا الشمالية الغربية والاندلس (١٠٩٠ — ١١٤٧) بدولة المرابطين . والمرابطون في الاصل أخوية دينيّة عسكرية كانوا كأحفادهم الطوارق الضاربين في جنوبي الجزائر الى هذا اليوم يُغطون وجوههم ما دون العيون باللثام ، فعُرفوا بالملثّمين . وتلا هذه الدولة دولة أخرى من البربر عُرفت بدولة الموحّدين . أما اشهر دولة من دول الطوائف العربيسة فكانت دولة بني نصر في غرناطة التي شاد أحد أفرادها محمد الملقب بالغالب (١٢٣٢ — ١٢٧٣) داره الشهيرة في الخافقين بالحمراء .

والواقع ان انحطاط السيادة الاسلاميسة إنما يبدأ بنشوء دُويلات ملوك الطوائف في الشرق وفي الغرب . واذا كان لا يعنينا هنا تتبع تقلّبات هذه الدويلات فيجدر بنا على الاقل تدوين الهام من هذه القصة لا سيا قصة عهد السيادة الاسلامية

الأخيرة في أوروبا . وهي قصة ممتعة تدل أبداً بوضوح على اتجاه نحو الاندماج والتناسق بين مختلف الشعوب والثقافات حتى في الاوقات التي كانت تحاول الفئة فيها إبادة الأخرى . والحق ان مقدرة المرء على إتحاف غيره بعلمه وفنه دليل على ما في مدنيته من رفعة وديمومة .

بدأ استرجاع النصارى للاندلس منذ سقوط الخلافة الأموية في القرن الحادي عشر . والواقع ان المؤرخين الاسبانيين يعتبرون موقعة كوفادونغا Covadonga سنة ٧١٨ التي صد فيها الزعيم الاستوري بلايو Pelayo تقدم المسلمين بدء عهد الاسترجاع . ولو تمكن المسلمون في القرن الثامن من القضاء على آخر بقايا السلطة النصرانية في الجهة الشمالية الجبليـــة لكان تاريخ اسبانيا التالي غير ما هو عليه اليوم . ومما عاق عملية الاسترجاع في اول الأمر النزاع والتنافر بين زعماء النصارى في الشمال ولكنها زادت سرعة حالما تم توحيد قشتالة وليون سنة ١٢٣٠ . ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تم تقريباً استرجاع البلاد بأسرها باستثناء غرناطة التي بقيت بأيدي المسلمين. وكانت طُلَيْطُلَة قد سقطت سنة ١٠٨٥ وتلتها قرطبة في ١٢٣٦ وإشبيلية في ١٢٤٨ .

واستهدفت اسبانيا بعد منتصف القرن الثالث عشر عمليتين رئيسيتين : أولاً تنصير البلاد وثانياً توحيدها . وقد اختلف تنصير البلاد عن استرجاع ملكيتها وعن توحيدها . فالقسم الوحيد من شبه جزيرة أيبيرية الذي تأصلت فيه جذور الاسلام

كان حيث زهت الحضارة الساميّة القرطجنيّة من قبل . ومثل ذلك ينطبق على صقلية ، وهو امر له اهميته . فعلى وجه العموم كان الحد الفاصل بين الاسلام والنصرانية يطابق الحدّ الفاصل القديم بين المدنية الفينيقية والقرطجنية والمدنية الغربية .

وما حل القرن الثالث عشر حتى اصبح الكثيرون من المسلمين في طول البلاد وعرضها تحت سلطة النصارى إما بالغلبة أو بالمعاهدة . ولكنهم في ما عدا ذلك حافظوا على شرائعهم وديانتهم . وقد اطلق على امثال هؤلاء من المسلمين اسم المدّجنين . وكثيرون منهم كانوا قد استبدلوا بالعربية لغةَ الرومانس الاسبانية واندغموا في الجماعة المسيحية .

لم يكن توحيد اسبانيا النهائي سريعاً ولكنه كان اكيداً . وكانت البلدان المسيحية كلها آنئذ تتألف من مملكتي قشتالة وأراغون . وجاء زواج فرديناند ملك الأراغون من إيزابيل ملكة قشتالة في سنة ١٤٦٩ منجزاً لتوحيد المملكتين توحيداً تاماً ومنذراً بالقضاء على سلطة المسلمين في اسبانيا . ولم يكن في مقدور سلاطين بني نصر الصمود امام هذا الخطر المحدق المتزايد . وقد تورّط المتأخرون منهم في مشاكل سلالية زادت مركزهم تقلقلاً وضعفاً . فبين السلاطين الواحد والعشرين الذين حكموا البلاد من سنة ١٢٣٢ الى ١٤٠٢ سنةً تولّى كلٌ منهم الأمر مرتين ، وواحدٌ تولاّه ثلاثاً . وفي ٢ كانون الثاني من سنة ١٤٩٢ ، وهي السنة التي اكتشف فيها كولمبس اميركا ، دخلت الجيوش المسيحية غرناطة بعد حصار طويل شديد وحلّ

الصليب محل الهلال في ابراجها .

ولكنّ صاحبي الجلالة الكاثوليكية فرديناند وإيزابيل نكثا العهد ونقضا الشروط . ففي سنة ١٤٩٩ انتُدب الكاردينـــال خيمانيس Ximenez كاهن الملكة الخاصّ ليتزعم حملة اكراه المسلمين على التنصّر . وأراد الكاردينال اول الأمر مصادرة الكتب العربية التي تُعنى بالاسلام وحرقها . وفي قُرطُبَة جمعت المخطوطات العربية اكواماً اضرمت النار فيها . ثم انشيء ديوان التفتيش وهو من الدواوين التي جاءت بالمظالم المشهورة في التاريخ . فاضطر كثيرون من المسلمين الى مغادرة البلاد . اما من لم يهجر البلاد من المسلمين بعد سقوط غرناطة فسمي بالـ « موريسكو » Morisco وهي لفظة أطلقت اولاً على معتنقي الاسلام من الاسبانيين . وكان الرومان قد اطلقوا على افريقيا الغربية اسم مُورِتانيا وعلى سكانها « مُورِي » ، ولعل اصل هذه اللفظه فينيقي وتعني « غربي » . وهكذا جاء الاسم بالاسبانيـــة « مورو » Moro وفي الانكليزية « مُور » Moor . فالبربر هم «المور» الحقيقيون . غير ان هذه اللفظة أُطلِقَت اصطلاحاً عـــلى كل مسلمي اسبانيا وافريقيا الشمالية الغربية . فنصف المليون من مسلمي جزائر الفيليبين لا يزالون يُعرفون بهذا الاسم . وقد اطلقه الاسبانيون عليهم عندما اكتشف مجلاّن هذه الجزائر في سنة ١٥٢١ .

وكان للمسلمين من الاسبان لهجة رومانسية إلا انهم استخدموا

الحروف العربية لكتابتها وتحدّر الكثيرون من المور يسكو، ان لم يكن سَوادهم ، من اصل اسباني . ولقد جرى الآن تذكيرهم بأن أجدادهم إنما كانوا نصارى وان عليهم قبول المعمودية أو تحمّل العواقب . وجعل المدجّنون والموريسكو في فئة واحدة فتظاهر الكثيرون منهم بالنصرانية لكنهم مارسوا الاسلام سراً . وتزوج كثيرون منهم علناً وفق الشعائر المسيحية ثم عادوا وتزوجوا سراً حسب السنّة الاسلامية . ومنهم من اتخذ اسماً مسيحياً عرفهُ به الناس وآخر عربياً عُرف به سراً . وفي سنة ١٥٠١ صدرت ارادة ملكية تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين إما بالرجوع عن دينهم او بالجلاء عن البلاد . والظاهر ان هذه الارادة لم تنفّذ . وفي سنة ١٥٢٦ واجه مسلمو الأراغون المعاملة نفسها . وفي سنة ١٥٥٦ أصدر فيليب الثاني قانوناً يقضي على الباقية الباقية من المسلمين بالتخلي فوراً عن لغتهم وعباداتهم ومعاهدهم وعاداتهم . وأمر أيضاً بهدم الحمّامات الاسبانية باعتبار انها من تراث عهد الالحاد . فتعالت الشكوى بين المسلمين ونشبت الثورة للمرة الثانية في غرناطة وانتشرت إلى ما جاورها من الجبال ، إلا ان امرها لم يطل . أما القرار الاخير بالطرد فقد أمضاه فيليب الثالث سنة ١٦٠٩ ونجم عنه اجلاء كل المسلمين تقريباً عن الأراضي الاسبانية قسراً . وقيل ان عدد الذين جرى نفيهم على هذه الطريقة بلغ نصف المليون نزل بعضهم سواحل افريقيا وركب بعضهم الآخر سفناً حملتهم الى اقاصي البلدان الاسلامية . ومن هؤلاء

الموريسكو تألف معظم قراصنة البحر المراكشيين . وبهذا حلّت المشكلة الاسلامية في اسبانيا التي شذت عن القاعدة القائلة بثبوت المدنية العربية الدائم حيثما حلّت اقدام العرب. وبهذه المناسبة يقول أحد ثقات الانكليز المحدثين « أقصي المسلمون عن البلاد واشرق مُحيّا اسبانيا المسيحية ردحاً من الزمن كالبدر ذي النور المستعار ثم حلّ الخسوف ، وما زالت البلاد تتسكّع في الظلمات منذ ذلك الحين » .

وانقرضت جميع معالم الفنّ الديني في الاندلس ما عدا مسجد قُرْطُبة ، وهو من أقدم تلك الآثار وأفخمها . وضع أساسهُ عبد الرحمن الأول سنة ٧٨٦ في الموقع الذي قامت فيه كنيسة كانت في الأصل هيكلاً رومانياً وأكمل ابنهُ هشام الأول الجانب الرئيسي من هذا المسجد سنة ٧٩٣ وأضاف اليه مئذنة مربعة الشكل . وقد اتّبع في بناء المآذن الاسبانية الانموذج الافريقي الراجع الى اصل شامي . وكان يدعم سقف هذا المسجد ١٢٩٣ عموداً ظهرت كأنها غابة كثيفة من الاشجار. وأضيء بفوانيس نحاسية صنعت من اجراس الكنائس . وكان بين ثريّاته واحدة يوقد فيها الف مصباح . أما صغرى هذه الثريات فكان فيها اثنا عشر مصباحاً . واستُخدم في زخرفة بنائه صنّاع بيزنطيون مَهَرة مثل الذين يقال انهم استُخدموا في بناء مساجد الشام . وكان مؤسسه قد انفق في بنائه ثمانين الف قطعة ذهب من غنائم القوط . وظلت عملية التوسيع والاصلاح تتناول أفناء هذا المسجد حتى زمن الحاجب

المنصور (٩٧٧ ـ ١٠٠٢) وهو اليوم كاتدرائية تحمل اسم عذراء الصعود .

أما الآثار الدنيوية فأبدعها القصر Alcazar في إشبيلية والحمراء في غرناطة وهما أنفس الآثار الباقية بما تضمانه من الزخرفة الفنية البديعة . وأقدم جانب مسن القصر في إشبيلية بناهُ مهندس معماري طُلَيْطُلي لأحد عمال الموحدين سنة ١١٩٩ ـ ١٢٠٠ . والموحّدون هم بُناة الدولة البربرية الثانية التي حكمت الأندلس بعد دولة المرابطين . ثم أعيد بناء هذا القصر على الطراز الاسلامي بأمر بطرس الصارم سنة ١٣٥٣ . وقد قام بذلك بعض صناع المدجّنين ونزلته الأسرة المالكة بضع سنين . وليس من قصور الاندلس الشهيرة في قُرْطُبة وطُلَيْطُلة وسواهما ما هو قائم الى اليوم إلا قصر إشبيلية وهو أشهرها . ومما يؤسف له ان هذا القصر أصيب باضرار خلال الثورة الاسبانية الاهلية الاخيرة .

وأما فنّ الزخرفة الاسبانية العربية فبلغ أوج مجده في قصر الحمراء . والحق ان هذا « الاكروبوليس » بغَرناطة ، بما فيه من الافراط في التزويق بالفسيفساء والمتدليات الكلسية من السقوف والنقوش وباعتبار عظم حجمه ، ليُعدّ أفخر ما بُني من هذا النوع . وكان محمد الأول الغالب من بني نصر قد شرع في بناء الحمراء حوالى سنة ١٢٤٨ . ولكن بناءَها لم يتم حتى منتصف القرن الرابع عشر .

وكانت القنطرة ذات الشكل النعلي التي تميزت بها هندسة

البناء الاسلامية في الغرب معروفة" في الشرق الأدنى قبل الاسلام . وقد ظهر شكلها النعلي المستدير في الجامع الأموي في دمشق وكان هذا النوع الاخير الذي عُرف في الغرب بـ « القنطرة المغربية » معروفاً بلا شك في اسبانيا قبل الفتح العربي ولكن المسلمين الاسبانيين وبخاصة أهل قرطبة أدركوا امكانياته البنائية والزخرفية فاعتنقوه عامة . وتحفة أخرى قدمها عرب قرطجنّة هي أصول بناء الأقبية القائمة على قبب متقاطعة وضلوع ظاهرة متقاطعة . فهذه وسواها من خصائص الفن المعاري ارتفعت في قرطبة وانتقلت منها على يد المستعربين الى طليطلة وسواها من مراكز الشمال في شبه الجزيرة . فنشأ هنالك بتمازج التقليد النصراني والتقليد الاسلامي أنموذج جديد في الفن المعماريّ قوامه القناطر النعلية والاقبية . وبلغ هذا الفن الممزوج على أيدي الصناع المدجّنين درجة عالية من الجمال والكمال فلم يلبث ان برز فناً اسبانياً قومياً .

ولقد ظل لأهل الرقص والغناء من العرب نصيب وافر في عرض الملاهي على أبناء اسبانيا والبرتغال إلى ما بعد سقوط غرناطة بزمن طويل . وتميل ابحاث بعض المستشرقين الاسبان الى الاعتقاد بأن موسيقى اسبانيا العامية لا بل موسيقى الجنوب الغربي من أوروبا خلال القرن الثالث عشر وما بعده، شأن الروايات الغرامية الغنائية والتاريخية في تلك الارجاء ، ترجع في الأصل الى منبع اندلسي وعن طريق العربية الى مصادر فارسية وبيزنطية ويونانية . وكما ان الفلسفة وعلم الرياضيات

والطب انتقلت من بلاد اليونان وروما الى بيزنطية وفارس وبغداد ثم الى اسبانيا ومنها الى كافة أنحاء أوروبا هكذا انتقلت عدة فروع من الموسيقى النظرية العملية .

وليس من شك في ان البلاد الأوروبية الوحيدة التي رسخت فيها أقدام العرب ، باستثناء اسبانيا ، هي صقلية . ففي سنة ٦٥٢ وجه العرب حملات متقطعة للاستيلاء على هذه الجزيرة ولكن فتحها لم يتمّ حتى سنة ٨٢٧ . وغدت صقلية طيلة المائة والتسع والثمانين السنة التي تلت تحت سلطة حكام مسيطرين جعلوها كلها أو بعضها قطعة من العالم العربي وعاصمتها بلَرم (بالرمو) .

وكما كانت اسبانيا مركزاً لشن الغارات الاسلامية على الشمال واحتلاله موقتاً هكذا أصبحت صقلّية بالنسبة الى ايطالية وحملات العرب عليها . وكان الامير ابراهيم الثاني من اغالبة تونس الذين حكموا صقلّية قد جرّد قبل موته سنة ٩٠٢ حملات عبر المضيق الى الجهة الجنوبية الغربية من ايطاليا المعروفة بقلّورية (كلابريا) Calabria . وهو ليس اول عربي وطئت قدماه تربة ايطاليا . وبعد سقوط بَلَرْم بوقت قصير أخذ قواد الأغالبة من افريقيا الشمالية يتدخلون في المنازعات بين اللامبارديين من سكان ايطاليا الجنوبية . أما « الكعب » و « الابهام » من القدم الايطالية فكانا يومئذ لا يزالان خاضعين للامبراطور البيزنطي . ولما استنجدت نابل (نابولي) Naples سنة ٨٣٨ بالعرب لم يترددوا عن التلبية . وصارت منحدرات جبل

فزوفيوس تردد صيحات الحرب . وبعد مضي اربع سنوات وقعت باري على البحر الادرياتيكي في يد المسلمين وأصبحت القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين السنة اللاحقة . وفي هذه الآونة ظهر الظافرون بجوار البندقية (فنيس). وفي ٨٤٦ تهددوا رومة بعد أن نزلت فيالقهم عند مرفئها البحري أوستيا Ostia وإذ عجزوا عن اختراق أسوار المدينة الأبدية سلبوا كاتدرائية القديس بطرس في فناء الفاتيكان وكاتدرائية القديس بولس خارج الاسوار وعبثوا بقبور البابوات . وبعد ثلاث سنوات وصل اسطول اسلامي آخر مرفأ اوستيا ، إلا ان الاسطول الايطالي تمكن بمساعدة عاصفة بحرية هوجاء من القضاء عليه . وهناك صورة من ريشة روفائيل تمثل هذه الموقعة البحرية ونجاة رومة العجيبة ، إلا ان سيطرة المسلمين على ايطالية بقيت محكمة حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢) رأى من الحكمة تأدية الجزية لهم طوال سنتين .

ولم يحصر الاغالبة أعمالهم الحربية في شواطىء ايطاليا . ففي سنة ٨٦٩ فتحوا جزيرة مالطة . ومن ايطاليا واسبانيا امتدت في القرن العاشر غزوات القرصنة من مضايق الالب حتى اوروبا الوسطى . وفي الألب اليوم عدد من القلاع والاسوار التي يقول الادلاء للسياح إنها ترتقي الى الفتح الاسلامي . ولعل اسماء بعض الأماكن في سويسرا عربية الأصل .

وجاء استرجاع النصارى لباري (سنة ٨٧١) بدء نهاية الخطر على ايطاليا واوروبا الوسطى من المسلمين . وكان قواد الجيش العربي في باري قد بلغ بهم الأمر ان اعلنوا انفسهم

« سلاطين » مستقلين عن الامير المقيم في بَلَرْم . وفي سنة ٨٨٠ نشط الامبراطور البيزنطي باسيليوس الأول فانتزع طارَنت (تَرَنتو) ، وهي قلعة حصينة ، من ايدي المسلمين في قَلَوريَة . وبذلك انتهت آخر مراحل التوسّع العظيم الذي كان بدؤه في جزيرة العرب النائية قبل قرنين ونصف القرن . وحتى هذا اليوم نجد الشاطيء الجميل الى الجنوب من نابُل مرصعاً بعدد من « الابراج العربية » الـتي كانت تعتمد للاعلان عن مقدم الاساطيل العربية من صقلية او من افريقيا .

وبدأ الفتح النورمندي لجزيرة صِقِلّية باحتلال الكونت روجر Roger بن تانكير ده هوتفيل Tancred de Hauteville في سنة ١٠٦٠ لمدينة مسّينا ، الأمر الذي افضى الى سقوط بَلَرْم سنة ١٠٧١ وسَرَقُوسَة Syracuse في سنة ١٠٨٥ . وانتهى الاستيلاء على كل الجزيرة في ١٠٩١ . وفي سنة ١٠٩٠ احتلّ روجر مالطة . وقد كان لهؤلاء النورمنديين الاشداء دولة قوية في القارة الأوروبية . وهـا هم الآن يثبّتون اقدامهم في الممتلكات الجديدة .

وشاهدت صِقِلّية في عهد النورمنديين ظهور ثقـافة نصرانية اسلامية رفيعة . وسرت الى هذه الجزيرة — وهي حافلة بذكريات المدنيات السابقة — طيلة الحقبة العربية مجاري الثقافة الشرقية التي امتزجت بتراث اليونان والرومان الثمين فبرزت بشكل خاص تحت لواء الحكم النورمندي وطبعت ثقافة النورمنديين بميزتها الخاصة . وكان العرب الى هنا منهمكين

بحروبهم وخصوماتهم فلم يتسع لهم الوقت ليرقّوا الفنون التي تروج ايام السلم . اما الآن فقد اطلقوا العنان لمواهبهم الخصبة واخرجوا انتاجاً قيماً في الثقافة العربية النورسندية .

ومع ان روجر الاول كان نصرانياً غير مثقف فقد جعل معظم جيش المشاة من المسلمين وشمل العلوم العربية بعطفه . فأحاط نفسه بالفلاسفة الشرقيين والمنجمين والاطباء ومنح غير النصارى كامل الحرية في ممارسة طقوسهم ، حتى ان بلاطه في بَلَرْم كان شرقياً اكثر منه غربياً . وبقيت صقلّية بعده مدةً تزيد على القرن فريدة من حيث كونُها مملكةً نصرانية اتصفت باسناد بعض المناصب العليا فيها الى رجال مسلمين .

واقدم وثيقة مكتوبة على الورق في اوروبا تلك التي تتضمن امراً إدارياً اصدرته باللغة اليونانية والعربية زوج روجر الأول وذلك في الراجح سنة ١١٠٩ . والمظنون ان هذه الوثيقة كتبت على ورق استورده عرب صقلية من الشرق .

وكان روجر الاول اول من احيا العربية من ملـوك صقلّية . وتلاه في العناية بها ابنه روجه الثاني (١١٣٠ — ١١٥٤) . ثم فردرك الثاني . اما روجر الثاني فارتدى الملابس الاسلامية حتى سماه ناقدوه «الملك نصف الوثني» . وكانت جبته تزدان بالحروف العربية . وفي ولاية حفيده وليم الثاني (١١٦٦— ١١٨٩) شاهد ابن جُبَير النساء النصرانيات في بَلَرْم خارجات في زيّ المسلمات .

وكان الإدريسي وهـو اشهر عالِم في الجغرافية ورسم

الخرائط في العصور الوسطى المعَ شخصية ازدان بها بلاط روجر الثاني . ولد ابو عبد الله محمد بن محمد الادريسي سنة ١١٠٠ من ابويّن عربيين اندلسيين وتوفي سنة ١١٦٦ . وتجلت مواهبه في بَلَرْم حيث وقف حياته على الانتاج الأدبي برعاية روجر الثاني . أما رسالتهُ (كتاب روجار) الموسومة بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق، فلا تقتصر اهميتها على تلخيص الموضوعات الرئيسية التي عُنيت بها الكتب السابقة كمؤلفات بطليموس والمسعودي بل قامت في الدرجة الأولى على تقارير مبتكرة حملها اليه رواة كان قد أوفدهم الى بلدان متفرقة لكي يأتوه بالمعلومات والملاحظات . وقد اظهر الادريسي في غربلة هذه المواد وتحرّي حقائقها رجاحة عقل كبرى ، وفهماً لدقائق الأمور كادراكه كرويّة الأرض . وهو الذي عين منبع نهر النيل في نجاد افريقيا الاستوائية على الرغم من القول الشائع بأن اكتشاف منبع هذا النهر لم يتم الا في أواسط القرن التاسع عشر . وفضلاً عن هذا المؤلف الضخم فان الادريسي صنع لوليّ نعمته النورمندي كرةً سماوية وخريطة للعالم في شكل قرص ، وكلتاهما من الفضة .

كان روجر الثاني احد «سلطاني صِقِلّية المعمّدَين» . اما السلطان الآخر فهو حفيدهُ فردرك الثاني الذي بسط حكمهُ على صِقِلّية والمانيا . وعلاوة على تمتعه بعد سنة ١٢٢٠ بلقب «امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة» فقد اصبح ملك بيت المقدس بفضل زواجه من ولية العهد ايزابيل البرينّيه

Isabelle of Brienne . وإذاً فقد كان للامبراطور فردرك اعظم سلطة مدنية في العالم المسيحي لذلك العهد.وبعد زواجه بثلاث سنوات قام بحملة صليبية عاد منها وقد ازداد تأثره بالافكار الاسلامية .

وكان فردرك في عاداته الشخصية وحياته الرسمية شبه شرقي حتى انه اقام لنفسه بيت حريم خاص . وزها في بلاطه فلاسفة من سورية وبغداد ذوو لحى مستطيلة وملابس فضفاضة وقيان وراقصات شرقيات ويهود شرقيون وغربيون . ولقد أظهر اهتماماً خاصاً بالعالم الاسلامي تجلى في علاقاته السياسية والتجارية وأخصها ما كان مع سلطان مصر الأيوبي . واستدعى اختصاصيين من مصر لاجراء التجارب في بيض النعام وحضانتها بحرارة الشمس . واحضر من سورية رجالاً ذوي كفاءة وبراعة في ترويض البزاة ، وكان يراقبهم في تدريب هذه الطيور التي كان يُجري التجارب عليها بأن يخيط عيونها ويطلقها ليتحقق فيما إذا كانت تهتدي الى طعامها بواسطة حاسة الشمّ . وعهد الى ترجمانه ومنجمه ثاذرى (ثيودور) وهو نصراني يعقوبي من انطاكية بنقل رسالة عربية في موضوع البزاة . وهذه الترجمة وترجمة أخرى من الفارسية ، جاءتا أساساً للكتاب الذي وضعه فردرك في ترويض البزاة والصيد بها . وهو أول مصنّف في التاريخ الطبيعي . وكان قد سبق ثاذرى في خدمة البلاط المنجم ميخائيل سكوت الذي تمثلت فيه العلوم الاسلامية في صقلّية واسبانيا من سنة ١٢٢٠ — ١٢٣٦ ، وقد هيأ ميخائيل سكوت

للامبراطور عن طريق الترجمة من العربية الى اللاتينية موجزاً تضمّن خلاصة مؤلفات ارسطو في البيولوجيا وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا فقدّمه الى وليّ نعمته . فهذه الروح التي تكاد تكون حديثة — روح التنقيب والبحث والاختيار التجريبي التي امتاز بها بلاط فردرك — كانت فاتحة عصر النهضة العلمية الايطالية .

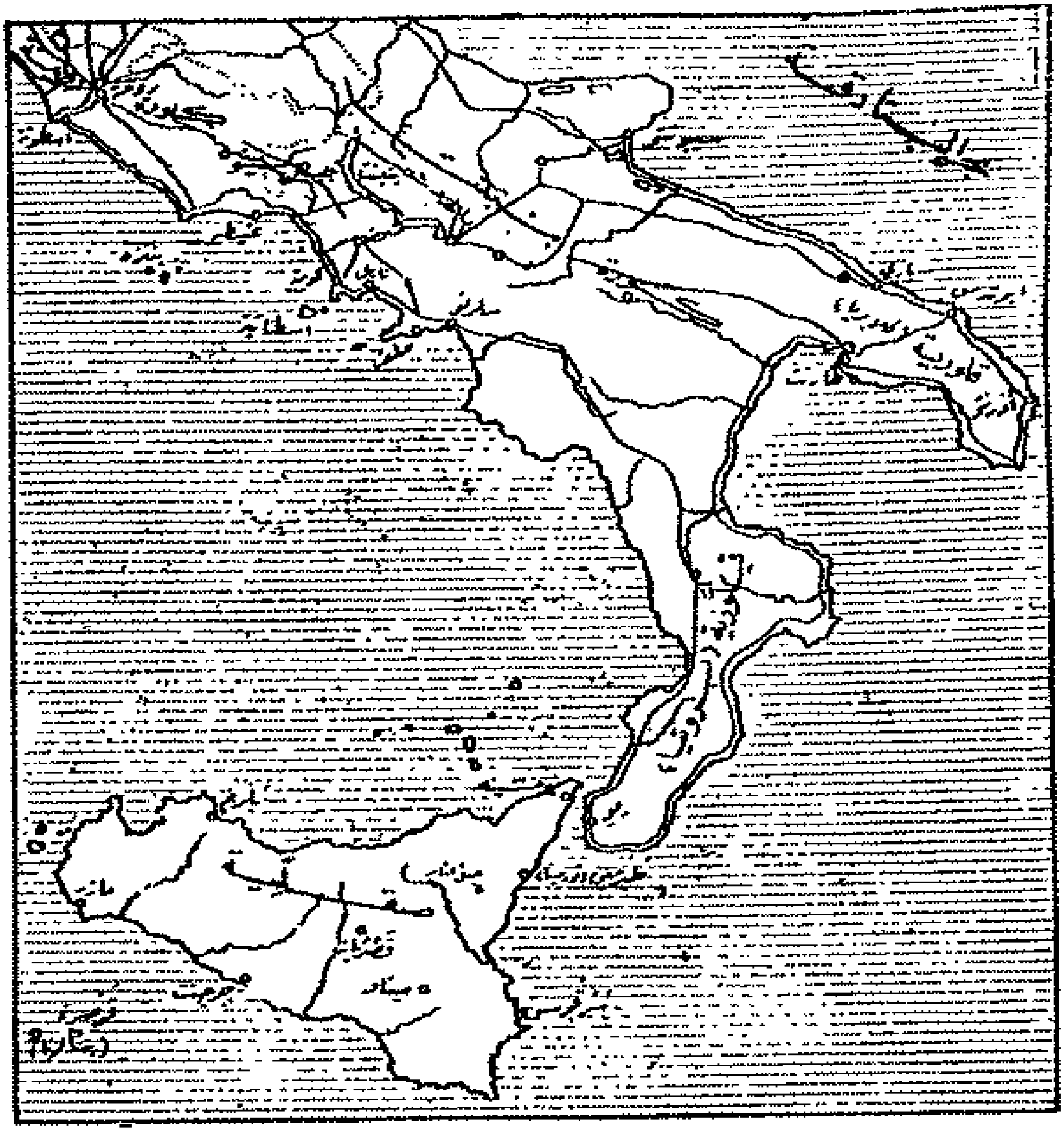
اما أعظم مآتي فردرك فتأسيس جامعة نَابُل في سنة ١٢٢٤ وهي اول جامعة في اوروبا تأسست ببراءة رسمية . وقد أودع فردرك هذه الجامعة مجموعةً كبيرة من المخطوطات العربية . وأمر بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد لتُصبح كتب التدريس فيها . وقد ارسلت نسخٌ من هذه الترجمات الى جامعــة باريس وبولونيا Bologna . وكان في عداد تلامذة جامعة نابُل تُوماس الأقويني احد اعــلام الفلسفة المسيحية المدرسية (سكولاستيك) . وفي القرن الرابع عشر والقرون اللاحقة غدت الدراسات العربية جزءاً من مناهج عدة جامعات في اوروبا . ومنها جامعتا اكسفورد وباريس . ولكن الباعث على ذلك اختلف عما كان عليه سابقاً وانتهى الى ان يكون إعدادَ المرسلين المسيحيين الى البلدان الاسلامية .

وكانت صقلية نقطة التلاقي لثقافتين ممتازتين . ولقد توفرت فيها الأسباب لتكون واسطة لنقل علوم العصور القديمة والعصور الوسطى . وكان سكانها يتألفون من عنصرين : عنصر يوناني يتكلم اليونانية ، وآخر اسلامي يتكلم العربية ، وفئة ثالثة من

العلماء يحسن افرادها اللاتينية . فدرجت هذه اللغات الثلاث على ألسنة القوم في المجالس العامة والخاصة واستخدمت في السجلات الرسمية وفي اصدار البراءات الملكيّة .

ولما كان الملوك النورمنديون وخلفاؤهم يحكمون علاوة على جزيرة صقلية ايطاليا الجنوبية فقد تسنى لمملكتهم أن تكون جسراً تعبر عليه شتّى عناصر الثقافة الاسلامية الى شبه الجزيرة الايطالية واوروبا الوسطى . وحوالي منتصف القرن العاشر بدأت آثار العلوم العربية تظهر في شمال الألب . اما آراء دانتي في الآخرة فقد تكون غير مستقاة رأساً من مصدر عربي معين ولكن لا ريب في انها شرقية الاصل استمدها هذا الشاعر من ادب اوروبا العامي لذلك العهد . وهذه المؤثرات الشرقية التي تطرّقت الى الغرب بواسطة مجار مختلفة ظاهرة في ميدان الفن ظهورها في العلم والأدب . ولقد ظل الصنّاع المسلمون وحذاق الفن يزدهرون في صقلية وجنوبي ايطاليا الأمد طويل بعد خضوع صقلية والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة للحكم المسيحي . تشهد بذلك انواع الفسيفساء والنقوش في كنيسة البلاتين Palatine . اما معمل الحياكة الشهير الذي أحدثه امراء المسلمين في قصر بلرم الملكي فقد امدّ ملوك اوروبا بالملابس الرسمية مطرزة بالعبارات العربية . وبلغ الطلب على المنسوجات الشرقية درجة عظمى حتى ان الاوروبي لم يكن يحسب نفسه حسن الهندام ما لم يكن في حيازته رداء شرقي واحد على الاقل .

وفي خلال القرن الخامس عشر ، عندما كانت البندقية



صقلية وايطاليا الجنوبية من القرن العاشر الى القرن الحادي عشر
ممثلة (الاحتلال الاسلامي) . انظر ايضاً الخريطة التي على ص ٩١

(فنيس) الغنية تقبل على الازياء الشرقية وتعمل على نشرها ، اكتست الكتب المجلدة في المصانع الايطالية حلة شرقية. وظهرت الكتب المسيحية حاملة خصائص التجليد العربي ومن أهمها ردة الجلد التي تطوى على الكتاب لصيانة مقدمته. وفي الوقت نفسه تلقن صناع عدة مدن ايطالية ، عن الصناع الشرقيين ، طرقاً جديدة في زخرفة جلدتي الكتاب وتزيينها بالرسوم . زد على ذلك ان البندقية أصبحت موطن صناعة عربية أخرى قائمة على ترصيع النحاس الأصفر بالذهب او الفضة او النحاس الأحمر . وعلى الجملة فان صقلية من حيث نقلها الثقافة الاسلامية جديرة بمنزلة تجعلها دون اسبانيا اهمية وفوق سورية شأناً في زمن الحروب الصليبية .

وفي الوقت الذي كان يقضى فيه على آثار السلطة الاسلامية في الاندلس كانت الخلافة في بغداد تلفظ أنفاسها الأخيرة بداعي الفتن الدموية والدسائس في الدولة . وظهور الدولة الطولونية في قلب الخلافة الاسلامية خلال القرن التاسع دل بوضوح على ما سينتاب هذه الخلافة من الكوارث وعلى كيفية وقوعها . ولقد كانت الدولة الطولونية أبكر تكتل سياسي قام به العنصر التركي الذي لم يكن له من قبل أثر محسوس. وما لبث ان عقب هذه الدولة دويلات تركية أخرى فاقتها شأناً ومدى . وما احمد بن طولون الذي استولى على السلطنة سنة ٨٦٨ إلا مثال لكثيرين ممن شيدوا على انقاض الخلافة المتداعية دويلات انفصلت عن الخلافة انفصالاً تاماً أو اقرت بها اقراراً اسمياً

فقط . وسيرة أحمد تبرهن على مقدار الاستقلال الذي تمكن القواد الطموحون من الاستئثار به عند اعتمادهم على الجيش وانفرادهم بالسلطة السياسية على حساب الحكومة المركزية التي حالت ضخامتها وسعة ممتلكاتها وتباعد اقطارها دون ادارتها بمقدرة وكفاءة . الا ان الدولة الطولونية وما عقبها من دويلات لم تكن ترتكز على أساس قومي في البلاد التي تولتها ، ولذلك لم تعش طويلاً . وكان مصدر الضعف فيها عدم وجود جماعة كبيرة في البلاد من العنصر الحاكم تسند الدولة . والحكام أنفسهم انما كانوا غرباء معتدين انتصروا بحرس او جيش مأمور افراده دخلاء على البلاد . على ان سلطاناً كهذا لا يدوم الا ديمومة القائمين به من ذوي الشخصيات البارزة والمواهب الفائقة . حتى اذا ما فترت همة منشىء الدولة أو اميرها اعتور الانحلال جسم الدولة كلها . فلا عجب اذا كانت الدولة التي شيدها ابن طولون رجعت الى حوزة العباسيين في ولاية شيبان (٩٠٤ — ٩٠٥) ابنه ورابع خلفائه .

أما الدولة الوحيدة التي دامت نيفاً وقرنين والتي سطرت صفحة رائعة في التاريخ فكانت دولة الخلافة الفاطمية ، وهي الخلافة الشيعية الرئيسية الوحيدة في الاسلام . قامت هذه الخلافة في تونس سنة ٩٠٩ متحدية الزعامة الاسلامية التي مثلها خلفاء بغداد العباسيون . ولم يطل الأمر حتى انتشر لواء هذه الدولة على سائر افريقيا الشمالية ومصر . وفي عهدها بلغت القاهرة من الازدهار والعز شأواً بعيداً . ولكن دولة الفاطميين ، على الرغم

من هذا السؤدد التي تمتعت به ، لم تدم مدة أطول اذ أخذت الدسائس المألوفة تعبث بها وطفق الفساد يضعف من كيانها . زد على ذلك تعسّر أحوال عامة الشعب الذي كان يعتمد في قوته على فيضان النيل ، وما أصابه من المجاعات والاوبئة وما فرض عليه من الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهله . الا ان هذه المحن انتهت بظهور صلاح الدين في عهد الصليبيين وخلعه آخر خلفاء الفاطميين سنة ١١٧١ .

وتمثل الحقبة الفاطمية ، من الناحية السياسية ، فجر عصر جديد في تاريخ وادي النيل الذي استرجع بها ، لأول مرة منذ أيام الفراعنة ، سيادته القومية التامة في حكومة عزيزة الجانب شديدة الحيوية قامت على أساس ديني . ولقد زار مصر ناصري خسرو الفارسي أحد دعاة الاسماعيلية سنة ١٠٤٦ ــ ١٠٤٩ ، أي قبل الكارثة الاقتصادية السياسية التي أشرنا اليها ، فدون لنا وصفها في لغة تفيض بالاعجاب . ومما ذكره ان قصر الخليفة المستنصر كان يسع ثلاثين الف نسمة منهم اثنا عشر الف خادم والف فارس وحارس . وأنه رأى هذا الخليفة الشاب في أحد الاعياد على بغلة فاذا به فتى وسيم الطلعة حليق الوجه عليه ملابس بسيطة منها قفطان ابيض ، وعلى رأسه عمامة ، والى جانبه حاجب يظلله بمظله مرصعة بالحجارة الكريمة . وكان لهذا العاهل سبع سفن راسية الى ضفة النيل طول الواحدة مائة وخمسون ذراعاً وعرضها ستون . وكان الخليفة يملك في العاصمة عشرين الف بيت أكثرها مبني باللبن ، وتتألف من خمسة أدوار او ستة

وفي أسفلها مثل ذلك من الحوانيت يؤجر أحدها بما بين الدينارين والعشرة في الشهر . وكانت الشوارع الرئيسية مسقوفة ومضاءة بالقناديل . وكانت لاصحاب الحوانيت أسعار محدودة للبيع فاذا بدر من أحدهم غشٌ في معاملته ناله التشهير ، أي أركب على جمل وطيفَ به في أسواق المدينة على صوت الاجراس وأجبر على المناداة بذنبه . وحتى حوانيت الصاغة والصرّافين كان يتركها أصحابها ليلاً غير مقفلة . وكان في الفسطاط القديمة سبعة جوامع وفي القاهرة ثمانية . وتمتعت البلاد كلها بقسط من الأمن لا يُستقلّ وبجانب من الثروة جعلا ناصري خسرَو يقول : « لم استطع حصر ثروتها ولا قدرها ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر » .

وفيما كان الفاطميّون يحكمون مصر وافريقيا الشمالية كان الانحلال يدب بسرعة في قلب الامبراطورية الشائخة في بغداد . في هذه الظروف قامت دولة السلاجقة الترك فتمتعت بحقبة رائعة من النفوذ والسموّ في الشرق الاسلامي . وتولى طُغْرُل السلجوقي الحكم في عاصمة الخليفة سنة ١٠٣٧ وعظمت قوة جيش السلاجقة بما انضم اليه من قبائل الترك النشيطة فوسعوا فتوحاتهم في جميع النواحي حتى غدت آسيا الغربية مملكة اسلامية موحدة . فانتعشت السلطة الاسلامية بعد اعتلالها وعاد الى الاسلام مجده — ذلك ان عنصراً جديداً من آسيا الوسطى تدفقت أمواجه فشد أزر الاسلام في طموحه الى السيادة العالمية . والواقع ان قصة هؤلاء السلاجقة الكفار الذين قهروا المؤمنين من ملة محمد

ثم اعتنقــوا الاسلام فانقلبوا حماته الغُبر ليست فريدة في تاريخ هذا الدين . فقد سلك مسلكهم أقوام أخرى منهم أبناء عمهم المُغُول في القرن الثالث عشر وذوو قرباهم الترك من آل عثمان في مطلع القرن الرابع عشر . وهكذا كان يُقيّض للاسلام في أشد ساعاته من يدخل في حظيرته فيساعده على تحقيق أهدافه ومتابعة انتصاراته .

وأخيراً جاءت الساعة التي عانى فيها الاسلام أشد مصاعبه وذلك عندما ظهر في سنة ١٢١٦ جنكيز خان على رأس جيش جرار مؤلف من ستين الفاً من أقوام المُغُول الممجية على خيول سريعة حاملين أسلحة من نبال غريبة الاشكال . فاجتاح البلاد وألقى الرعب في الناس وأمعن في التخريب والتدمير أينما حل . وقد انطمست أمام هجمات المُغُول معالم الثقافة في عواصم الاسلام الشرقية فأصبحت الديار التي باهت بقصورها الفخمة وخزائن كتبها قاعاً صفصفاً وأفناء خاوية لا حياة للعلم فيها . وجرت الدماء على طول الطريق التي سلكتها عساكرهم تاركة أثراً لا يمّحي. هذه مدينة هَرَاة كان سكانها مائة الف لم يبق منهم الا أربعون الفاً . وهذه مساجد بخارى المشهورة بأبنائها الاتقياء والعلماء جُعلت أصاطب (جمع اصطبل) لخيول المُغُول . وكثيرون من سكان سمرقند وبَلْخ استُبيحت دماؤهم أو وقعوا في الأسر . أما خوارزم فخُربت وأصبحت أثراً بعد عين . وفي رواية متأخرة ان جنكيز خان لدى فتحه بخارى وصف نفسه في خطبة له قائلاً انه « آفة من الله أرسلت

الى الناس قصاصاً على معاصيهم » . وهكذا اجتاح هذا القائد المغولي العالم الاسلامي ووضع الأساس لأكبر امبراطورية شاهدها العالم هزّت في النصف الأول من القرن الثالث عشر أركان كل قطر ما بين الصين والأدرياتيك ، واكتسح رجالها بعض أجزاء روسيا وأواسط أوروبا حتى شرقي بروسيا . ولو لم يمُت ابن جنكيز خان وخلَفُه سنة ١٢٤١ لما نجت أوروبا الغربية من هذه القبائل المغولية .

وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولاكو حفيد جنكيز خان بلاد المغول على رأس جيش جرار عازماً على ابادة الخلافة . فكانت موجة مغولية ثانية اكتسحت في طريقها كل الامارات التي كان يسعى أصحابها في توطيد ملكهم على انقاض الامبراطورية . وفي كانون الثاني من سنة ١٢٥٦ هاجم هُولاكو اسوار بغداد وأعمل المنجنيق فيها . وما لبث رجاله ان فتحوا ثغرة في أحد أبراجها فخرج الوزير ابن العلْقمي ومعه جاثليق النساطرة — وقد كانت لهولاكو زوجة نصرانية — للمفاوضة بالصلح . الا ان هُولاكو رفض مقابلتها ولم يُصغ الى كلام القائلين بان الحتف كان من نصيب الذين يتجرّأون على قهر مدينة السلام أو النيل من خليفة بني العبّاس وانه « متى قُتل الخليفة اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر والنبات » . لم يَعبأ هولاكو بشيء من هذا بل أخذ بنصيحة منجّمية . فلم يكن اليوم العاشر من شباط حتى اقتحمت عساكره المدينة فخرج الخليفة وثلاثمائة من خاصتّه خاضعين مسلّمين

دون قيد أو شرط . فأمر الفاتح بقتلهم بعد عشرة أيام . وأعمل جنده النهب والنار والتقتيل في المدينة حتى محوا سواد سكانها وفيهم أسرة الخليفة . ولقد ثقل الهواء من كريه رائحة الجيف المنتنة وأشلاء القتلى المطروحة في الشوارع ما اضطر هولاكو الى ان يبتعد عن المدينة أياماً . واذ قد عزم على نزول بغداد واتخاذها مسكناً فانه لم يمعن فيها تخريباً امعانه في المدن الأخرى . ولكنه عامل جاثليق النساطرة معاملة طيبة وأبقى على بعض المدارس والمساجد ورمم البعض الآخر مما تهدم . ولاول مرة في تاريخ الاسلام خلا كرسي الخلافة من خليفة يُدعى له من على المنابر في خطبة الجمعة .

وفي سنة ١٢٦٠ نشط هولاكو الى شمال الشام فتهددها . وبعد استيلائه على حلب وإعماله السيف في رقاب خمسين الفاً من سكانها دخل حماة وحارم . ثم انفذ قائداً لحصار دمشق ولكن وفاة اخيه الخان الكبير اضطرته الى الرجوع الى ايران بيد ان الجيش الذي تركه وراءه في الشام فتح سائر البلدان السورية الى ان قضى عليه في العام نفسه بيْبَرس القائد الممتاز العامل في خدمة أحد سلاطين مماليك مصر بالقرب من الناصرة ، وقد صار فيما بعد من سلاطين المماليك اللامعين .

وتوفي هولاكو سنة ١٢٦٥ وكان أول من اتخذ لنفسه لقب ايل خان (الخان الصغير) . ولم يكد يمضي على وفاته نصف قرن حتى اعترف سابع الخانات بالاسلام ديناً للدولة ، فجاء ذلك فوزاً جديداً باهراً لدين محمد مماثلاً لفوزه على

يد السلاجقة .

وفي هذا الوقت كان الاسلام يتعرض في الجبهة الغربية من البلاد لهجوم آخر سطرت حوادثه صفحة رائعة في تاريخ المدنية وسطع نجم اعظم ابطال الاسلام . ذلك عهد الصليبيين وصلاح الدين .

الحروب الصليبية

تمثل الحروب الصليبية فصلاً متوسطاً من فصول تلك القصة الطويلة التي تتناول التفاعل بين الشرق والغرب . وهي قصة متعاقبة منذ حروب طروادة وحروب فارس واليونان الى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الأوروبي . اما بوجه خاص فقد كانت الحروب الصليبية بمثابة ردّ فعل ضد الاسلام في العالم المسيحي ، وبمثابة قيام أوروبا المسيحية على آسيا الاسلامية التي كانت اتخذت خطة الهجوم منذ سنة ٦٣٢ ليس على سورية وآسيا الصغرى فقط بل على اسبانيا وصقليّة ايضاً . وللحروب الصليبية اسباب اخرى منها النزعات الحربية والميول القومية الى الهجرة التي امتازت بها قبائل الطوطون الذين غيّروا خريطة اوروبا مذ تعاقبوا على املاك الامبراطورية الرومانية . ومنها هدم كنيسة القيامة بأمر الحاكم الخليفة الفاطمي سنة ١٠٠٩ وهي

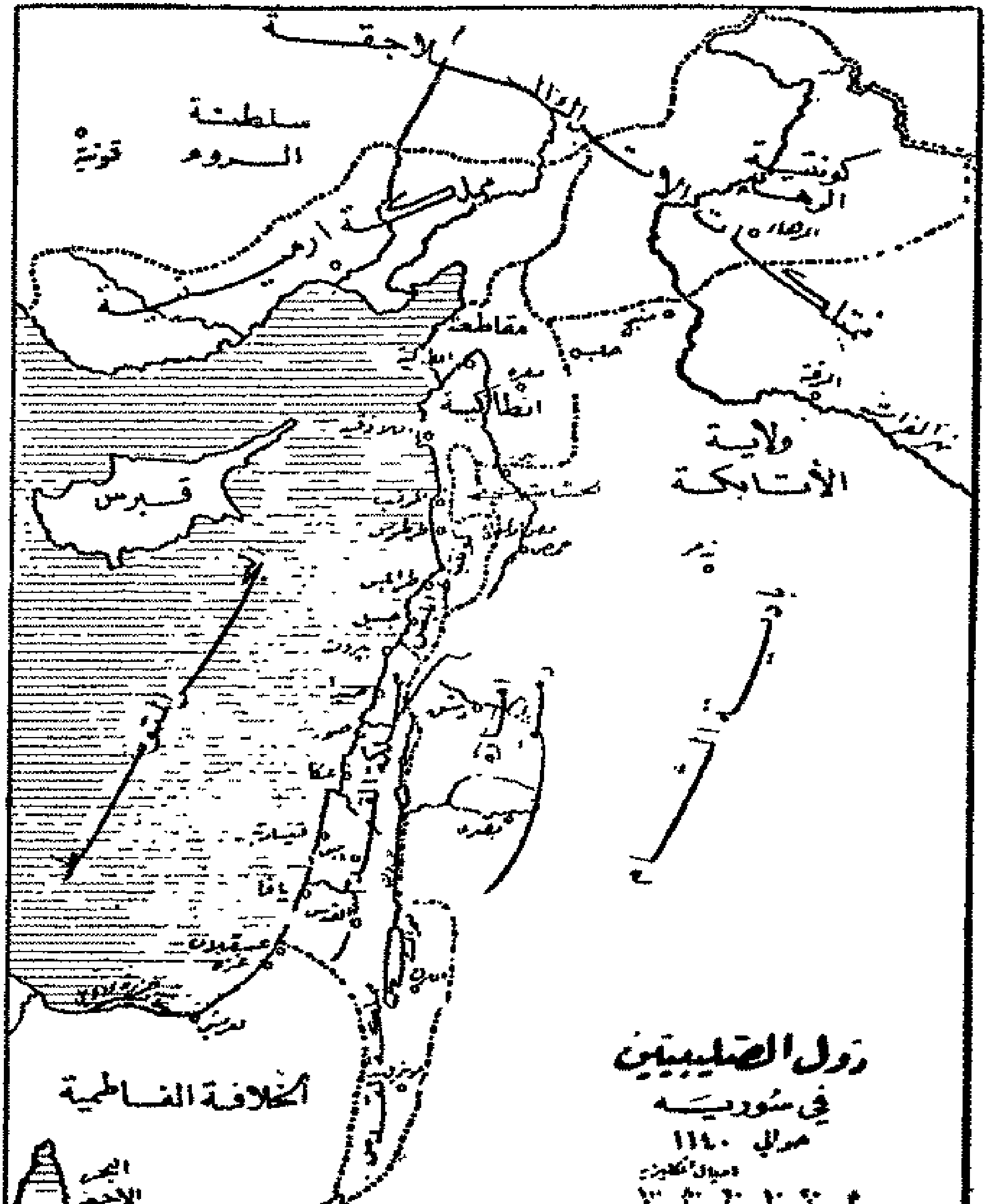
مزار كان يحج اليه الأوروبيون ، وكانت مفاتيحها قد أرسلت سنة ٨٠٠ الى شرلمان على سبيل البركة من بطريرك اورشليم . زد على ذلك الصعوبات التي كان يضعها السلاجقة المسلمون في سبيل الحجاج من النصارى أثناء مرورهم في آسيا الصغرى لزيارة بيت المقدس . أما الباعث المباشر على هذه الحروب فكان الاستنجاد الذي كرّره سنة ١٠٩٥ الامبراطور ألكسيوس كومنينوس الى البابا أربانوس الثاني عندما اكتسح السلاجقة أملاك الامبراطور الآسيوية حتى بحر مرمرا وأخذت جيوشهم تهدد القسطنطينية نفسها . ولعل البابا رأى في ذلك الاستنجاد فرصة سانحة لضم الكنيسة اليونانية الى كنيسة رومة . وكان الانشقاق التام النهائي في الكنيسة المسيحية قد حدث بين عامي ١٠٠٩ و١٠٥٤ .

وقد تكون الخطبة التي ألقاها البابا أربانوس في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ في كلارمونت من أعمال فرنسا الجنوبية الشرقية مستنهضاً بها همم المؤمنين « لسلوك الطرق المؤدية الى كنيسة القيامة وانتزاعها من أيدي القوم الاشرار والاستيلاء عليها » ، نقول قد تكون هذه الخطبة أشد خطب التاريخ أثراً . وللحال تنادى الفرنجة الى الحرب صارخين « انها ارادة الله » . فرددت بلادهم هذه الصرخة وتجاوبت أصداؤها في كل ناحية فلكت جوامع القلوب . وما جاء ربيع السنة اللاحقة حتى استجاب للدعوة الى السلاح نحو مائة وخمسين الف رجل أكثرهم من الافرنسيين (الذين كانوا يدعون فرنك Franks

أي فرنجة وهو الاسم الذي أطلِق بعدئذٍ على الغربيين جميعاً) والنورمنديين . واحتشد هذا الجيش في القسطنطينية وبذلك بدأت الحملة الصليبية الأولى . وانما وُسمت بهذا الوصف اشارة الى الصليب الذي حملهُ أعضاؤها علامةً على صدورهم .

وجديرٌ بالذكر انه ليس كل من اشترك في هذه الحملات كان مدفوعاً بالعاطفة الدينية . فعدّة من الزعماء ومنهم بوهيمند انما كان هدفهم الرئيسي افتتاح أراضٍ جديدة يرفعون عليها أعلامهم . أما تجار بيزا والبندقية وجنوى فكان رائدهم مصالح تجارية . فعوامل هذه الحروب كثيرة تشمل مطامح المغامرين وأهل الشقاوة وشذاذ الآفاق مع آمال الاتقياء وحنين المجرمين الى التكفير عن معاصيهم . والواقع ان اندفاع الجماهير في فرنسا واللورين وايطاليا وصقلية الى امتشاق الحسام لم يكن كله تضحية بل تفريجاً للازمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعانيها تلك البلدان .

أما تصنيف هذه الحملات الصليبية ، الى سبعٍ أو تسع ، على ما يذهب المؤرخون ، فبعيد عن المنطق ، غير وافٍ . ذلك أنّ مجرى هذه الحملات كان متواصلاً ، ومن الصعب فصل الحملة الواحدة عن الأخرى فصلاً واضحاً لا غموض فيه . ومن هنا كان الاصح تقسيم هذه الحروب الى أدوار ثلاثة : أولاً دور ظفر للافرنج وقد امتدّ حتى سنة ١١٤٤ . وثانياً دور رد فعل اسلاميّ انتهى بانتصارات صلاح الدين الباهرة . وثالثاً الحروب الأهلية والمعارك الصغرى التي انتهت سنة ١٢٩١


سلطنة
الروم
قونية
مملكة أرمينية
مقاطعة
أنطاكية
قبرص
ولاية
الأتابكة
عكا
يافا
عسقلان
الخلافة الفاطمية
البحر
الأحمر
دول الصليبيين
في سورية
حوالي ١١٤٠

عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم في بر الشام . واذن فدور الظفر انقضى برمّته قبل بداية ما هو معروف بالحملة الثانية (١١٤٧ ــ ١١٤٩) . وانتظم الدورُ الثالث في خلال القرن الثالث عشر . ومن حملات الدور الاخير واحدة على القسطنطينية (١٢٠٤ ــ ١٢٧٢) واثنتان فاشلتان على مصر (١٢١٨ ــ ١٢٢١) وواحدة على تونس (١٢٧٠) .

كانت طريق الحملة الصليبية الأولى بعد احتشادها في القسطنطينية عبرَ آسيا الصغرى ، وكان الظفر يرافقها . فاستردّ ألكسيوس ــ وكان قد أخذ من جميع زعماء الصليبيين يمين الطاعة الاقطاعي ــ النصفَ الغربي من شبه جزيرة الأناضول . وبذلك تأخرت غزوة الترك على أوروبا ثلاثة قرون ونصف قرن .

وسقط في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ طرسوس وانطاكية وحلب . وكان اكتشاف الصليبيين في كنيسة في انطاكية « للحربة المقدسة » ، التي طُعن بها جنب المُخلّص وهو على الصليب ، ملهباً لحماستهم . وكانت هذه المدن في ايدي السلاجقة . وفي ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ وقف جيش الفرنجة المؤلف من اربعين الفاً نصفهم من الجنود المدرّبة ، على ابواب بيت المقدس الذي لم تزد حاميته المصرية الفاطمية على الف رجل . وطاف الصليبيون اولاً حول المدينة حفاةً ينفخون بالابواق ، وكلهم رجاء ان تسقط اسوارها كما سقطت اسوار اريحا في ايدي العبرانيين ، الا ان الحصار الذي ضيّقوه عليها شهراً كان اشدّ اثراً وأنجع .

وفي الخامس عشر من تموز هاجم العدو المدينة وأعمل السيف في رجالها ونسائها وأطفالها دونما تمييز « حتى شوهدت أكوام الرؤوس والايدي والارجل في شوارع المدينة ومربعاتها » . حتى اذا سقطت أورشليم شعر كثيرون من الصليبيين ولفيف الحجاج ان نذورهم قد وفيت فأبحروا عائدين الى أوطانهم الاوروبية .

وأنشأ القواد بوهيمند Bohemoud وبولدوين Baldwin وغودفري Godfrey وتانكرد Tancred تحت زعامة ريموند ده تولوز Raymond ، وهو أعظم نبيل فرنسي ، إمارتين ومملكة لاتينية في سورية . أولها إمارة شمالي سورية وعاصمتها انطاكية ، وثانيها في فلسطين وعاصمتها اورشليم وهي التي أصبحت فيما بعد مملكة ، وثالثها في طرابلس على الشاطيء اللبناني . وقد جرى انشاء غيرها فيما بعد ذلك . غير ان هذه الدويلات لم تعمّر طويلاً لما قام فيها من منازعات وخصومات . وليس تاريخها في الواقع الا فصلاً من تاريخ أوروبا لا من تاريخ بلاد العرب . ولكن أهم ما يسترعي انتباهنا في هذه العجالة هو العلاقات الودية والسلمية التي قامت بين الغربيين وابناء البلاد الوطنيين .

جاء الفرنجة الى الأراضي المقدسة وهم يحسبون أنفسهم ارفع منزلة من أهلها ويعتبرونهم وثنيين يعبدون محمداً أيضاً . ولكنهم ما كادوا يحكمون الصلات بالمسلمين حتى سقطت الغشاوة عن عيونهم . أما الاثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد

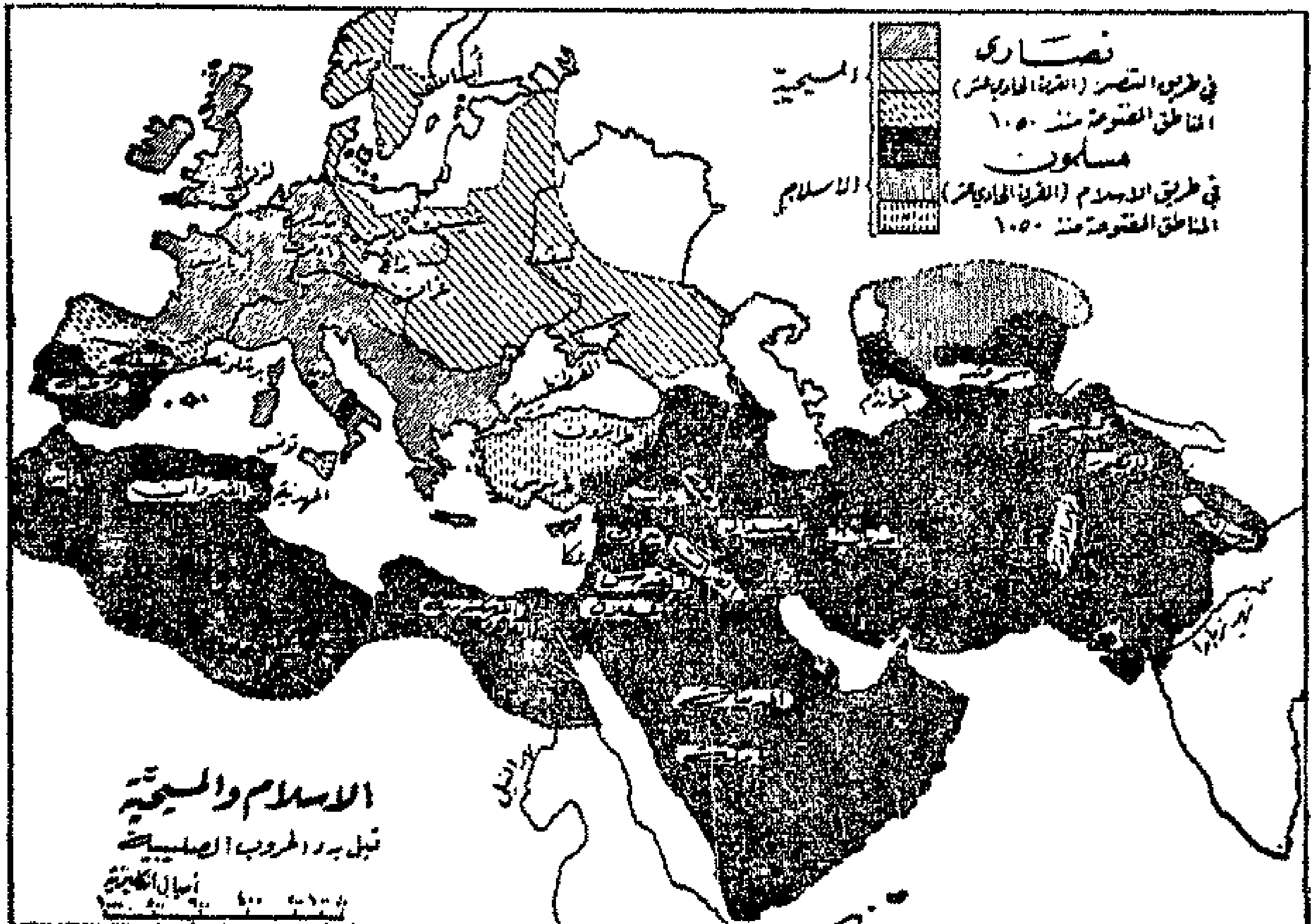
عبّر عنه المؤرخ العربي أسامة بقوله في « كتاب الاعتبار » انهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » . ولكن الاختلاط الذي لم يكن منه بدّ بين الجانبين في أيام السلم — وهي أطول من أيام الحرب كثيراً — أدى الى تطوّر الشعور بين الفريقين فأحكمت على أثر ذلك علاقات الصداقة وحسن الجوار . وصار الفرنجة يستأجرون صنّاعاً وفلاحين يأتمنونهم . وما لبث النظام الاقطاعي الذي أوجدوه أن تحول وأصبح على مرور الأيام ملائماً لأحوال البلاد . واتخذ الفرنجة لأنفسهم الخيول العربية والبزاة وكلاب الصيد وعقدوا اتفاقيات مع العرب لحماية الصيادين من الاعتداء . كذلك تحالف الفريقان على صيانة رجال السفر والتجارة فوضعوا لذلك قوانين جرى الفريقان على مراعاتها . وأقلع الفرنجة عن لباسهم الاوروبي واختاروا الازياء الوطنية التي كانت أدعى الى الراحة وأكثر ملائمة لطبيعة البلاد . واكتسبوا أذواقاً جديدة في الطعام فأحبّوا بخاصة الالوان التي يكثر فيها استعمال السكر والتوابل . وفضلوا سكنى البيوت الشرقية التي تتوسطها صحون مكشوفة واسعة فيها نوافير للمياه . وتزوج بعضهم بالوطنيات فنشأ من هذا المزاج جيل جديد متوسط بين الجنسين أشير الى افراده بلفظة « بولان » (Poulains) . وبلغ أخذهم بالعقائد المحلية درجة احترموا معها المزارات التي قدسها المسلمون واليهود . وكان اللاتين في بعض خصوماتهم المستمرة فيما بينهم يرحبون بمساعدة المسلمين الذين كانوا يحسبونهم قبلاً كفاراً . وكذلك فعل

المسلمون ، فكثيراً ما حالفوا الاقوام اللاتينية ضدّ اخوانهم المسلمين.

ولقد أحدث احتلال المسيحيين لسورية ومعظم القطر المصري ردّ فعل في العالم الاسلامي شرع به زنكي التركي سلطان الموصل وخلفه ابنه نور الدين سلطان دمشق ، وبلغ أشد درجاته في ايام الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف . وُلِدَ صلاح الدين في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ من أبوين كرديّين . ولا نعلم الا القليل عن طفوليّته ودراسته الأولى في سورية . والظاهر ان ميوله وهو فتىً اتجهت نحو الابحاث الدينية . ولم يشتهر اسمه في الناس حتى سنة ١١٦٤ اذ سار « على كره منه » على ما ذكر المؤرخ أبو شامة في صحبة عمّه شيركوه القائد اللامع في خدمة نور الدين في حملته الاولى لاكتساح مصر والقضاء على دولة الفواطم فيها . وكانت لصلاح الدين أمنيتان وقف حياته في سبيل تحقيقها . أولاهما انزال السنّة منزلة الشيعة في مصر ، والثانية مواصلة الجهاد ضدّ الفرنجة . وفي سنة ١١٦٩ أسندت اليه الوزارة في مصر على اثر وفاة عمّه شيركوه . وبعد عامَين من ذلك قضى على خلافة الفاطميين وأمر الخطباء بأن يقطعوا خطبة العاضد آخرهم ويخطبوا للخليفة العبّاسي المستضيء فامتثلوا لأمره .

ولتحقيق أمنيته الأخرى بدأ صلاح الدين حملاته على الفرنجة . ففي أول تموز من سنة ١١٨٧ احتل طبريّة بعد حصار دام ستة ايام . وعلى مقربة منها جرت معركة حطّين . بدأ

القتال يوم الجمعة الذي كان صلاح الدين كثيراً ما يختاره للجهاد فيكون يوم بؤس وشؤم على الفرنجة . وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين الفاً انهكهم العطش والحر فوقع جلهم في قبضة جيش صلاح الدين . وكان في مقدمة الأسرى الممتازين غي ده لوسينيان Guy de Lusignan ملك اورشلسيم . فأحسن السلطانُ صلاح الدين الكريم النفس استقباله . اما رفيقه الملك راجينالد ده شاتيون Reginald of Chatillon موقد نار الحرب فنال معاملة اخرى . ولعل راجينالد هذا كان اشد زعماء اللاتين مغامرةً وأكثرهم تعدّياً ونقضاً للعهود وأوفرهم الماماً باللغة العربية. وحين كانت الكرك في عهدته أوقع مراراً بالقوافل الآمنة يسلبها أمتعتها بينما كان أصحابها يجتازون الطريق خلف أسوار حصنه . كل هذه الأمور أتاهـــا خروجاً على شروط العهود والمحالفة . وبلغ منه الكيد للمسلمين ان جهّز اسطولاً أخذ يعيث في شواطىء الحجاز فساداً ويُنزل الأذى بمواكب الحجاج . وكان صلاح الدين قد أقسم اليمين ان يقتل بيده هذا الرجل الذي نكث العهود ولم يحترم شروط المدنة ، وها هي ذي الفرصة قد حانت للوفاء باليمين . فاحتال راجينالد للنجاة بأن شرب الماء في خيمة صلاح الدين وهو عارف بأن العادات العربية تحول دون ايقاع الأذى بمن شرب ماء القوم . واذ قد شرب الماء دون اذن من صلاح الدين فلم يحظ بأمانه بل جوزي على غدره بأن ضرب صلاح الدين عنقه وجمع ما عنده من فرسان الداويّة Templars والاسبتاريّة Hospitalers فـــأمر بهم


الاسلام والمسيحية
قبل بدء الحروب الصليبية
أميال انكليزية
نصارى
المسيحية
في طريق التنصر (القرن الحادي عشر)
المناطق المفتوحة منذ ١٠٥٠
مسلمون
الاسلام
في طريق الاسلام (القرن الحادي عشر)
المناطق المفتوحة منذ ١٠٥٠

فضُربت أعناقهم على مشهد من الناس .

وجاء الانتصار بحِطّين قضاءً مبرماً على الفرنجة . وبعد حصار اسبوع سلّمت اورشليم في ٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧ وقد تمزق شمل حاميتها في موقعة حِطّين . فصدح صوت المؤذن على المسجد الأقصى عوضاً عن ناقوس النصارى ، وأنزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من على قبة الصخرة .

وبسقوط عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصلاح الدين معظم المدن الافرنجية في سورية وفلسطين . وبعد سلسلة حملات باهرة سقطت أغلب القلاع وكادت هزائم الفرنجة تؤدي الى جلائهم التام عن البلاد.ولم يبق في حوزتهم الا أنطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة والقلاع .

ولقد استثار سقوط المدينة المقدسة حماسة أوروبا فنسي حكامها خصوماتهم القديمة ونشط فردرك بربروسا Barbarossa امبراطور المانيا ورتشرد قلب الاسد Richard Coeur de Lion ملك انكلترا وفيليب اوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا الى حمل الصليب . وعلى اكتاف هؤلاء الثلاثة وهم أعاظم ملوك أوروبا آنئذ نهضت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ – ١١٩٢) وهي أكبر الحملات عدداً . ولقد أمدت هذه الحملة التي لمعت فيها شخصية صلاح الدين وقلب الاسد الاساطيرَ والروايات الشرقية والغربية بأمتع الزاد .

وكان أول من شرع بالسير الى الحرب فردرك الذي سلك

طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيلكيلية فارتد معظم افراد جيشه الى مواطنهم . اما رتشرد فعرج في طريقه على قبرس فاحتلها . وقد قدّر لهذه الجزيرة أن تصبح فيما بعد آخر ملجأ للصليبيين المنهزمين من البلاد السورية .

وأيقن اللاتين في البلاد المقدسة ان عكا هي الآن المفتاح الذي يمكنهم به استعادة ما خسروه من ممتلكاتهم . فقاموا عليها بجميع قواتهم مع من تبقى من جيش فردرك وكتائب ملك فرنسا . وتزعم الهجوم الملك غي Guy الذي كان صلاح الدين قد اطلق سراحه قبلاً آخذاً عليه العهد بألا يعود لقتال المسلمين ، فلم يف به . ووصل صلاح الدين في اليوم التالي لينقذ المدينة . فنصب معسكره قبالة العدو . ونشب القتال براً وبحراً . واحتفى الفرنجة بمقدم رتشرد فتهللوا واشعلوا نيران البشرى ، وفي اثناء الحصار جرت عدة حوادث نادرة الوقوع دوّنها مؤرخو العرب واللاتين المعاصرون . منها تبادل صلاح الدين وقلب الاسد الهدايا دلالةً على إعجاب الواحد منهما بالآخر . ولكنهما لم يجتمعا قط وكان رتشرد يكافيء بسخاء كل من زحزح حجراً من اسوار المدينة فحفّز ذلك المحاربين والنساء على الاتيان بأعمال باهرة من البطولة . ودام هذا الحصار الذي يُعدّ من الاعمال الحربية الباهرة في القرون الوسطى سنتين (٢٧ آب سنة ١١٨٩ — ١٢ تموز سنة ١١٩١) . ولقد ساعد الفرنجةَ تفوّقُ اسطولهم ومدافعهم الحديثة . اما المسلمون فانحصرت أفضليتهم في توحيد القيادة في شخص واحد . واخيراً اضطرت

حامية عكا الى التسليم .

وكانت أهم شروط الصلح تسريح الحامية مقابل مائتي ألف دينار وارجاع المسلمين للصليب المقدس . واذ لم يدفع المال بعد شهر أمر رتشرد باعدام الاسرى البالغ عددهم زهاء الفين وسبعمائة . وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس . فصلاح الدين ايضاً كان قد اشترط ان يفتدي الفرنجة أنفسهم بالمال ولكن عدداً من الفقراء يبلغ الثلاثة الآلاف عجز عن تأدية الفدية المفروضة ، فأخلى صلاح الدين سبيل الف منهم نزولاً عند رغبة اخيه وأطلق سراح فريق آخر منهم اجابة لتوسط البطريرك . ولما رأى صلاح الدين ان اخاه والبطريرك قد اديّا الزكاة بهذه الحسنة شعر ان عليه ان يقوم بقسطه من هذا الواجب فأطلق سراح الباقين وبينهم عدد من النساء والاطفال .

واحتلت عكا بعد سقوط اورشليم مرتبة الزعامة . وبقيت مفاوضات الصلح جارية بين الفريقين المتحاربين دون انقطاع . ولما كان رتشرد كثير الافكار الخيالية فقد اقترح زواج اخته بالملك العادل أخي صلاح الدين على أن تعطى اورشليم هدية للزوجين فينتهي بذلك العداء المستحكم بين النصارى والمسلمين . وفي أحد الشعانين (٢٩ ايار سنة ١١٩٢) انعم برتبة الفروسية على الملك الكامل ابن العادل في حفلة شائقة . وأخيراً عقد الصلح في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ على ان يكون الساحل للاتين والداخل للمسلمين وألا يتعرض أحد للحجاج الوافدين على

بيت المقدس . ولكن صلاح الدين لم يُكتَب له إلا أشهر قليلة يقتطف فيها ثمرات الصلح . ففي ١٣ شباط من السنة اللاحقة أصابته حمى في دمشق فمات بعد اثني عشر يوماً وهو في الخامسة والخمسين من عمره . ولا يزال قبرهُ في العاصمة السورية ، ملاصقاً للجامع الأموي ، قبلةَ الزائرين .

لم يكن صلاح الدين بطلاً وحامياً للسُنّة فقط بل كان منشطاً للعلم والعلماء مشجعاً للدراسات الدينية ومصلحاً اجتماعياً واقتصادياً . فلقد انشأ المدارس والمساجد وابتنى السدود واحتفر الاقنية . ومن آثاره الباقية قلعة الجبل في القاهرة التي أخذ في تشييدها مع أسوار المدينة في سنة ١١٨٣ فاستخدم فيها حجارة من الاهرام الصغرى . وصلاح الدين عند العرب في مصافّ هرون الرشيد وبيبرس وفي مقدمة من تهواهم مخيلات الشعب عامته وخاصته الى يومنا هذا . أما في اوروبا فلقد أطنب في ذكراه المنشدون في العصور الوسطى وحاكاهم في ذلك الروائيون العصريون . وهو لا يزال يُعتبر حتى اليوم مثالَ الفروسية الكاملة .

واستمرت المناوشات الحربية بين الفريقين بعد هذا الدور مدة قاربت القرن لم يستطع خلالها اللاتين أمراً سوى المحافظة على مراكزهم . ولولا حوادث الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها لويس التاسع لما كان في هذه الدولة ما يستحق الذكر .

وقد احتل هذا الملك المعروف في التاريخ بالقديس لويس مدينة دمياط في مصر سنة ١٢٤٩ . حتى اذا زحف بجيشه على

القاهرة قاطعاً أرضاً تكثر فيها المستنقعات وتعترضها الاقنية ، وكان النيل في أعلى ارتفاعه ، تفشى الوباء في الجيش وانقطعت عنه الامداد فهلك وأسر الملك لويس ومعظم نبلائه . وبعد شهر أطلق سراحهم مقابل ما دفعه من جزية وما رضيَ به من تسليم دمياط . وقد قاد لويس هذا في سنة ١٢٧٠ حملة صليبية أخرى خاسرة على تونس ، حيث مات . ويمتاز لويس من سائر الزعماء الصليبيين بطهارة سيرته ونبل أخلاقه . قال فيه مؤرخه « إن حياته كلها كانت عبارة عن صلاة ، وكان قصده الاسنى العمل بمشيئة الله » .

وجاءت دولة المماليك ، فكان رابع امرائها الملك الظاهر بَيْبَرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) أولَ السلاطين الذين أنزلوا بالصليبيين الضربات الأخيرة القاصية . ففي سنة ١٢٦٣ احتلَّ الكرك وهدم كنيسة الناصرة . ولم تقوَ قَيْسَارية ويافا وأنطاكية على الوقوف في وجه هجماته العنيفة ، فاضطُرت إلى التسليم . وفي سنة ١٢٦٨ أعدم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها ستة عشر الفاً وسبى من رجالها ونسائها وأطفالها نحوَ مائة الف فباعهم في الاسواق ، فكان ثمن الطفل يومئذ اثني عشر درهماً وثمن الطفلة خمسة دراهم . ولما جرى تقسيم الغنائم كانت الأموال تكال كيلاً . ولم تستطع أنطاكية النهوض بعد هذه الكارثة الى يومنا الحاضر . وفي سنة ١٢٧١ انتزع بيبرس حصن الاكراد من أيدي الفرسان. أما المَرقَب بجوار طرطوس فانتزعه سنه ١٢٨٥ خليفتُه قلاوون الذي استولى على طرابلس بعد ذلك

بأربعة أعوام .

وهكذا لم يبقَ من مراكز الفرنجة الهامّة إلا عكا . ولقد جرى حصارها في عهد الملك الاشرف خليفة قلاوون . وبعد قتال دام شهراً واستخدام اثنين وتسعين منجنيقاً فتحها المسلمون في ايار سنة ١٢٩١ واعملوا السيف في رقاب حاميتها من الفرسان الداويّة فأبادوهم جميعاً . وبهذا سقط آخر حصن منيع للاتين في الشرق . وفي السنة نفسها استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت وطرطوس . وكذلك اسدل الحجاب على اروع الفصول الحربية في تاريخ سورية المتوسّط .

والحق انّ الحروب الصليبية جاءت غنيّةً بالحوادث الباهرة والوقائع النادرة فقيرةً بالأثر التاريخي الذي بولغ فيه ، لا سيا في الغرب . وهو اثرٌ محصور في الفن والصناعة والتجارة دون العلم والادب . اما في سورية فقد تركت هذه الحروب معالم الدمار والخراب . ومما ورثه الشرق الأدنى عن تلك الحروب ذكريات التعصب الديني والنفور بين المسلمين والنصارى .

كانت الثقافة الاسلامية في الشرق عَهْدَ الصليبيين منحطةً متداعية . وكان نور أعلامها في الفلسفة والطب والموسيقى وسواها من العلوم والفنون يخبو وينطفيء . ومن هنا كانت سورية التي تمركزت العلاقات فيها بين الاسلام والنصرانية الغربية طيلةَ القرن الثاني عشر والثالث عشر أقلّ أهمية من اسبانيا او شمال افريقيا ، بل اقلّ اهمية من الامبراطورية البيزنطية

من حيثُ نقل المؤثرات العربيّة الى الغرب . ومع ان الاسلام أثّرَ في النصرانية الاوروبية عن طريق الاتصالات التجـــارية وعن طريق الاصطدام المباشر بالصليبيين وما احدثهُ هذا الاصطدام من تجاوب في الغرب فان آثاره الروحيّة والفكرية لم تكن ملحوظة . ومن جهة اخرى فان علينا ان نذكر ان الفرنجة في سوريّة ، فضلاً عن كون ثقافتهم دون ثقافة اعدائهم ، كانوا في الغالب جماعات عسكريّة أجنبية تنزل في القلاع والثكنات وتقتصر صلاتها على عامّة الناس من فلاحين وصنّاع ، دون الطبقة الراقية المفكّرة . زد على ذلك ان التحزّبات القومية والتعصّبات الدينية والعداوات المتأصلة حالت دون تبادل الافكار والثقافات . ولم يكن عند الفرنجـــة من العلم والفلسفة ما يلقّنونه ابناءَ البلاد . اما المقابلة بين الطبّ عند القومَين فتمثّلها النوادر الطريفة التي رواها أسامة الذي هزىء أيضاً من طرق الفرنجة القضائية إذ اعتمدوا في محاكماتهم على المبارزة والرمي في الماء .

ومنذ القرن الثاني عشر بدأت تنشأ في جميع انحاء اوروبا دور المعالجة والبيمارستانات وأهمها تلك التي تعنى بالبرص . وهذا يبرر لنا الافتراض ان طريقة التداوي المنظم استمدت حافزها من الشرق الاسلامي . والى الشرق ايضاً يعود الفضل في ارجاع الحمامات العمومية الى اوروبا . وكانت رائجة في عهد الرومان الا ان المسيحية لم تحبذها .

اما في الآداب فلقد كان الاثر اوسع مدى . ففي الاساطير

المنسوجة حول قصة الكأس المقدسة التي استعملهـا المسيح في العشاء الأخير عناصر لا ريب في انها سورية الأصل . وليس من شك في ان الصليبيين سمعوا قصص «كليلة ودمنة» و «الف ليلة وليلة» فحملوها الى أوطانهم ، وفي حكايات الشاعر الانكليزي تشوسر Chaucer قصة من «الف ليلة وليلة» . ومن المصـادر السماعية استمد بوكاتشيو Boccaccio الايطالي حكايات شرقية أدخلها في كتابه «ديكامرون» Decameron ويمكننا أن ننسب الى الصليبيين الفضل في إقبال الارساليات التبشيرية الأوروبية على دراسة اللغة العربية وسواها من اللغات الاسلامية .

أما في ميدان الحرب فكان من الطبيعي ان يكون التأثير أكثر ظهوراً . فاستعمال القوس القـذّاف والدروع يلبسها الفرسان والخيل واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع كلها من أصل صليبي . وفي سورية ادخل الفرنجة في جوقاتهم الموسيقية العسكرية الطنبور والطبل ولم يكونوا يستعملون قبلُ إلا البوق والنفير . وتعلموا من أهل البلاد استعمال حمام الزاجل لحمل المعلومات الحربية ونقلوا عنهم عـادة الاحتفال بالظفر باشعال الانوار واجراء سباقات الخيل ولعب الجريد . والمقرر ان جانباً كبيراً من مبادىء الفروسية نشأ في سهول سورية . أما سعة انتشار علامات النسب على الاسلحة وشارات الفرسان فنـاتجة عن الاحتكاك بالفرسان المسلمين .

وقد انعشت هذه الحروب أيضاً فن الحصار وحسّنته فسهل

أمر الهدم واللغم واستخدام المجـانيق والكبوش[1] والمواد القابلة للاشتعال والقذائف . والظاهر ان البارود جرى اختراعه في سورية أو أوروبا اللاتينية ، والرأي الأخير أرجح ، وذلك حوالى آخر هذه الحقبة . أما ادعاء الصليبيين انهم اخترعوه فلا تؤيده البيّنات . ولكن الاستعانة بقوة البارود لرمي القذائف أي اختراع الاسلحة الناريـة — وهي خطوة أشد خطورة — فأمر لم يحدث قبل الربع الثاني من القرن الرابع عشر . ونحن نجد أول وصفة أوروبية لتركيب البارود في ذيــل كتاب وضعه في اللاتينية نحو سنة ١٣٠٠ رجل اسمه مارك اليوناني .

أما في الزراعة والصناعة والتجارة فانتهى الصليبيون الى نتائج أعظم من تلك التي انتهوا اليها في العلوم . والى هذا يرجع انتشار نباتات جديدة في بلدان البحر المتوسط الغربية مثل السمسم والخروب والدُخن[2] والارز والليمون والبطيـخ والمشمش وبصل عسقلان . ولهذه النباتات اسماء أوروبية محرّفة عن لغات شرقية . أما المشمش فكان الغربيون يسمونه « خوخ الشام » .

واكتسب الفرنجة إبان إقامتهم في بلاد الشرق أذواقاً جديدة وبخاصة ما يتعلق منها بالروائح العطرية والتوابل والحلويـات وسواها من محصولات المناطق الحارة التي تمتاز بها بلاد العرب والهند والتي كانت أسواق سورية زاخرة بها . ثم ان هـذه

---

١ — جمع كبش (بفتح الكاف) آلة من آلات الحرب كانت تقذف على جدران الحصون .

٢ — الدخن (بالضم) حب صغير املس جداً كحب السمسم .

الاسواق الجديدة أدت بعد الى انعاش التجارة في المدن الايطالية وسواحل البحر المتوسط . فاشتهرت أنواع البخور وسواها من صموغ الجزيرة العربية الزكية الرائحة وماء الورد الدمشقي والروائح العطرية التي امتازت بها دمشق وغيرها من الزيوت والعطور الفواحة المشتهرة بها فارس . ومن العقاقير الجديدة التي تعرفوا اليها حجر الشب والند . ثم انواع كبش القرنفل والتوابل الزكية والفلفل والبهارات وغيرها ، كل هذه درج استعمالها في الغرب خلال القرن الثاني عشر . ومن ذلك الوقت الى اليوم وأنواع الطعام لا تستقيم على مائدة دون ان يدخل بعضها التوابل . وفي عصر عرف الصليبيون الزنجبيل وأخذوا يضيفونه الى الوان طعامهم . وأهم من ذلك كله السكر ، فقد كان الاوروبيون لا يعرفونه من قبلُ وكانوا يستخدمون العسل لتحلية اطعمتهم . فعلى ساحلي سورية ولبنان ، حيث ترى الأولاد الى هذا اليوم يمصون قصب السكر ، عرف الاوروبيون هذا النبات الذي اخذ منذ ذلك الحين يلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية وفي تركيب الصفات الطبية . وكان السكر اول اللذائذ الفاخرة التي أدخلت الى الغرب ولم يبلغ درجتها طعام آخر مما استطابته الأفواه الغربية . ومع السكر دخلت الأشربة غير الكحولية والماء الذي تُخلط فيه بواسطة التقطير خصائص الورد والبنفسج وسواهما من الزهور . وكذلك دخلت شتى أنواع الحلويات . اما الاقمشة الموصلية والدمشقية والاطلسية وسواها فقد ولجت اوروبا من الشرق العربي كما تدل اسماؤها في

اللغات الاوروبية محرّفة عن العربية .

وكان لظهور الاسواق الجديدة في اوروبا لمنتجات الزراعة والصناعة الشرقية كما كان لحركة النقل التي قضت بها ضرورة حمل الحجاج والصليبيين ذهاباً واياباً اثرٌ ادى الى توسيع نطاق الحركة البحرية والتجارية العالمية الى درجة لم تكن معروفة منذ ايام الرومان . فأخذت مرسيليا تزاحم الجمهوريات المستقلة من مدن ايطاليا ، وأصبحت مركزاً لشحن البضائع تقاسم جنوى وبيزا والبندقية الثروة الناجمة عن ذلك . وتطلّب هذا الموقف الجديد كميات اكبر من النقد فجرى سكها وزاد تداولها. وتولد عن ذلك ابتداع الحوالات المالية واستعمالها فظهرت شركات الصيارفة في جنوى وبيزا مع فروع لها في الشرق . وصارت الفرسان الداويّة تستعمل كتب التفويض المالية وتستلم الاموال كودائع لأصحابها وتسلف الاموال بالفائدة . وكانت البوصلة (ابرة الملاّحين) من اهم الاختراعات ذات العلاقة بهذه الحركة الصليبية البحرية . والراجح ان الصينيين هم أول من اكتشف ما للابرة المغنطيسية من طبيعة الاتجاه الى ناحية معينة . ولكن المسلمين الذين كان لهم في عصر باكر تجارة نشيطة ما بين الخليج الفارسي وبحسار الشرق الأقصى كانوا أول من اخرج هذا الاكتشاف الى حيز العمل اذ استخدموا الأبرة في الملاحة . وعن طريقهم تعرف الغرب الى هذا الاكتشاف .

في خلال هذه الحقبة كانت الامبراطورية العربية في تقلص دائم وكان العقل الاسلامي يزداد تصلباً . أما الأوروبي فكان

يفتح عينيه على آفاق جديدة ويستمدّ نشاطاً مما يراهُ امامه من عالم راقٍ متسع الارجاء . ولكن قبل ان ُقضي على هـــذه الامبراطورية العربية بكاملها قامت دولة جديدة تحاول انعاشها ، أعني دولة المماليك السورية المصرية التي سنتكلم عنها في الفصل التالي .

دولة المماليك

دولة المماليك هي آخر دول العالم العربي في العصور الوسطى وأشدها غرابة . وقد عقبت الدولة الأيوبية (١١٧١ — ١٢٥٠) المنسوبة الى صلاح الدين وتألفت من اسرتين : البحرية او التركية (١٢٥٠—١٣٨٢) ، والبرجية او الجركسية (١٣٨٢ — ١٥١٧). ومن الصعب على دارس التاريخ ان يتصور في غير الاسلام امكانية نشوء دولة كدولة المماليك وبلوغها ما بلغته من عزّ وفلاح. فالمماليك كانوا كما يدلّ اسمهم أرقاء من مختلف الاجناس والعناصر شكلوا حكومات عسكرية في بلادٍ هم فيها غرباء . فقيامهم كان نتيجة طبيعية لفساد الحياة الاجتماعية العربية خلال قرون عدة وهذه الدولة ميزة ثانية ناتجة عما حققته بنفسها من الاعمال الباهرة . ومن هنا كان هؤلاء السلاطين المماليك يستحقون صفحة ضافية في آخر فصل من تاريخ

الامبراطورية العربية .

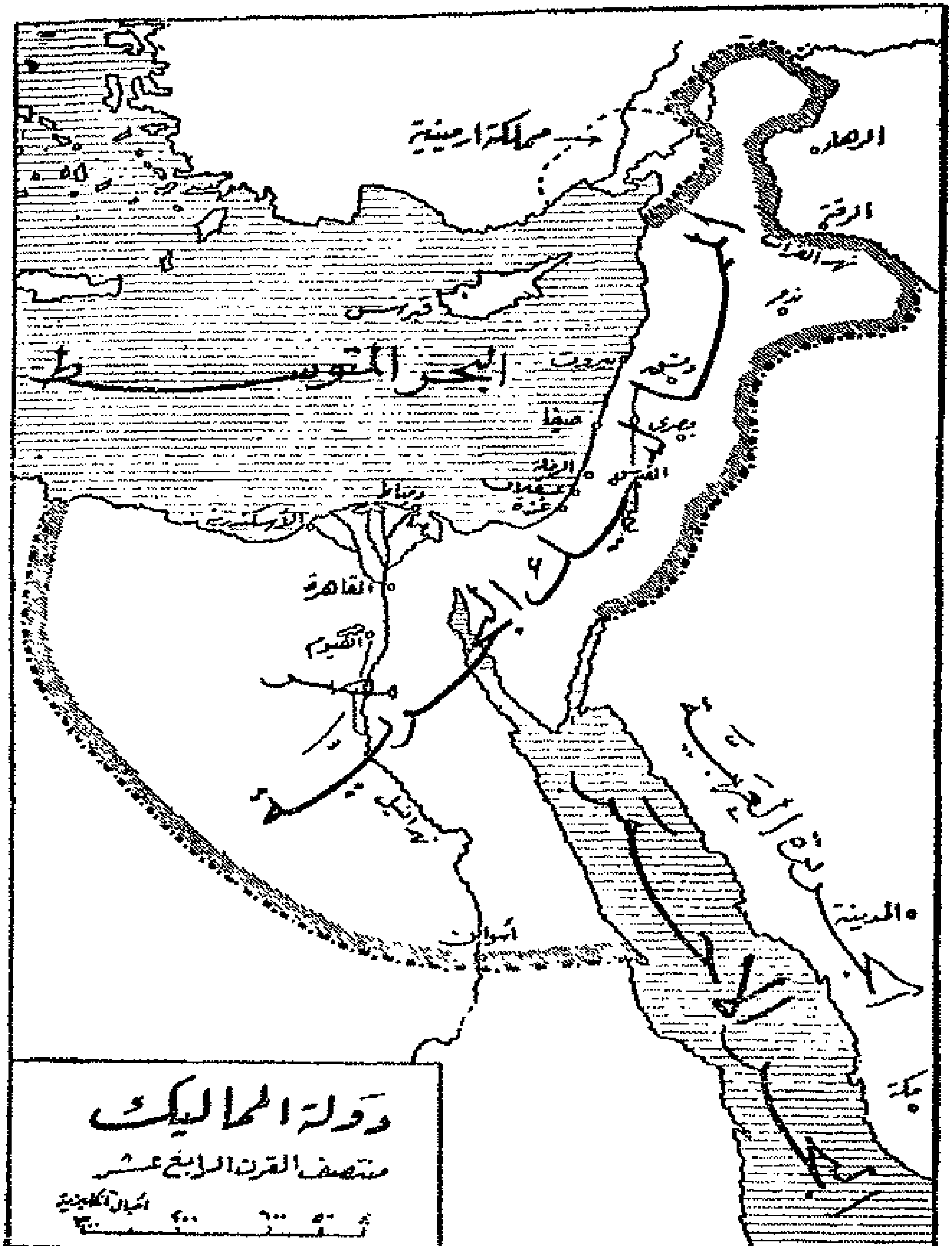
أفلح السلاطين المماليك في إجلاء بقايا الصليبين عن مملكتهم السورية المصرية. وقاموا عقبةً أبدية في وجه جيوش هولاكو وتيمور المرعبة التي كانت خليقةً ، لولاهم، بأن تغيّر مجرى التاريخ والثقافة في آسيا الغربية ومصر . وبذلك حالوا دون تعرّض مصر للدمار الذي نزل بسورية والعراق . فنعمت البلاد بثقافة متواصلة وأنظمة سياسية مستمرة لم تتوفر لأي بلاد إسلامية أخرى خارج الجزيرة العربية . فطوالَ مدة قاربت القرنين وثلاثة أرباع القرن (١٢٥٠ – ١٥١٧) سيطر المماليك على بقعة من أشد بقاع الارض اضطراباً محافظين أبداً على ميزاتهم الجنسيّة الخاصة . ومع انهم كانوا على وجه العموم عديمي الثقافة سفّاكي دماء فان عنايتهم بالفن والعمارة تضاهي عناية أهم دولة متمدنة بحيث صارت القاهرة من أجمل المدن في العالم الاسلاميّ . وأخيرا قام السلطان سليم العثماني فغلبهم على أمرهم في سنة ١٥١٧ . وبذلك زالت آخر الدويلات التي نشأت على أنقاض الخلافة العربية وتوفّرت الاسباب لقيام خلافة جديدة غير عربية هي خلافة الترك العثمانيين .

وليس من شك في ان أعظم سلاطين دولة المماليك ومؤسسها الحقيقي هو رابعهم الملك الظاهر ركن الدين بَيْبَرس (١٢٦٠– ١٢٧٧) وهو في الاصل رقيق تركمانيّ . وكان بَيْبَرس رجلاً طويل القامة أسمر اللون جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً يمتاز بصفات الزعامة . نشأ في حضن الدولة الأيوبية

التي اتبّعت خطة خلفاء بغداد في إدخال الارقاء الاجانب في الحرس والجيش . فما عتّم هؤلاء الاجانب والارقّاء الذين فاقوا سادتهم في المقدرة والاقدام أن أصبحوا كما كان زملاؤهم من قبل في بغداد – امراءَ الجيش ومن ثم سلاطين الامّة . ومن هولاء بَيْبَرس الذي انتدبهُ السلطان الصالح الأيوبي أولاً لقيادة فصيلة من حرسه الخاص ولم يلبث ان ترقى بالعنف والبطش واهراق الدم الى أعلى منصب في البلاد . ولم تكن السلطة في دولة المماليك وراثية بل كانت من حق الاقوى . وقد ظل الاقوياء فيها لعدة قرون من الارقاء أصلاً ومن ذرية الارقّاء .

فاز بَيْبَرس في بدء أمره بإكليل الظفر يوم انتصاره على جيش هولاكو في عين جالوت (فلسطين) عام ١٢٦٠ . على ان شهرته تقوم في الاكثر على الحملات العديدة التي جرّدها على الصليبيين ، تلك الحملات التي قصمت كما أشرنا ظهر المقاومة الفرنجية . وفي اثناء ذلك قام قوادُهُ بنشر سلطانه غرباً على البربر وجنوباً على النوبة التي استقرّ فيها الآن حكم السلطان المصري .

ولم يكن بَيْبَرس رجل حرب فقط ، ولم تنحصر مآتيه في تنظيم الجيش وتعمير الاسطول وتحصين قلاع سورية بل تجاوزتها الى احتفار الاقنية وتحسين الموانىء وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة بريد سريع يصل ما بين المدينتين في اربعة أيام . وكانت بدائل الخيل تقف على أهبة الجري في كل


مملكة أرمينية
الرها
الرقة
نهر الفرات
قبرس
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
صيدا
طبرية
القدس
عسقلان
غزة
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
الفيوم
نهر النيل
أسوان
المدينة
مكة
دولة المماليك
منتصف القرن الرابع عشر
أميال إنكليزية

محطة للبريد حتى لقد كان في مكنة السلطان ان يلعب الصولجان في كلتا العاصمتين خلال مدة لا تزيد على اسبوع واحد . وفيما سوى البريد العادي فقد اتقن المماليك فن استخـــدام حمام الزاجل الذي كان منذ ايام الفاطميين يربّى وتحفظ انسابه في سجلات خاصة . وكان بَيْبَرس ينشط الاشغال العامة ويجمّل الجوامع ويقيم المؤسسات الدينية والخيرية. ومن العمارات الشهيرة الباقية التي شيّدها الجامع الكبير والمدرسة التي تحمل اسمه . اما الجامع فقد جعله نابليون فيما بعد قلعة ثم اصبح مستودع ارزاق لجيش الاحتلال البريطاني ، وهو اول سلطان بمصر عيّن اربعة قضاة يمثلون مذاهب السنّة الأربعة ووضع للمحمل المصري نظاماً دائماً . فلزومه جانب السنّة وغيرته الدينية والمجد الذي اكسبه إياه الجهاد ، كل هذه جعلت له شهرة تضاهي شهرة هرون الرشيد في نظر المسلمين . وفي التاريخ الخرافي يتألق اسمه فوق اسم صلاح الدين و « سيرة بَيْبَرس » كـ « سيرة عنتر » ولا يزال الاقبال عليها في البلاد العربية اشدّ من الاقبال على « الف ليلة وليلة » الى اليوم .

ومن مميزات عهد بَيْبَرس المحالفات العديدة التي عقدها مع ملوك المُغُول وملوك اوروبا . وبينهـــا محالفة عقدها بعد تقلده السلطة مـــع زعيم خانات المُغول في قبشاق من وادي الفولغا . وكذلك امضى اتفاقات تجارية مع تشارلس ده آنجو Charles of Anjou ملك صِقِلّية شقيق لويس

التاسع ومع جايمس ملك اراغون والفونسو ملك إشبيلية .

ولعل أروع الحوادث في ملك بَيْبَرس اقدامهُ على تجديد الخلافة العبّاسية واحيائها ، وذلك بالاسم فقط . وكان جل قصده من ذلك جعل سلطنته شرعية ، واكساب بلاطه رفعة في نظر سائر الاقطار الاسلامية ، وقمع فتن الشيعة التي كان يتطاير شررها في مصر خصوصاً منذ أيام الفاطميين . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة ١٢٦١ عم المستعصم آخر خلفاء بغداد العباسيين . وكان قد نجا من مذبحة بغداد . فبايع له بيبرس والناس على طبقاتهم . وكتب بيبرس إلى النواحي بأخذ البيعة للخليفة وبالخطبة باسمه على المنابر وبنقش اسمه في السكة . واتخذ الخليفة لقب المستنصر وكان قدومه الديارَ المصرية من سوريا صحبة جماعة من امراء العرب . فخرج السلطان للقائه ومعه الوزير والاعيان والعلماء والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم . فكان يوماً مشهوداً . وأثبت نسب الخليفة وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة أمام قاضي القضاة ومجلس العلماء . ثم جاء دور السلطان فألبسه الخليفةُ بيده شارات السلطنة وفوّض اليه الامور في البلاد الاسلامية وقلّده الحكم على مصر وسورية وديار بكر والحجاز واليمن والعراق . وبعد ثلاثة أشهر توجه بيبرس من القاهرة ومعه الخليفة ، طامعاً في اعادة بغداد الى املاك الخلافة . ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودّعه فيها وعاد الى مصر . وقبل ان يصل المستنصر الى بغداد أغار عليه حاكم المغول ببغداد

في الصحراء ، فكان ذلك آخر العهد به .

وتعاقب ابناؤه على الخلافة مدة قرنين ونصف وليس لهم منها الا الاسم قانعين بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم من منابر مصر وسورية . ولما انتزع السلطان سليم العثماني مصر سنة ١٥١٧ من ايدي المماليك نقل معه الى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخر هذه الأسرة .

وهكذا استهل المماليك عهدهم بمصر بزعامة سلاطين ظافرين فخورين فازوا باستئصال آخر السلطة الفرنجية في سورية وتمكنوا من الحيلولة بين المغول وتدويخ العالم . وما وافت نهاية هذا العهد الذي سادت فيه حكومة خاصة عسكرية حتى تسربت الحزبيات بين الجماعات المتنفذة وزيفت النقود وثقلت الضرائب وفقد الامن على الحياة والممتلكات ، وتعاقب الطاعون والاوبئة والمجاعات والثورات فكاد الخراب يعم مصر وسورية الملحقة بها . وفي وادي النيل خصوصاً راجت سوق الخرافات القديمة البالية وضروب السحر وتحالفت مع العقائد الدينية الرجعية والمحافظة فلم تترك للتقدم العلمي مجالاً . وفي احوال كهذه لم يكن من الممكن نشوء حركة فكرية راقية. والواقع ان مطلع القرن الثالث عشر شهد جميع انحاء العالم العربي تفقد سيادتها العلمية التي كانت تتمتع بها منذ القرن الثامن . فأصبح العياء العقلي الذي سببته اجيال الجهاد ، والاسترخاء الاخلاقي الناجم عن تراكم الثروة والسلطة باديين في كل مكان .

وبعد منتصف القرن الثالث عشر لم يبقَ للعرب من مكانة في العلم الا في فرعين : الفلك ــ الرياضيات (وفي جملتها علم حساب المثلثات) والطب ، وبخاصة طب العيون . ومن ألمع اطباء هذه الحقبة ابن النفيس الذي درس في دمشق حيث توفي سنة ١٢٨٩ ، وقد كان رئيس الطبابة في مستشفى القاهرة . وعلى الرغم من ان اكتشاف الدورة الدموية منسوب الى سيرفيتس Servetue البرتغالي فان ابن النفيس سبقهُ الى هذا بثلاثة قرون . وكانت هذه الحقبة خصبة بوجه خاص في انتاجها ذلك النوع من المؤلفات الغرامية الذي نسميه اليوم بـ « الأدب الجنسي » . على ان الادب العربي كان في مراحله جميعاً طافحاً بالقصة والفكاهة والنكته التي نحسبها في عصرنا الحاضر من النوع البذيء .

بيد ان اغرب المحاسن التي تحلّى بها عصر المماليك ، على ما كان فيه من شأن عظيم للحروب والاهوال ، الانتاجُ الباهر في العمارة والفنّ على اسلوب لا مثيل له في تاريخ مصر منذ أيام البطالسة والفراعنة . وتعود مبادىء « مدرسة » المماليك في العمارة الى مؤثرات سورية ــ عراقية اتصلت بها عندما أصبحت مصر في القرن الثالث عشر مأوى الفنانين والصناع المسلمين اللاجئين اليها من الموصل وبغداد ودمشق قبل الغزوات المغولية. وبانتهاء الحروب الصليبية انفتحت مرةً أخرى طريق الحصول على حجارة البناء من مقالعها في الشمال واستعيض بها عن الآجرّ في عمارة المآذن . وأتقن البناؤون تشييد الجوامع والمدارس

ذوات الشكل المصلّب وظهرت القبة في هيئة تزري بالأشكال المناظرة لها من حيث الخفّة والظرافة وأناقة الزخرفة . أما العمارات ذوات الخطوط الملونة كالقصر الابلق للملك الفاخر المتوفى سنة ١٣٤٠ فناشئة عن استعمال حجارة ذات الوان مختلفة في خطوط متساوية وهو اسلوب يعود الى اصل روماني أو بيزنطي . وجدير بالذكر ظهور المتدلّيات السقفية في هذه الحقبة ، وبروز ميزتين فائقتين اتصف بهما فنّ الزخرفة الاسلامية : الاشكال الهندسية ، والحروف الكوفية . أما الاشكال الحيوانية فقد كانت طيلة العصور الاسلامية أقلّ استعمالاً في مصر وسورية منها في اسبانيا وفارس . وانه لمن حسن الطالع ان تكون أفضل نماذج العمارات الراجعة الى عصر المماليك باقية حتى اليوم . وهي من أمتع المشاهد التي يقصدها السياح وطلاب العلم .

حتى إذا كانت أواخر القرن الرابع عشر انتهى عهد المماليك الى ان يكون من أظلم عهود تاريخ سورية ومصر . فكان عدد من سلاطينهم بغاة سفاحين ، بل ان منهم من كان سافلاً خليعاً . في حين كان أكثرهم لا يملكون شيئاً من الكفاءة أو الثقافة . فهذا المؤيد شيخ (١٤١٢ — ١٤٢١) ، الذي اشتراه السلطان بَرْقوق من تاجر جركسي ، كان سكرتيراً يقترف جسام القبائح . وذاك بَرْسْبَاي (١٤٢٢ — ١٤٣٨) وهو كذلك من مماليك برقوق لم يكن يحسن اللغة العربية . ومن مساوئه انه امر بقطع رأسي طبيبيه عندما تعذر عليهما شفاؤه

من داء مميت . أما اينال (١٤٥٣ ـــ ١٤٦٠) ، وهو ايضاً من مماليك برقوق ، فكان أميّاً يجهل القراءة والكتابة . وعلى الرغم من تطاول عهد سلطنته فانه لم يكن بقادر على توقيع اسمه على المناشير والمراسيم إلا بعد ان يرسم له الموقّع رسماً خفيّاً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم . واتهم إينال هذا بحب الغلمان كما اتهم بَيْبَرس من قبله . وكانت منشآت الغلمان التي اشتهر امرها في زمن العباسيين مزدهرة في أيام هؤلاء السلاطين المماليك . أما يَلْبَاي (١٤٦٧) ثالث خلفاء اينال فلم يكن أميّاً فحسب ، بل معتوهاً . وأما قايتباي (١٤٦٨ ـــ ١٤٩٥) ، الذي كان برْسْبَاي اشتراه بخمسين ديناراً ، فقد أمر بالكيماوي علي بن المرشوشي أن تُقلع عيناه ويُقطع لسانه لعجزه عن تحويل المعادن السفلى ذهباً .

ومما زاد في سوء حالة البلاد الاقتصادية سياسة السلاطين النفعية القائمة على مصالحهم الشخصية . من ذلك ان برْسْبَاي منع استيراد التوابل من الهند ، وفي جملتها الفلفل المرغوب فيه كثيراً ، وقبل ان ترتفع أسعارها وضع يده على الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها من الناس بأسعار ضمنت له ربحاً فاحشاً . كذلك احتكر صناعة السكر . وبلغ به الطمع ان حظر زراعة قصب السكر زمناً لكي يؤمّن لنفسه أرباحاً طائلة . وفي عهده اجتاح الطاعون مصر والبلدان المجاورة، وهو ضربة نكبت بها البلاد تكراراً ، فكثُر الطلب على السكر

إذ كان يستخدم علاجاً خاصاً لهذا الداء . ومع ان الطاعون لم يفتك بالناس فتك « الموت الاسود » Black Death في اوروبا فانه توفي من جرائه ، على ما قيل ، نحو ثلاثمائة الف نسمة في العاصمة وحدها خلال ثلاثة اشهر . وخاف السلطان من الوباء فحسبه عقاباً من الله لانتشار المعصية بين الناس . وعدّ خروج النساء في الاسواق علة ذلك البلاء فمنعهن من ذلك . ثم إنه سعى الى التكفير عن سوء اعماله بفرض ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على ان ابتزاز الأموال لم يقتصر على غير المسلمين . ولما كانت الحكومة لا تعرف نظاماً معيّناً لجباية الضرائب فلم يكن لهؤلاء السلاطين سبيل الى جمع الأموال اللازمة لحملاتهم الحربية ولاسرافهم الفاحش في نفقات البلاط وتشييد العمارات الكبرى إلا ابتزاز الأموال من الرعية ومصادرة أموال ذوي المناصب في الدولة الذين أثروا على حساب الجمهور ، اضف الى ذلك ان قبائل البدو في الدلتا والصحراء الشرقية كانت تغير على الفلاحين الآمنين في مزارعهم في وادي النيل فتنهب وتتلف ما استطاعت الى ذلك سبيلاً . ثم ان الجراد ، كالاوبئة ، كـــان يزور البلاد بين الفينة والفينة حتى أصبح الجوع ضربة مزمنة يتفاقم شرها بخاصة في سني الطاعون والجفاف الناشيء عن انخفاض الماء في النيل . وتقدر خسارة سورية ومصر بسبب ذلك كله في عصر المماليك بنحو ثلثي مجموع سكانهما .

وفي آخر هذه الحقبة أخذت بعض العوامل العالمية تزيد البلاد فقراً وتعاسة . ففي سنة ١٤٩٧ – ١٤٩٨ اكتشف الملاّح البرتغالي فاسكو ده غاما Vasco de Gama طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح . وهو حادث خطير كان له أثرهُ السيء في تاريخ المملكة السورية المصرية لا لأن غارات الاسطول البرتغالي وسواه من اساطيل اوروبا على سفن المسلمين في البحر الاحمر والمياه الهندية تكاثرت بعد ذلك فحسب ، بل لأن حركة تجارة التوابل وسواها من المحصولات الاستوائية التي امتازت بها الهند وبلاد العرب انتقلت من المرافىء السورية والمصرية الى غيرها . وبذلك تلاشى الى الابد ذلك المرفق الذي كان يدرّ على القطرين عوائد كبيرةً .

وفي مطلع القرن الخامس عشر حلّت بسورية ضربة أنزلها بها رجل تتريّ من برابرة آسيا الوسطى كانت اشد من ضربات المماليك . ذلك هو تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي وُلِد سنة ١٣٣٦ في ما وراء النهر من سلالة وزير لجنكيز خان ، وان تكن اسرته ادعت التحدر من جِنكيز نفسه . اما ابن عَرَبْشاه الذي ترجم لتيمور وحمل عليه فيقول : « كان ابوه اسكافاً فقيراً جداً . ولما كان به من القلة اندفع الى ارتكاب الجرائم . ففي بعض الليالي سرق غنمة فضربهُ الراعي في كتفه بسهم فأبطلها وثنّى عليه بأخرى في فخذه فأبطلها فازداد كسره على فقرهِ فسمي لنك اي اعرج . وفي سنة ١٣٨٠ سار على

رأس اقوامه التتر في سلسلة حملات متواصلة الحلقات افتتح بها افغانستان وبلاد العجم وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد . ودوخ ارض الرافدين . ففي تكريت مثلاً ، مسقط رأس صلاح الدين ، انشأ هرماً من رؤوس القتلى . حتى اذا كانت سنة ١٣٩٥ حمل على بلاد القبشاق واحتل موسكو فأقام بها ما فوق العام . وبعد ثلاث سنوات غزا الهند الشمالية وقتل ثمانين الفاً من أهالي دلهي .

وكانت سرعة اكتساح تيمور لسورية الشماليه سنة ١٤٠١ اشبه بالعاصفة تمر بالبلاد فلا تبقي ولا تذر . ففي حلب اقام عساكره نحو ثلاثة ايام يأسرون وينهبون ويقتلون ويستبيحون كل شيء . ولقد عمل تيمور من رؤوس نحو عشرين الفاً من سكانها المسلمين اكيمات (تصغير اكمة) محيط كل واحدة منها عشرون ذراعاً وارتفاعها عشرة اذرع جاعلاً الوجوه بارزة الى الخارج يراها من يمر بها . وهدم اجمل ما فيها من مساجد ومدارس . فلم يُعدْ أحدٌ بناءها حتى الآن. وتوجه تيمور الى دمشق فاحتل في طريقه حماه وحمص وبعلبك ولم يقوَ الجيش المصري على الصمود في وجه جيشه فانهزم هزيمة شنعاء . وسقطت دمشق بعد ان دافعت عنها حامية قلعتها شهراً . واعمل جيش تيمور في دمشق النهب والسلب والنار حتى لم يبقَ من الجامع الاموي إلا بعض جدرانه . ومن دمشق اسرع هذا الغازي السفاح راجعاً الى بغداد ليثأر من اهلها لقتلهم بعض رجاله . فأعمل في المدينة السيف واخذ في

التقتيل والتقطيع مُقيماً فيها مائة وعشرين برجاً من رؤوس ضحاياه .

وفي السنتين اللاحقتين زحف تيمور على آسيا الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند أنقره في ٢١ تموز سنة ١٤٠٢ وأخذ السلطان بايزيد الأول اسيراً في قفص . واستولى ايضاً على عاصمته بروسه وعلى أزمير . ولحسن طالع المماليك مات تيمور بعد سنتين وهو زاحف لافتتاح الصين تدفعه أشد رغباته وأطماعه . أما خلفاؤه فقد أفنوا قواهم في المشاحنات والفتن الداخلية .

وجاءت الضربة القاضية على الامبراطورية العربية من جانب العثمانيين في اوائل القرن السادس عشر . ولقد سبقت الاشارة الى اصل الترك العثمانيين الى بلاد المغول والى اختلاطهم بالقبائل الايرانية في آسيا الوسطى والى نزولهم آسيا الصغرى حيث انتزعوا السيطرة تدريجياً من ابناء عمهم السلاجقة وابتلعوهم حتى اذا ما جاء مطلع القرن الرابع عشر انشأوا مملكة كُتب لها ان ترث الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية.

وفي سنة ١٤٨١ نهضت المشكلة العثمانية في وجه سلاطين مصر فأقضّت عليهم مضاجعهم . وبدأت المنافسة بين الجانبين تقوى وتعظم . ولقد ظهرت اول امرها في مناوشات متعاقبة بين عمالها على حدود آسيا الصغرى وسورية . فأدى ذلك تدريجياً الى نشوب الحرب ، وأهم مواقعها معركة برج دابق بين جيوش المماليك بقيادة قانصوه الغوري (١٥٠٠ —

١٥١٦) وجيوش الترك في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٥١٦ بالقرب من حلب ، التي انتصر فيها العثمانيون على المماليك انتصاراً باهراً . ولا عجب فقد كانت تجهيزات الجيش التركي بالمعدات الجديدة مع المدافع والبندقيات وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد تفضل معدات الجيش المصري . فكان الجيش المصري يضم لفيفاً من البدو والسوريين الذين لم تكن لهم خبرة في استعمال هذه الاسلحة . زدْ على ذلك انه سبق للترك استعمال البارود مدة من الزمن ، في حين احتفظ السوريون والمصريون بنظريتهم القائلة بأن البطولة الشخصية هي العامل الحاسم في القتال . وهكذا دخل سليم السلطان العثماني مدينة حلب ظافراً فرحب به اهلها منقذاً من فظائع المماليك . وما لبثت سورية باسرها ان انتقلت الى حوزته . ومن ثم زحف هذا الفاتح جنوباً الى مصر فاحتلها سنة ١٥١٧ . وبذلك قضى على سلطة المماليك قضاءً مبرماً . واذ كان الحجاز بحاضرتيه مكّة والمدينة ملحقاً بالمملكة المصرية فقد اصبح الآن بحكم الطبع جزءاً من السلطنة العثمانية . امـــا القاهرة التي كانت مركز السلطة الاسلامية في الشرق فأمست مدينةً من مدن الأمصار ، يخطب الوعاظ من على منابرها قائلين :

« وانصر الله السلطان بن السلطان مالك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين . »

وسواء اصحّت الدعوى القائلة بأن المتوكل آخر الخلفاء الاسميين اوصى بالخلافة إلى السلطان العثماني أم لم تصح فالأمر الواقع ان امير القسطنطينية التركي اكتسب على التدريج امتيازات الخلافة ، ليتخذ بعد لنفسه لقبَ الخليفة . ومع ان بعض خلفاء سليم تسمّوا بالخلفاء وخوطبوا بلقب الخلافة فان هذا اللقب لم يكن إلاّ من قبيل التبجيل ولم يُعترف به الا خارج مناطق نفوذهم . وأول وثيقة سياسية معروفة أشير فيها الى السلطان العثماني بلقب الخلافة واعتُرِف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانيـة هي المعاهدة الروسية التركية التي عقدت سنة ١٧٧٤ .

وهكذا اصبح سلطان القسطنطينية الخليفة أعظمَ ملوك الاسلام ووارثاً لخلفاء بغداد وأباطرة بيزنطية في وقت معاً. وبتحطيم سلطة المماليك وتوطيد أقدام الترك على البوسفور تحوّل مركز السلطة الاسلامية غرباً . ذلك بأن مركز الحضارة العالمية أيضاً كان قد انتقل في هذا الزمن غرباً، وجاء اكتشاف اميركا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح فاتحة لعصر جديد . وهنا ينتهي تاريخ الخلافة العربية والدول الاسلامية التي نشأت في العصور الوسطى على انقاض الامبراطورية العربية ويبدأ تاريخ سلطة العثمانيين على العالم العربي .

العصور المظلمة وفجر النهضة الحديثة

الاقطار العربية في العصر الحديث

بينا كان الاوروبي يتخبط في ديجور العصور الوسطى كانت البلدان العربية ترتع في عصورها الذهبية رافعة مشعال النور والعرفان . ولقد ظلت كذلك في نجوة من الظلمات التي دهمت اوروبا قبلها الى ان استولى على ربوعها المماليك ثم الاتراك العثمانيون . فقد فاز هؤلاء الاتراك بتشييد امبراطورية من أعظم الامبراطوريات الاسلامية وأطولها عمراً . وهم فضلاً عن استيلائهم في صدر القرن السادس عشر على مجمل البلدان العربية فقد نشروا سلطانهم بعد ذاك حتى جبال القوقاس شرقاً وأبواب فينا غرباً وجعلوا من عاصمتهم القسطنطينية التي اغتصبوها من البيزنطيين عام ١٤٥٣ مركزاً تحسب له دول اوروبا حساباً . في هذه الحقبة عمّ الكسوف

البلاد العربية بحواضرها المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة ، هذه الحواضر التي كانت كل منها عاصمة لامبراطورية ومركزاً لثقافة فأصبحت الآن مقراً لولاة يعينهم الباب العالي ومرابط لحاميات ترسلها الآستانة ، تلك المدينة التي تطاولت اليها فيما مضى أعناق أبناء دمشق وبغداد غير مرة عندما كانت الاولى عاصمة الامويين والثانية قاعدة العباسيين . وانتظمت الامبراطورية العثمانية عدا العنصر العربي عناصر شتى من ارمنية وسريانية وكردية ويونانية وبلقانية وغيرهـا لا تجمعها بالعنصر الحاكم ولا تجمع بعضها ببعض أية جامعة وثيقة قومية كانت رابطة القوة المسيطر ليس غير . ومن هنا ساهمت كلها ، بمقادير مختلفة ، في احتمال المظالم ودفع الضرائب والخضوع لنظم قلم المراقبة وعسف ديوان الجاسوسية . فلا غرو اذا لم نجد في القرون الاربعة التي ابتدأت عام ١٥١٧ أثراً عربياً ما يتصف بالابداع والابتكار سواء في العلم والادب أو في الفن .

ولقد قام من السلاطين مَن حاول إجراء إصلاحات في الادارة والجندية كسليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . ولكن التنظيمات التي سنّوها لم تُنفذ . ومثل ذلك كان نصيب الخط الشريف الذي نشره عبد المجيد الأول عام ١٨٣٩ والخط الهمايوني الذي نشره عام ١٨٥٦ وتوخى بهما إقامة العدل ورفع الحيف والمساواة بين جميع أفراد الرعية بقطع النظر عن الدين والملة . وما ان

جاء دور عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) حتى قُضي على كل نزعة حرة في المملكة وطُمس كل قبس من نور .

ولكن بعض الولايات العربية أفلتت بعض الافلات من هذا النير المخوف وتمتعت بشيء من الحكم الذاتي . فانتهت السيادة التركية في مصر إلى أن تصبح منذ اوائل القرن التاسع عشر اسمية فقط . وهي كانت أبداً كذلك في الجزيرة العربية باستثناء بعض المراكز البحرية أو المجاورة للبحر من أعمال الحجاز واليمن . أما الهلال العربي ، بما فيه العراق وسورية الكبرى ، فبقي مخسوفاً طيلة هذه الحقبة يئن ابناؤه من جور الحكام الاتراك ، فعمّ الفقر وخيم الجهل وقلّ عدد السكان في هذه الديار خلا جبل لبنان الذي احتفظ أبناؤه – الدروز في الجنوب والموارنة في الشمال – بمقدار من الحرية الفردية والقومية ، والذي تمتع بنظام إقطاعي مستقل أو شبه مستقل ولا سيما أثناء ولاية الامير فخر الدين المعني الثاني (١٥٨٥ – ١٦٣٥) وولاية الامير بشير الشهابي الكبير (١٧٨٨ – ١٨٤٠) . وبعد حوادث سنة الستّين اعترف الباب العالي باستقلال لبنان الداخلي تحت حماية الدول الأوروبية الخمس الكبرى .

وكانت مصر أول بلاد عربية اللسان أفاقت من سباتها وأحكمت العلاقات الحيوية مع بلدان اوروبا الغربية ، وذلك ابتداء من غزوة نابليون عام ١٧٩٨ . فقد أدخل نابليون الى هذا القطر مطبعة عربية كان قد غنمها من رومــة وأنشأ أول هيئة

علمية يمكن اعتبارها مجمعاً . وبذلك ولّد ، من حيث لم يحتسب ، شرارةً فكرية ما لبثت أن أضرمت ناراً امتدّ لهيبها . وكان في الجيش العثماني الذي ساهم في إجلاء نابليون عن وادي النيل ضابط ألباني الجنس تركي اللسان اسمه محمد علي وهو الذي تمكن فيما بعد من توطيد سلطته على البلاد بأسرها وتأسيس الدولة الخديوية في ظل الخلافة العثمانية. ومن أجلّ ما قام به محمد علي من الخدمات للشرق ولمصر بخاصة انه عرّض بلاده لاستقبال المؤثرات الخارجية من ثقافية وعلمية وأرسل بعثات من الطلبة المصريين الى فرنسا . وكان محمد علي يحلم بانشاء امبراطورية عربية تتمركز في عاصمته القاهرة قبل أن كان أبناء العربية على شيء من الوعي القومي أو الاستعداد للانضمام الى جامعة شاملة . وبعد أن سحقت جيوشه القوات الوهابية في الجزيرة سارت عام ١٨٣١ بقيادة ابنه ابراهيم باشا الى سورية فاستخلصتها من أيدي بني عثمان وكادت تقضي على تلك الخلافة بأسرها لولا تدخل انكلترا وغيرها من الدول الاوروبية ودعمهما العرش العثماني المتداعي .

وجاء حكم ابراهيم باشا للبلاد الشامية (١٨٣١ — ١٨٤٠) فاتحة عهد جديد فتحت فيه البلاد أبوابها للبعثات والارساليات الاجنبيّة ، فكثر فيها عدد المعلمين والاطباء والزائرين والسياح من بروتستانت وكاثوليك ومن فرنسيين وبريطانيين واميركان . وانشئت في البلاد على أثر ذلك

مدارس ومكاتب ومطابع اجنبية ووطنية ، وتشكلت جمعيات علمية وأدبية ، وترجمت كتب دينية وفلسفية وعلمية ، وكان من نتيجة ذلك كله ان تلقحت العقلية العربية بلقاح الفكر الاوروبي الحديث وان تسربت الى البلاد افكار جديدة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها من الآراء الحديثة ذات العلاقة بالديمقراطية العصرية والقومية الوطنية . والواقع ان هذه اليقظة التي تمّت للشرق العربي من عصوره المظلمة بفضل المنبّهات الاوروبية الغربيّة والاميركية تماثل يقظته في القرن التاسع عندما كانت المنبهات بالأكثر يونانية وتعارض يقظة الغرب في القرن الثاني عشر التي سارت فيها المنبهات من الشرق الى اوروبا .

على ان الجزيرة العربية لم تتعرض لمثل هذه العوامل كما تعرّضت لها اخواتها في الشمال ، وذلك بداعي اعتزال الجزيرة الجغرافي ومحافظتها الدينية وعصبيتها الموضعية . فبقيت حضارتها من طراز العصور الوسطى ولم تصطبغ بألوان حديثة ، الى ان جاء الملك عبد العزيز بن سعود ، فأدخل على الجهازين الاقتصادي والاجتماعي اصلاحات جذرية وكذلك فعل بعده ابنه الملك فيصل. ولقد كانت الجزيرة في مطلع الحرب الاوروبيـــة الاولى مركزاً لحركة قام بها الشريف حسين ترمي إلى الوحدة العربية السياسية . وتلك هي المحاولة الثانية ، في سبيل هذه الوحدة ، بعد محاولة محمد علي ، وقد فشلت لمجيئها قبل أوانها .

وكان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج

الفكري الغربيّ ان تولّدت مبادئ القومية العربية الشاملة واستمدت وحيها بالاكثر من النظريات السياسية الاميركية — بخلاف القومية التركية التي جاءت متأخرة عن العروبة والتي استمدت إلهامها من مبادئ الثورة الافرنسية . وإنما كان ظهور مبادئ القومية العربية في العقد السابع من القرن الفائت على يد رجال الفكر السوريين ، وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين ، الذين تثقفوا في المدارس الاميركية في بلادهم ووجدوا في مصر الخديوية جواً أكثر ملاءمة بجهودهم العلمية والسياسية .

على أن النهضة العربية كانت في بادئ أمرها حركة فكرية مجردة قوامها إحياء اللغة العربية ودرس آثارها والاشادة بماضي العروبة المجيد . وما لبثت أن استوحت من الماضي ما حملها على التطلع إلى المستقبل فجرّت وراءها نهضة قومية سياسية تستهدف الاستقلال الشامل والوحدة العربية . غير أن هذه النهضة القومية السياسية تطوّرت فيما بعد وتنوّعت بمقتضى الموجبات المحلية والمشاكل الموضعية التي اصطدمت بها ، فاتخذت في مصر بعد عام ١٨٨٢ شكل المقاومة للاحتلال البريطاني وفي سورية شكل المقاومة للسياسة التركية وسياسة التتريك التي اعتنقها حزب تركيا الفتاة . وكذلك كان شأن فلسطين التي تولدت فيها بعد الحرب العالمية الأولى قوميةٌ فلسطينية بفضل الاصطدام بالانتداب البريطاني والحركة الصهيونية ، وشأن العراق الذي تمخّض بروح عراقية بسبب

مقاومة الانتداب البريطاني . أمّا لبنان الذي كان في أول أمره راضياً عن الانتداب فقد انتهى أخيراً إلى استنكاره والتخلص منه وإعلان الاستقلال سنة ١٩٤٣ وتخلصت سورية من الانتداب سنة ١٩٤٥ . وفي البلاد العربية اليوم حركة ترمي إلى جمع شملها في اتحاد عربي من دعائمه الأولى الثقـافة والاقتصاد والمصلحة المشتركة .

وهكذا فان هذه الاجزاء العربية في الامبراطورية العثمانية انفصلت بعضها عن بعض بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . ثم ما كادت تنتهي الحرب العالمية الثانية ويبدو الخطر الصهيوني حتى قوي الشعور في نفوس أبناء هذه الدول العربية الجديـدة التي نشأت وأصبحت مستقلة إلى ضرورة الاتحاد والترابط فيما بينها . فظهرت حركة ترمي إلى جمع شملها في اتحاد عربي من دعائمه الآن الثقافة والاقتصاد . وكان من نتائج هذا الشعور إنشاء الجامعة العربية وتوقيع ميثاقها في آذار سنة ١٩٤٥ ، وكان من أعضائها عند انشائها مصر والعراق والعربية السعودية واليمن ولبنان وسورية والاردن ثم انضم اليها بعد ذلك ليبيا والسودان وتونس والمغرب والكويت والجزائر . ومن هذه الدول اليوم امارة هي امارة الكويت وأربع دول ملكية هي المغرب وليبيا والمملكة العربية السعودية والمملكة الاردنيـة الهاشمية ، وسبع دول جمهورية هي مصر والسودان وتونس وسورية والعراق ولبنان والجزائر . وكذلك أعلنت الجمهورية

في اليمن حيث لا يزال الإمام البدر يحارب للاحتفاظ بسلطته وملكيته .

ومما لا ريب فيه ان القومية الحديثة إنما هي بضاعة غربية استوردها العالم ، بما فيه الشرق العربي ؛ من أوروبا الغربية . وباقتباس مبادئها سار الشرق عن قصد أو عن غير قصد في سبيل التجديد واطّراح التقليد والأخذ بالعلمانية والاتجاه نحو أهداف الحضارة الغربية .

والواقع ان تعرّض العرب للعوامل الأوروبية الغربية وما نتج عن ذلك من الوعي القومي هو أكبر حدث في تاريخ الشرق العربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وإذا صح الاستنتاج بالقياس على الاحداث التي تلت القرن التاسع فسيتلو هذا الدور الذي يجتازه الشرق العربي اليوم دور ابداع وابتكار يقوم فيه أبناء العربية بقسطهم من خدمة المدنية والانسانية .

فهرست الأعلام

ب

ت

ث

ج

ح

ش

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

فهرست

٦١٤/٤/١٩٦٨

صدر عن

دار العلم للملايين

تاريخ الشعوب الإسلامية	كارل بروكلمان
يقظـــة العرب	جورج انطونيوس
تاريخ صدر الإسلام والدولة الاموية	الدكتور عمر فروخ
الإســـلام والعـــرب	روم لاندو
التاريخ العربي والمؤرخون	الدكتور شاكر مصطفى
الدبلوماسية نشأتها وتطورها وقواعدها	الدكتور علي الشامي
الفدراليــــة والمجتمعات التعددية في لبنان	الدكتور عصام سليمان
مختصر تاريخ العرب	سيد أمير علي
التفسير الإسلامي للتاريخ	الدكتور عماد الدين خليل
مراحل تطور النثر العربي	الدكتور علي شلق
نجـــــوم الظهـر	جورج جرداق